لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

تاريخ القرن التاسع عشر

فى أوربا

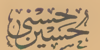
منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى

تأليف



حائز لدرجة العالمية
من جامعة لندن

و



دكتور فى الآداب
من جامعة مونبلييه

(يجب أن تكون كل نسخة مختومة بختم اللجنة)

[الطبعة السادسة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م

الثمن ٢٥٠ مليما







لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤



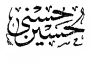
في أوربا

منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى

تأليف



و



حائز لدرجة العالمية
من جامعة لندن

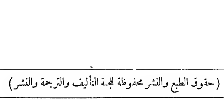
دكتور في الآداب
من جامعة مونبلييه

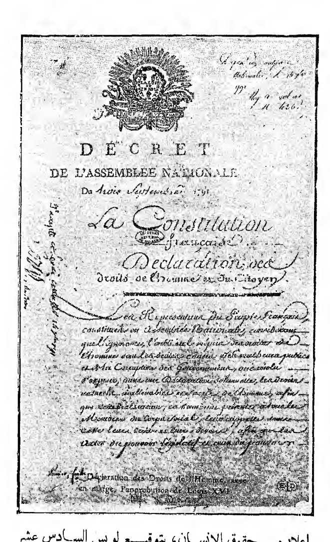
[الطبعة السادسة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م

الثمن ٢٥٠ مليما





DÉCRET

DE L'ASSEMBLÉE NATIONALE

Du trois Septembre 1791.

La Constitution française.

Déclaration des droits de l'homme et du citoyen.

Déclaration des Droits de l'Homme avec, en marge, l'approbation de Louis XVI

إعلان حقوق الإنسان، بتوقيع لويس السادس عشر

[منقولة عن الصورة الأصلية المحفوظة بدار السجلات الرسمية بباريس]

فهرست الكتاب

فهرست الصـــور

صفحة

فهرست الخرائط



مقـــدمة الكتاب

حمدا لله وصلاة وسلاما على رسوله الكريم . وبعد فهذا كتاب فى تاريخ القرن التاسع عشر وما وليه من الحوادث حتى نهاية الحرب العظمى نشرناه لا رغبة فى ذكر حقائق مجهولة أو استيعاب كل الحقائق المعـلومة ، بل أردنا به تتبع سير المدنيـة فى دور هو بلا نزاع أهم أدوارها ، تتبعا يقوم على تمحيص الحوادث ، وربط الأسباب بالنتائج . فان مجرّد سرد الوقائع التاريخيـة دون تقييـدها بغرض خاص ، وربطها بعضها ببعض للوصول الى نهاية معينـة ، لا قيمة له فى الواقع ، ولا هو من التاريخ الصحيح فى شيء .

ولهـذا السبب بعينه يرى القارئ أننا لم نقف فى عملنا عنـد حدود القرن التاسع عشر ، بل تمشينا مع الحوادث الى نهـاية الحرب الكبرى ، إذ أن سلسـلة وقائع ذلك القرن ترتبط كل الارتباط بأسباب هـذه الحرب ، بل يمكن القول بأنها ثمرة ما تمخض عنـه القرن المـاضى . فهى بلا ريب الحدّ الفاصل بين عهدين . والحادث الجلل الذى يفصل بين فترتين من فترات التاريخ .

تلك غايتنا بسـطناها بإيجاز ، فان كنا قد بلغناها فى كتابنا هـذا ، فذلك أقصى ما نرجو ، وإلا فحسبنا أن قد أفرغنا جهدنا فى سبيل تأدية نصيبنا من البحث وراء الحقيقـة . ولسنا ندعى الكمال فيما وصلنا اليه ، وإنمـا نرجو أن نكون قد وفقنا على الأقل الى تمهيد السبيل أمام طلاب البحث فى تاريخ العهد الهام الذى يتناوله كتابنا .

وبعد ، فلقد صادفتنا فى طريقنا عقبات وصعاب جمة ، أقلها القيام بأعباء مهمة التدريس ، ذلك الى الرغبة فى إنجاز عملنا بأقرب ما يستطاع . وإن نظرة فيما أوجدناه

من الصور والوثائق والمصوّرات التاريخية — التى نقلنا بعضها عن متاحف ودور الكتب بأوربة — لتظهر للقارئ شيئا من مقدار ما عانيناه لنستعين على تحقيق غايتنا . وقــد رأينا أن نكتب بجانب أسماء الأعلام أصلها باللغــة الأجنبية تسهيلا للاطلاع على المراجع الإفرنجية التى اعتمدنا عليها فى مباحثنا . ولذلك الغرض أيضا ذيلنا كل باب بأسماء أشهر الكتب التى وصلت اليها أيدينا فى موضوعه .

وقبــل أن نختم هذه الكلمة نقــدّم وافر شكرنا الى كل إخواننا — وخصوصا أعضاء لجنــة التأليف والترجمة والنشر — الذين عضــدونا بآرائهم أو بمساعدتهــم أو بتشجيعهم على إبراز هذا الكتاب .

ســدّد الله خطانا جميعا فى خدمة الوطن والعلم ، آمين ؟

غرة جمادى الثانية سنة ١٣٤٠ (٢٩ يناير سنة ١٩٢٢)

محمد قاسم   حسين حسنى

مقدّمة الطبعة السادسة

نقحت هــذه الطبعة فى مواضع عديدة . وقصرت كسابقتها على تاريخ أوربة وحدها حتى يتسع المجال لتفصيل تطوّرها السياسىّ والاقتصادىّ والاجتماعىّ منذ عهد الثورة الفرنسية الى الوقت الحاضر ؟

غرة رجب سنة ١٣٤٨ (٣ ديسمبر سنة ١٩٢٩)

محمد قاسم   حسين حسنى

القرن التاسع عشر

نظــــرة عامــــة

ليس التــاريخ الحديث إلا جزءا متمما لسلسـلة الحضارة التى بدأ طرفها الأوّل فى عهــد التاريخ القديم، ثم أدركها التراخى فى العهد المتوسـط . وما تاريخ القرن التاسع عشر إلا نتيجة التقلبات التى مرت بهـا العصور الحديثـة ، فهو قرن حافل بالتغيرات والانقلابات الخطـيرة التى تميزه عن غيره من القرون؛ فاذا عدّ القرن الرابع عشر والخامس عشر عهد النهضـة وإحياء العـلوم ، والقرن السـادس عشر والسابع عشر عهد الإصـلاح الدينى ، والثامن عشر عهد النزاع الاستعمارى ، فيعتبر القرن التاسع عشر عهد الانقلاب السياسىّ والاجتماعىّ والاقتصادىّ ذلك الانقلاب الذى خلق أوربة خلقا جديدا وجعل منها قارة تدب فيها روح القوّة والحياة .

أما هذه الانقلابات العديدة فتتلخص فيما يلى :

(١) الانقلابات السياسية — شاهد هذا القرن بدء انتصار مبدأ الديموقراطية وسيادة الشعوب فى العصور الحديثة ، وفيه اشـتدت الروح الوطنية بين الأجناس والشعوب حتى غدت خطرا على السلم، وازدادت قوّة الرأى العام ولسانه الذى تنطق به (الصحافة) ازديادا يرى أثره فى التشريع الحديث ، وفيه ظهرت وحدات عاملة جديدة فى المجتمع السياسى كألمـانيا وايطاليا والمستعمرات الانجليزية المستقلة ، كما ظهرت بوادر نهوض الشرق القديم .

(٢) الانقلابات الاقتصادية والاجتماعيــة — شهد هذا القرن انقلابا عجيبا فى الصـناعة والزراعة ، فقد استخدمت الآلات البخارية — والكهربائيــة

فيما بعد — مكان الأيدى العاملة فى الصـــناعة ، كما استخدمت الآلات والمخترعات الحديثـــة لتحسين إنتاج الأراضى . فنشأ عن هـــذه التغيرات انقلابات ســـياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة غيرت معالم العهد القديم ، وبعثت فى أركان الكرة روحا جديدة . وقد كانت انجلترا أســـبق الأمم الى الأخذ بهـــذه المخترعات ، ثم تلتها دول أوربة وامريكا فدول الشرق البعيد .

ولقد كان أعظم هذه التغيرات شأنا ازدياد عدد السكان ، واتساع نطاق التجارة ، وازدياد حركة البيوت المـــالية ، ونهضة الشعوب نهضة فكرية عظيمة ظهرت آثارها فى الآداب والعـــلوم والفنون بكامل أنواعها ، وازدياد عناية الحكومات بالصـــحة والمساكن والتعليم وإعالة الفقراء والعجزة والمسنين ، وتحوّل السلطة من يد أصحاب الأراضى الى أيدى المموّلين الذين استثمروا أموالهم فى إنشاء المصانع الحديثة كما تحوّل السلطة الآن الى طبقة العمال بدليل تغير التشريع الأوربى خلال هذا القرن فى مصلحة هـــذه الطبقات على التوالى . وفى هذا العهد بدأ الصراع الهائل بين العمال وأصحاب الأعمال بطريق العمل المباشر والعمل التشريعى أيضا ، وازدادت الفوارق الاجتماعية على أثر تكدس الأموال فى أيدى بعض الأفراد تكدسا ولد الأحقاد وأورث الضغائن وأدى الى انتشار مبادئ الاشتراكية فى كثير من أنحاء المعمورة . وفيه أيضا اشتدّت الرغبة فى الاستعمار لفتح أسواق جديدة والاستئثار بمناطق المواد الأوّلية للصناعة .

(٣) يمتاز القرن التاسع عشر بميزة لا يشاركه فيها قرن قبـــله وهى زوال روح التعصب الدينى والمذهبى تقريبا بين أبناء الأمة الواحدة حتى أصبح الكل فى المعاملة سواء بعد أن كان لا يتسنى لمن كان على غير مذهب الحكومة أن يتقلد وظيفة فيها ، أو يتمتع بالتعليم فى مدارسها ، أو الجلوس فى إحدى هيئاتها النيابية .

(٤) كان من نتائج انتشار المبادئ الديموقراطية وإعادة تنظيم الحكومات على هذا الأساس أن أصبح التعليم أكثر انتشارا بين كل الطبقات ، وأقرب منالا للفقراء الذين أتيحت لهم الفرص العديدة لإظهار كفاءتهم والانتفاع بمواهبهم .

(٥) كان أهم عامل فى السياســة الأوربية فى هذا القرن ذلك التنازع الاقتصادى الذى نشأ عن تقدّم الأمم فى مضمار الصناعة ، وازدياد الرغبة فى احتكار أسواق العالم ومناطق المواد الأوّلية ، وليس التنازع على تقسيم أفريقية وآسيا إلا أثرا من آثار هذا التنافس الجديد .

(٦) كان من أثر ارتقاء الصناعة وازدياد المنافسة التجارية فى هذا القرن أن تغيرت عدد القتال واشتدّت قوتها فى التدمير والإهلاك حتى غدت شبحا هائلا مخيفا يزعج المفكرين إزعاجا أدّى الى الدعوة للتحكيم والتفاهم بين الأمم . إلا أن هذه الدعوة لم تلق فى هذا القرن نجاحا من أمم استغرقتها المادّيات ، وهيمن على شؤونها أصحاب رءوس الأموال الذين يعيشون فى جوّ المصالح المادّية الخاصة .

(٧) شاهد القــرن التاسع عشر ارتقاء وسائل المخابرة كالبرق والبريد والتليفون السلكى واللاسلكى ، كما شاهد تقــدّم المواصلات البرية والبحرية فى أنحاء العالم . وفيه فتحت قناة السويس التى نشطت التجارة بين الشرق والغرب ، وجعلت مصر التى تسيطر على هذا الطريق الحيوى مطمح أنظار الدول العظمى ، فكان من جراء ذلك ما كان من تدرج الحوادث التى أصابت مصر بأزمات سياسية عديدة .

الباب الأول
الثـــورة الفرنســـية

الفصل الأول
حالة فرنسا الداخلية — أســباب الثــورة

تمهيـــــد — ينصرف الذهن عادة عنـد سماع كلمة الثورة الفرنسـية الى مجرّد الفظائع وأعمال التخريب والفوضى وسفك الدماء التى صحبت هذا الحادث الجلل ، على أن الثـورة يراد بهـا قبل كل شىء اقتلاع الأنظمة والمبادئ القديمـة السائدة وتمهيد الطريق لصوغها فى قالب جديد من الحرّية والإخاء والمساواة .

وأنه لمن الخطأ أن يظن أن الثورة حققت كل آمالها أو سارت وفق مبادئها ، فكثيرا ما أهينت الحرية ممن كانوا يعملون لنصرتها ، وكثيرا ما اقترف رجالهـا جرائم الملكية القديمة بدعوى تأييد تلك الحرية .

ولا تعدّ الثورة الفرنسية حادثا هاما فى تاريخ فرنسا وحدها ، بل فى تاريخ أوربا بأسرها ، نظرا لمـا بثته فيها من المبادئ الحديثة ، وما خلفته من الحروب الطويلة ، والانقلابات السياسية والاجتماعية التى ملأت تاريخ القرن التاسع عشر .

ولكى نعلم اسـباب الثورة الحقيقية ، ونتبين العوامل التى جعلت فرنسا تتقدّم غيرها فى هذا السبيل ، وجب أن ندرس الحالة فيها قبل هذا الانقلاب .

(١) الحالة السياسية والاجتماعية

الملكية والحكومة — كانت الملكية فى فرنسا واسعة النفوذ مطلقة السلطان على اعتبار أنها تستمد السلطة من الله تعالى، ولذلك كانت طاعة الملك واجبة وكلمته قانونا ، وله مطلق التصرّف فى المال وفى الحرية وفى الحياة . على أن هذه السلطة ما كانت تستخدم دواما لمصلحة الشعب والبلاد . فكثيرا ما كانت تصادر أملاك الأفراد أو يطرحون فى ظلمات السجون أعواما عديدة بغير محاكمة ولا جريمة معينة، وكثيرا ما كانت تبذر الأموال فى بناء الدور والقصور وإجزال العطايا الباهظة للأصدقاء والندماء، وكثيرا ما كانت تجرف البلاد فى هاوية الحروب التى لم تجن منها إلا الهزيمة والعار حتى ناءت فرنسا بالديون والعبء الفادح وحقت كلمة أرجنسون « إن بلاط الملك قبر الشعب »[1] .

على أنه اذا كانت الحكومة العليا قد اضطربت بالفوضى وأعمال البذخ والإسراف طوعا لأهواء الملوك أو خضوعا لتقاليد الحكم ، فقد كانت الأقاليم تمثل تلك السلطة المضطربة كل التمثيل، فعلى الرغم من الوحدة السياسية التى كانت أعظم مظاهر الملكية، كان يتنازع أمر الحكم والقضاء فى البلاد سلطات متعدّدة بعضها فوق بعض مما يدل على بقاء آثار الإقطاع القديم، بل إن هذا الاضطراب يتجلى فى اختلاف المقاييس والموازين والضرائب والقوانين وجباية المكوس بين المقاطعات المختلفة حتى لقد قال كالون أحد زعماء الملكية : «إن فرنسا ليست إلا مملكة تتألف من ولايات مستقلة وإدارات مختلفة، وأنظمة مضطربة، وشعوب متفرّقة، بحيث لا توجد جامعة تجمع الأهلين من النظام أو المبدأ أو الرأى » .

---

(١) بلغت نفقات البلاط الملكى عام ١٧٨٩ نحو ٣٣ مليونا جنيها فى حين أن المصروفات العامة بلغت ٥٣٠ مليونا والايرادات ٤٧٥ مليونا فقط وكانت أرباح الديون الناشئة من العجز المستمر فى الميزانية تبلغ ٢٠٦ مليونا أى نحو نصف الايراد .

الامتيــازات — ولعل أعظم ما يمثل هذا الانقسام وما يقترن به من سوء الحكم فى البــلاد بقاء نظام الامتياز المجحف بسواد الشعب ، فقــد كان الأشراف يستأثرون بأرفع مناصب الدولة مدنيــة كانت أو عسكرية ، ويعفون مع ذلك من أعباء الضرائب إلا القليــل ، وكان لهم عدا ذلك عدّة حقوق وامتيازات أخرى من بقايا النظام الإقطاعى ، كحق الصــيد فى مزروعات الأهالى ، وحق القضــاء بين المزارعين ، كما كان لهم أن يتقاضوا نصابا معينا من الغــلال أو عددا معينا من الغنم والطيور كل عام ، هذا فضلا عن إرغام المزارعين على أن يطحنوا غلالهم فى طاحون الشريف ويعصروا عنبهم فى معصرته ويدفعوا ما يفرض عليهم من الأجر صاغرين .

ولقد كان أفراد الشعب يجلدون على تلك المكاره أيام عهد الإقطاع لمــا كان الأشراف قائمين بأمر الحكومة بينهم والســيطرة عليهم والدفاع عنهــم ، فلما ذهب الملك بسلطانهم ، لم يبق لهم عمل ســوى التجمع حول قصره بباريس أو فرساى ، وأصبحت حياتهم وقفا على الترف والبطالة ، فانقطعت كل صلة أدبية كانت تربطهم بالشعب ، وباتت امتيازاتهم عبئا ثقيلا لا مبرر له فى أعين العامّة التى أرهقها تحكم وكلاء الأشراف واستبدادهم .

الكــنيسة — وأما الكنيسة فقــد كانت لهــا ثروة طائلة مــن دخل الأراضى الموقوفة — وكانت تبلغ خمس أرض فرنســا تقريبا — وكانت معفاة من الضرائب إلا فيما عدا إعانات اختيارية تقدّمها من وقت لآخر ، هذا الى دخل كبير من أموال الزكاة التى كانت تفرض على العامّة وحدهم حتى لقــد بلغ إيراد الكنيسة سنويا ما يقرب من مائتى مليون جنيه . إلا أنه بدل أن تنفق هذه الأموال فى معاونة الفقراء والمعوزين كما كان الغرض المقصود منهــا أوّلا أصبح يتمتع بهــا كبار رجال الكنيسة الذين كانوا يعيشون فى ترف دونه ترف كبار الأشراف .

الضــرائب — على أن أعظم ما يسترعى النظر فى حالة فرنسا فى ذلك العهد هو نظام الضرائب الفادحة وما يقترن بهــا من الإرهاق وعدم المساواة . فالى جانب

ضريبة الفردة (Capitation) وضريبة الإيراد (Vingtieme) اللتين كان يشترك فى دفعهما الأشراف اشتراكا لا يتناسب فى الغالب مع مركزهم وثروتهم ، كان يفرض على العامة وحدهم ضريبة (Taille) أو ضريبة البيوت والعقار الثابت وذلك بنسبة تتزايد بتزايد حاجات الحكومة التى لم تعرف الاقتصاد منذ عهد كبير ، هذا الى تعنت الجباة فى التقدير وإرهاقهم فى توزيع الضريبة بحيث لو رأوا شيئا من دلائل الرقى أو معالم الرخاء على دار أو مزرعة تغالوا فى التقدير . على أن الأمر لم يقتصر مع ذلك على جباية هـذه الضرائب المباشرة بل كانت الحكومة تحتكر تجارة الملح (Gabelle) وترغم كل فرد من الأهالى رجلا كان أو امرأة أو طفـلا على شراء قدر معين حتى ولو لم يكن لديهم الخبز اللازم لأود الحياة ، فلا عجب اذا كانت هذه الأثقال العديدة من حقوق إقطاعية وزكاة كنيسة وضرائب ملكية مع كل ما يتصل بها من المظالم وعدم المساواة ترهق كاهل العامة لا سيما المزارعين الذين كانت تتألف منهـم أغلبية الشعب العظمى حتى نقد وصف هذه الحالة أحد الأشراف فقال" إن انحطاط البلاد وبؤس الحياة وخراب الملاك والمزارعين يرجع الى النظام المـالى الذى يعرض الشعب الى الظلم الصارخ والاستبداد المميت[1]" .

ومـا ضاعف وطأة هذه الضرائب احتفاظ البلاد بنظام النقابات التى قيدت حرية العمل الصناعى والتجارى ، فضـلا عن المكوس الداخلية والضرائب الباهظة المفروضة على التجارة الخارجية لحماية الصـناعة الأهلية ممـا شل نشاط البلاد وزاد فى الفوضى الشاملة تلك الفوضى التى أنضبت موارد الصـبر وجعلت الحيـاة عبئا لا يحتمل لا سيما وقد استنارت الأذهان بالحركة الفكرية التى اشتدّت فى البلاد قبيل الثورة حتى تزعزعت أركان السلطة الحاكمة وتهدّمت قيود التقاليد .

---

(١) كانت الحكومة تتقاضى عن كل مائة فرنك من الدخل ما يقـدر بـ ٥٠ الى ٥٧ فرنكا نظير ضرائبها المباشرة فقط والكنيسة تسـتولى على نحو ١٤ فرنكا بينما كان الأشراف يأخذون نظير امتيازاتهم ما يقدّر بنحو ١٤ فرنكا أيضا .

الحالة الفكرية

ظهرت فى فرنسا إبان القرن الثامن عشر طائفة من الكتاب الذين قوّضوا الدعائم التى كان يقوم عليها النظام القديم — دعائم الحكم المطلق ، وعدم المساواة فى أمور المجتمع ، وعدم التسامح فى شؤون الدين ، ونظام الحماية فى عالم الاقتصاد — فأعلن الاقتصاديون أنه لا سبيل لعلاج الكساد الظاهر فى التجارة والانتاج إلا باتباع سبيل الحرية والقضاء على القيود الصناعية والتجارية ، كما ذهب السياسيون الى أن نظام الامتياز والحكم المطلق يناقض مبادئ الاخاء الانسانى والقواعد التى قامت عليها الحكومات وهى ضمان الحرية والمساواة ، وأنه لا مناص من إعادة تلك الحقوق الطبعية للأمة حتى يقوم نظام الحكم فى البلاد على أساس وطيد . وقد كان أكبر هؤلاء الكتّاب وأعظمهم أثرا :

(١) كسناى (Quesnay) (١٦٩٤ — ١٧٧٤) أكبر من يمثل جماعة الاقتصاديين : حمل على الضرائب الجمركية والقوانين التعاونية التى تشل حركة الصناعة والزراعة من غير أن تؤدّى الغرض المقصود منها وهو حماية البلاد من المنافسة الخارجية وإرشاد العمال والصناع الى واجباتهم ، ودعا الى قليل من الحكم وكثير من الحرية وإطلاق القيود حتى تستقيم أمور البلاد وتجرى على منهج صالح وطيد .

(٢) أما الكتّاب السياسيون فيمثلهم مونتسكيو وڤولتير وروسو ويعرف الأوّل (١٦٨٩ — ١٧٥٥) بكتابه "روح القوانين" الذى جمع فيه تاريخ أنظمة الحكومات وأنواعها ومساوئ كل منها ومحاسنه ، وضمنه نظريته الشهيرة فى وجوب انفصال سلطات الحكومة الثلاث — التشريعية والتنفيذية والقضائية — بعضها عن بعض انفصالا تاما لضمان الحرية والعدل ، ونصح باشتراك الملكية مع الارستقراطية والعامّة فى حكم البلاد على مثال نظام الحكم الانجليزى الذى كان يعتبره أرقى نظام الحكومات .

أما ڤولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) حامل لواء الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر فقد تناول الملكية فى فرنسا وما يتصل بها من الأنظمة بالسخرية والتهكم المرّ — شأنه فى كل كتاباته — فلم يترك لها أثرا من احترامها و إجلالها القديم . وذلك لأنها فى نظره — وفى الحقيقة — لم تكن قوية تستعمل سلطانها فى صالح الشعب كما كان الحال فى حكم صديقه فردريك الأكبر ملك بروسيا ، ولا دستورية تترك الأمر لنواب الأمة كما كان الحال فى انجلترا .

أما روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨) فلم يحاول تعديل نظام الحكم الاستبدادى فحسب على نحو ما فعله الكتّاب الآخرون ، بل عمل على صوغ الحكومة والمجتمع فى قالب جديد : فقد أبان فى كتابه "العقد الاجتماعى" أن الانسان خلق حرا ومساويا لغيره فى الحقوق ، ولضمان هذه الحرية والمساواة انضم الأفراد وأقاموا الحكومات لتعمل بإرادتهم مستمدّة السلطة منهم ، فاذا أساءت الحكومات استعمال هذه السلطة أو أخلت بتلك الحقوق وجب عزلها وإقامة حكومات أخرى مكانها . ولقد كان لهذا الكتاب تأثير خطير فى نفوس الفرنسيين حتى لقب بحق "انجيل الثورة" وذلك لما امتاز به من قوّة العواطف وسلاسة العبارة ومتانة الحجة ورشاقة الأسلوب مع أن الكثير من نظرياته لا تبررها الوقائع التاريخية ولا تستقيم البتة مع الطبائع البشرية .

وقد انتشرت هذه الآراء الحديثة بادئ الأمر بين الطبقات المستنيرة انتشارا عظيما لاسيما حين تولى ديدرو (Diderot) جمعها فى الانسكلوبيديا الشهيرة التى تعدّ بمثابة قاموس جامع لمجهودات العقل الانسانى فى كل العصور ، فلما اشتدّ الاضطراب المالى ، وازداد تعثر الحكومة فى سياستها الخارجية انتشرت هذه الأفكار بين مختلف الطبقات وساعد على توسيع الهوّة التى تفصل الملك عن الرعية ان شبت الثورة الأمريكية واشتركت فرنسا فى حروب الاستقلال فجرت مبادئ الحرية على ألسنة

الكتاب وأقلام الصحافيين وذاعت فى كل الأنحاء حتى أصبح ممـا لا مناص منـه أن تقع البلاد فى الهوّة التى كانت تندفع اليها اذا لم تسلم بمعجزة .

موقف الطبقات المختلفة حيال الأزمة

(١) الأشراف — ليس أدل على نضوج الرأى العـام فى فرنسا وانصراف الأفكار الى تعديل أنظمة الحكومة من أن الأشراف أنفسهم كانوا يشعرون بضرورة الاصلاح ، وان كانوا فى ذلك قد انقسموا فريقين : أحدهما شـديد الرجعية يأبى إلا الاحتفاظ بما كان للأشراف من سلطان واسع ونفوذ كبير ، والآخر شديد التأثر بروح العصر الحديثة وكتابات المفكرين ، فكان أفراده ينقمون على الحكومة مساوئها ويميلون الى إقامة نصاب العـدل والمساواة ، ولو كان فى ذلك تنازلهم عن بعض امتيازاتهـــم .

(٢) رجال الدين — كانت هـذه الطبقة فريقين كذلك : أحدهمـا عظيم الجاه والثروة يتمتع بغلة أراضى الكنيسة وما تفرضـه من الزكاة ، والآخر وهو الأغلبية العظمى من صغار القسس ينقم على الفريق الأوّل ماينعم به دونه من الترف ورغد العيش ، ولذا كان هـذا الفريق من أكبر الداعين الى الاصلاح وتقويض نظام الامتيازات .

(٣) العامـــة — كانت هذه الطائفة تشمل :

(ا) فريق الطبقة الوسطى ومنها المتعلمون والمفكرون الذين أحفظهم ما كانوا عليه من ضعة الشأن بجانب الأشراف وحرمانهم من الوظائف العليا التى تؤهلهم لها قدرتهم ، فجعلوا ينشرون بذور الفتنة مسوقين بدافع الحقد الشخصى . ومن الخطأ وصفهم بالتعلق بالمبـادئ الديموقراطية حبا فى تلك المبادئ وحدها أو حرصا منهم على خير الشعب كله ، فقد كانوا يحتقرون الطبقة العامة ولم يتقربوا اليها إبان الثورة إلا لاتخاذها سلما لإدراك أغراضهم فقط . أما التجار وأرباب الأموال الذين

يتصلون بهذه الطبقة من الشعب فكانوا يحقدون على الحكومة نظام ضرائبها الجمركية بين بعض الأقاليم وبعضها الآخر، وقعودها عن تنشيط التجارة وتشجيعها فى الخارج، فضلا عن أنهم أقرضوا الحكومة ما كانت تحتاجه من المال، ولذا تأثروا بالعسر المالى الذى نزل بها، وكانوا بطبيعة الحال من أكبر الداعين الى إصلاحها .

(ب) المزارعون والصناع — تأثر المزارعون بالحركة الفكرية التى عمت البلاد وتنبهوا الى وطأة نظام الامتيازات المجحف بهم، فنزعوا الى التخلص من سوء حالهم باصلاح نظام الحكومة على أساس المبادئ الجديدة السائدة . أما الصناع والعمال فقد كانوا أكثر الطبقات بؤسا وأسوأهم حالا وأشدهم تأثرا بأزمات القحط التى تعددت فى البلاد نظرا لما كانت عليه الصناعة والتجارة من الكساد سواء أمن جراء الضرائب الجمركية أم من أثر قيود النقابات الصناعية، فسهل لذلك وقوعهم فى أيدى ذوى الغايات من الزعماء .

(ج) رجال الجيش — كان صغار الجند ينقمون على الحكومة وقفها المراتب العليا على طبقة الأشراف، على رغم أن الكثيرين منهم كانت تنقصه الدربة والخبرة فى فنون الحرب مما كان سببا فى استخفاف الجند برؤسائهم، هذا فضلا عن أن انتشار الجمعيات الماسونية فى صفوف الجيش ذهب بما بقى من احترام الجند لضباطهم حتى لقد بلغ من سوء الحالة المعنوية فى الجيش أن كانت الحكومة لا تستطيع الاعتماد عليه فى تأييدها مما كان له أسوأ الأثر فى سير الحوادث وتفاقم الثورة .

تلك هى خلاصة الحوادث فى فرنسا قبيل الثورة، ومنها يتبين أن الطبقات كلها كانت ساخطة على إدارة الحكومة تواقة الى إصلاحها مع بقاء الملكية قائمة . وإذا كانت الثورة قد ولدت الجمهورية فان ذلك لم يكن نتيجة تدبير سابق بل نتيجة تدرج الحوادث كما سنرى .

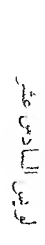
الفصل الثانى

الملكية والأزمة

لويس السادس عشر (١٧٥٤ — ١٧٩٣) — ولى الحكم فى العشرين من عمره فاتجهت اليه الأنظار لإنقاذ البلاد مما كانت تئن منه من العلل الكثيرة . فقد كان لويس طيب القلب، محبا للخير ، شديد الرغبة فى الإصلاح، غير أن ضعف إرادته المتناهى كان يفسد عليه رغباته الحسنة، إذ كان لا يثبت على رأى، ولا يستقر على حال ، فكان مثله مثل مشرف على الهلاك ، ضائع الحواس، فاقد الإرادة، يتناول كل علاج يشير به عليه كل ذى رأى فى نظره .

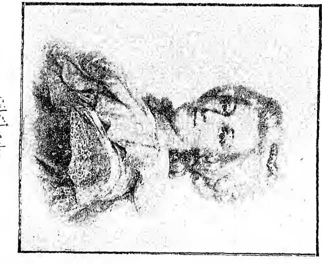
ولقد ظلمه المؤرخون كثيرا ونسبوا اليه ما لم يكن يدور له بخاطر. والحقيقة أن الظروف أساءت اليه أضعاف ما أساء اليها . وإنه لمن الصواب ما قيل عنه : "لقد خلف له آباؤه الثورة فيما أورثوه إياه !"

وأما زوجته مارى أنتوانت فهى أميرة نمساوية زوجت من لويس من أجل أغراض سياسية ، فكانت مبغضة الى الشعب قبل أن تطأ قدماها أرض فرنسا، إذ كانت من سلالة الأسرة التى ألف الشعب ذكرها مقرونا بمصائب بلاده والحروب العديدة التى خاضتها . ولقد كانت وافرة الذكاء، حديدية الإرادة، لا تغفر الإساءة لخصم، ولا تنسى المعروف لصديق، ولو كانت الحكمة السياسية وظروف الأحوال تقتضى غير ذلك . ولما كانت قد نشأت فى القصر الامبراطورى فى ڤينا وسط مظاهر الإجلال والخضوع التام، وكانت غريبة عن الشعب الفرنسى وخلقه وعاداته ، لم تفهم نفسيته ولا المدى الذى يمكن أن يصل اليه فى هياجه . فجهلت الطريقة المثلى لقيادته وتنكبت عن طريق السياسة الحكيمة وجرت معها زوجها «الرجل المسكين» كما كانت تدعوه .





لويس السادس عشر



ماري أنطوانيت

مقدّمات الثورة

تسلم لويس السادس عشر مقاليد الأمور بفرنسا حين كانت الحالة المالية على غاية من الارتباك أثر ما استنزفته الحروب الماضية ، وإسراف الحاشية من الأموال الطائلة[١] ، فعهد بإدارة الشؤون المالية الى ترجو الذى اشتهر باصالة الرأى والرغبة فى الإصلاح أثناء قيامه بإدارة أحد الأقاليم بفرنسا ، كما عرف بكتاباته المملوءة بالعطف على الشعب والتشيع للمبادئ الفلسفية الحديثة ، فما كاد يتسلم منصبه حتى قضى على المكوس الداخلية التى كانت مفروضة على الغلال ، كما ألغى النقابات الصناعية التى كانت عقبة فى سبيل العمل والصناعة ، وتوخى سبيل الاقتصاد فى نفقات الحكومة والبلاط الملكى حتى وفر للخزينة مبلغا يربو على العجز السنوى ، غير أنه لم يلبث أن رأى نفسه وحيدا أمام جماعة الحاشية وأصحاب المصالح الذين تألبوا عليه لما فاجأهم به من الاقتصاد والتقتير ، فقاموا وعلى رأسهم الملكة ، وجعلوا يوسوسون للملك ويلقون اليه من كاذب التهم وباطل الوشايات عن نيات ذلك الخادم الأمين حتى خضع لرأيهم وعزله من منصبه (مايو ١٧٧٦) .

نكر — وبعد فترة تهدم فيها كل ماتم على يدى ذلك الرجل من الإصلاح ، تولى أمر الخزينة نكر (Necker) وهو رجل بروتستنتى كبير الخبرة بالشؤون المالية فاستطاع بحسن تدبيره أن يصل الى حدّ الموازنة بين الدخل والمنصرف ، ولكن لم يتسع له مجال الإصلاح طويلا بعد أن دخلت فرنسا حرب الثورة الأمريكية . فعمد الى الاستدانة مرة أخرى ، وحاول أن يكتسب ثقة البلاد بنشر حسابات الميزانية التى كشفت الستار عما تفيض به من المنح والعطايا للخدم والحاشية ، فلقى ما لاقاه ترجو من المقاومة ، واضطر الى التخلى عن مركزه لآخرين ترضى عنهم الحاشية

(١) كانت المصروفات العادية تزيد عن الايرادات بما يبلغ ٢٢ مليونا من الفرنكات فضلا عن ٧٨ مليونا صرفت مقدما على حساب الايرادات و ٢٣٥ مليونا كانت تحملها الخزينة للدائنين .

مثل كالون الذى ركب متن الشطط والإسراف حتى أصبحت الخزينة ترزح تحت عبء ثقيل من الديون والعجز الفادح(١) . ولكى يتلافى الأمر ، جمع مجلسا من الأعيان بفرساى وعرض عليهم فرض ضرائب جديدة على طبقات الشعب بلا استثناء ،


نكر

إلا أن المجلس رفض مناقشة هذه الضرائب قبل أن يتبين مدى العجز وأسبابه ، فأقيل نكر من منصبه وعين مكانه أحد زعماء المعارضة وهو بريين الذى حاول عبثا أن يفوز بموافقة مجلس الأعيان أوأن يحمل برلمان باريس على تسجيل مشروعاته المالية بحجة أنه لا يمكن أن تكتسب أية ضريبة صفة شرعية إلا اذا اقرها مجلس الأمة .

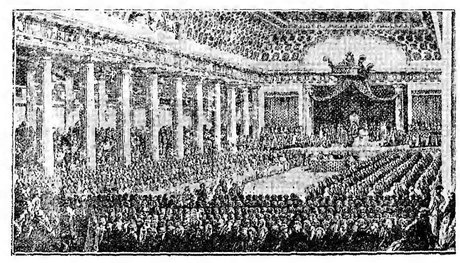
ولما كانت الضائقة المالية قد اشتدت بالحكومة حتى أصبحت على شفا الافلاس أعلن الملك فى أغسطس ١٧٨٨ عقد مجلس الأمة ليكون عونا له على معالجة الأزمة المالية ، واستدعى نكر لوضع نظام الانتخابات القادمة ، فجعل أساس عمله التغلب على معارضة الأشراف بأن خوّل العامة عددا من المندوبين يبلغ ضعف مندوبى كل من طبقتى الأشراف ورجال الدين ، وعلى هذه القاعدة تمت الانتخابات فى أنحاء المملكة وحرر الناخبون عرائضهم (Cahiers) للمجلس طبق التقاليد القديمة وكانت كلها تفيض بالشكوى من الحكم المطلق وما يقترن به من المظالم وعدم المساواة وتجمع على ضرورة سن دستور يعين حقوق الملك والرعية .

مجلس طبقات الأمة (Etats Généraux) — وفى يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ افتتح المجلس فى قصر فرساى بحضور مندوبى الأشراف والكنيسة والعامة ، وأعلن الملك أن الغرض الأساسى من الاجتماع هو معالجة الحالة المالية فقط ، ولم يشر بتاتا الى مسألة الدستور المنشود ، فتوترت العلاقة بين الحكومة

(١) بلغت الديون فى عهد نكر ٥٠٤ مليونا وفى عهد كالون ٤٨٧ مليونا .

وأنصارها وبين ممثلى الشعب من بداية الأمر، وظهر أثر هذا التحرّج فى أوّل مسألة طرحت على المجلس وهى كيفية أخذ الأصوات ، وهل يجتمع المندوبون فى قاعة واحدة أو تجلس كل طبقة وحدها ويؤخذ رأى كل منها على حدة باعتبارها كتلة قائمة بذاتها، فيعتبر رأى أغلبيتها رأيا واحدا معبرا عن هيئتها . وقد كانت هذه المسألة هامة فى نظر الجميع إذ لو نفذ الرأى الأوّل لاتسع مجال الأمل أمام مندوبى الطبقة العامة بإحراز الأغلبية بعددهم الكبير مع من ينضم إليهم من أحرار الفريقين الآخرين مهما قل عددهم واذا كان الرأى الثانى، لم تعد هناك أهمية لميزة العدد المضاعف الذى كان لمندوبى العامة إذ أن الصوت الواحد الذى يمثل هيئتهم لا يمكن أن يتغلب على صوتى الأشراف ورجال الدين .

الجمعية الأهلية (L'Assemblée Natioanle) — ولما طال الجدل واشتدّ النزاع وافق أعضاء العامّة على اقتراح قدّمه أحدهم سييس (Siéyés) فى يوم ١٧ يونيه، ومؤدّاه أن يطلق النوّاب على أنفسهم اسم "الجمعية الأهلية" وأن يبدءوا



افتتاح مجلس الامة فى ٥ مايو سنة ١٧٨٩

(نقلا عن الصورة المحفوظة بدار السجلات الرسمية بباريس)

بصفتهم نواب البلاد فى تشكيل دستور تصان فيه حقوق الشعب ، سواء لديهم فى ذلك اشتراك بقية المندوبين معهم أم انفصالهم عنهم . على أن الأشراف اتخذوا من هذه الخطوة الثائرة على النظام القديم وسيلة لإقناع الملك بالانضمام الى صفوفهم ، فأمر بإغلاق القاعة التى كان يجتمع فيها النوّاب بحجة إعدادها لجلسة قادمة ، غير أن أعضاء الجمعية الأهلية انتقلوا الى ملعب التنس المجاور للقصر ، وهناك اتفقوا جميعا على أن يوالوا الاجتماع مهما كانت الظروف حتى يتموا الدستور الذى طلبه الشعب ، وألا يعودوا الى بلادهم قبل ذلك بحال .

وفى يوم ٢٣ يونيه دعيت الطبقات الثلاث الى القاعة العامة ، وألقى الملك خطابا ضمنه إلغاء القرار الذى اتخذ فى ١٧ يونيه ، وذكر الاصلاحات التى رأى وجوب البحث فيها لإدخالها على نظام الحكومة ، وأعلن قراره الأخير فى وجوب انفصال طبقات المجلس بعضها عن بعض عند المناقشة وأخذ الأصوات ، وأنذر الأعضاء بالمضى وحده فى طريق الاصلاح اذا كانت طبقات الأمة تتنازع الأمر بينها فى وضع هذه الاصلاحات . ثم غادر القاعة ومن ورائه رجال الدين والأشراف ظافرين بما كانوا يطلبون ، وبقى مندوبو العامة وحدهم واجمين يتنازع الخوف والسخط نفوسهم ، الى أن بدد الزعماء ذلك الضعف بكلمات مأثورة خالدة ، فلما دخل رسول الملك يأمر الجمع بالانفضاض صاح به ميرابو : " إننا هنا بإرادة الشعب ، ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب ! " ولبث الأعضاء فى أماكنهم يعملون كأن شيئا من ذلك لم يقع كما قال سييس ، وانطلقوا يتخذون الحيطة لأنفسهم أولا ، فأصدروا قرارا يعلنون فيه أنهم قد أصبحوا غير خاضعين لسلطة القانون من حيث الاتهام أو المحاكمة أو السجن ، وأن كل سلطة تخالف ذلك القرار ترتكب جريمة الخيانة للأمة !



ميرابو

وأما الملك فقــد تظاهر بالإذعان لمشــيئة النوّاب الى حدّ أن طلب الى رجال الدين والأشراف الانضمام الى اخوانهم ،وذلك ريثما يتم له استقدام جيوش لا تتأخر عن إطاعة أوامره عند الحاجة . فلما تم له ما أراد، بدأ حركته الرجعيــة المتطرفة، فعزل نكر يوم ١١ يوليــه ، وولى مكانه بروتى (Breteuil) أحد رجاله المعروفين بالإخلاص له .

11. Original du procès-verbal du serment du Jeu de Paume

ميثاق ملعب التنيس بتوقيع النوّاب

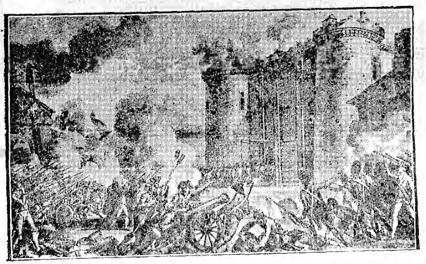
(نقــلا عن الصــورة المحفوظة بدار الســجلات الرسميــة بباريس)

الحــالة فى باريس — على أن هذا الحادث أدّى الى قيام الشعب بمظاهرات عديدة سفكت فيهــا الدماء وذلك بتأثير بعض المهيجين أمثــال مارا (Marat) وديمولين (Desmoulins) الذين نجحوا فى إثارة خواطر العامة بخطبهم ومقالاتهم ؛ الى حدّ أن اضطرت البــلدية أن تسمح للنــاخبين بتشكيل هيئة منهم تتولى صــيانة الأموال والأرواح ، فبــدأت بتأليف حرس أهلى يساعد على حفظ

النظام واستتباب الأمن . ولكن الحالة تفاقمت بإشاعات السوء التى كان يرجف بها المرجفون عن نيات الملك وأغراضه لا سيما بعد أن قتل عدد من الجنود إبان تلك الاضطرابات ، فأخذ الأهالى يدبرون وسائل الدفاع عن أنفسهم ، فهاجموا مخازن الانفليد ودار الصناعة فى ١٤ يوليه ، وآستولوا على ما فيها من الأسلحة ، ثم تحوّلوا الى حصن الباستيل حيث توهموا أن الذخائر كلها قد جمعت هناك .

الهجوم على الباستيل — ومع أن الحامية لم تكن تربو على المائة إلا قليلا وأن كل مدافع الحصن سحبت من أماكنها لتهدئة الحالة فان المهاجمين لم ينثنوا عن إعمال المدافع والبنادق فى جدران الحصن الى أن اضطر حاكم الباستيل الى التسليم على أن يكون هو وجنده فى مأمن على حياتهم ، إلا أن الشعب فى دخوله الحصن لم يكترث لوعد ، ولم يتقيد بشرط ، فقتل حاكم الحصن وعددا من جنوده أشنع قتلة ومثل بالباقين أفظع تمثيل .

على أن الأهالى لم يعدموا وسيلة لتبرير ما وقع ، فاتهموا حاكم الباستيل بجريمة التحرّش بالشعب العدو المسالم [illegible]



الهجوم على الباستيل (١٤ يوليه سنة ١٧٨٩)

وصفهم بالأبطال، واعتبار عملهم مجيدا جديرا بإجلال التاريخ . وإذ كانت الملكية فى حالة لا تستطيع معها المقاومة دفعا لهـذا الشر المتفاقم فقد قبـل لويس رواية البـاستيل على علاتها ، وزار باريس دلالة على الرضا عن أهلها، وأجاب ملتمسهم فى تعيين بايلى «رئيس الجمعية الأهلية» عمدة لها ، ولافاييت (Lafayette) قائدا للحرس الأهلى، كما أنه أعاد نكر الى الوزارة وأبعد الجند عن باريس وفرساى .

نتائج سقوط الباستيل — كان لسقوط البـاستيل دوى هائل فى أنحاء أوربا ارتجت له العـروش وطرب له الأحرار ، إذ طالمـا استخدمه ملوك فرنسـا والأشراف المقربون لديهم ،لإقصاء خصومهم وإخماد أصوات المفكريـن وأنصار الحرية ، بطرحهم فى أقبيته المظلمـة حتى تفرغ آجالهم . وعلى الرغم من خلوه حين الاستيلاء عليه إلا من نفر قليـل لا قيمة له ، فقد ترك سقوطه أثرا عظيما فى نفس الشعب الفرنسى ، إذ أسكره هـذا الفوز، وما تبعه من إغضاء الملك واستسلامه ، فتمادى « الشعب » فى ثقته بنفسه وقدرته على إخضاع الحكومة لإرادته حتى كان لذلك أسوأ تأثير فى مجرى الحوادث فيما بعد .

وكانت أوّل نتيجة لسقوط الباستيل والإعجاب بالرجال الذين قاموا بذلك العمل أن أخذ رجال الأقاليم يهاجمون الألوف من قصور الأشراف — التى تمثل الباستيل بينهم — وجعلوا يدمرون ما بهـا من السجلات التى تثبت حقوق الأشراف إزاء العامة حتى سادت الفوضى فى كل مكان ، لا سيما وقد انكمش رجال الحكومة عن الوقوف فى وجه الثائرين خوف أن يحل بهم ما حل بحاكم الباستيل . وبلغ مـن عجزهم عن ضبط الأحوال أن سلك جمـاعة الناخبين فى الأقاليم نفس السبيل الذى اتبعه زملاؤهم فى باريس بأن شكلوا من بينهم لجانا للإشراف على أعمـال الحكومة والمحافظة على الأمن — قدر المستطاع .

٤ أغسطس — أما رجال الجمعية فقد رأوا أنه لا يرجى لذلك الاضطراب من هدوء إلا اذا تجرّد الأشراف من امتيازاتهم، ولكنهم أحجموا عن المناقشة فى الأمر

تجنبا لأزمات شديدة أقلها احتمال وقوف الملك الى جانب الأشراف، ومع هذا فقد حدث ما كان يرجى مساء ٤ أغسطس حين وقف أحد الأشراف — وكان فقيرا يلقبه اخوانه (Jean Sans - Terre) أى الذى لا يملك أرضا — واقترح النزول عن امتيازات الأملاك ، فما هى إلا لحظة حتى دب دبيب الغيرة والحماسة فى كل الصدور، فجعل القوم يتبارون فى تعزيز هذا الرأى، وما انقضت الليلة حتى كان الأشراف قد نزلوا عن كل امتيازاتهم ، كما نزلت الكنيسة عن زكاتها، وختمت الجلسة فى الصباح بالموافقة على اعتبار لويس السادس عشر "معيد الحرية للبلاد !" .

حوادث أكتوبر — فزع الملك مع هذا من تمادى الشعب فى طغيانه فعمد الى استدعاء فرقة الفلاندر الموالية له لتكون بمثابة حرس خاص يدافع عن فرساى، ولكنّ مجىء الفرقة ولد كثيرا من الريب والظنون ولا سيما لما ذاع عن نبأ الإهانة التى لحقت شعار الثورة، أثناء وليمة أقيمت بالقصر الملكى إكراما للجند الجدد . وصادف هـذا الحادث انتشار القحط بباريس نظرا لقلة ما عرض من الغلال تفاديا من النهب ، فعوّل المهيجون على انتهاز هذه الفرصة ليرغموا الملك على الإقامة بباريس ليأمنوا جانبه ، فأخذوا يحضون النساء على الاجتماع والمطالبة بالخبز ورجوع الملك الى باريس على زعم أنه بعودته مع أسرته يكثر القوت فى المدينة . فسار عدد كبير من النساء فى ٥ أكتوبر — وخلفهنّ المئات من الرجال المسلحين — الى فرساى حيث اقتحمن قاعات المجلس مناديات بطلب الخبز، ثم تقدّمن لمهاجمة القصر بعد ذلك، ولكن حال دون غرضهنّ وجود حرس قوى .

العودة الى باريس — وفى فجر اليوم التالى بكر الجمع الذى افترش الثرى طول الليل واقتحم القصر من باب أغفلت حراسته، الى أن اقترب من مخدع الملك والملكة، ولكن لافاييت كان قد وصل الى فرساى على رأس الحرس الأهلى أثناء الليل ليطالب الى الملك باسم البلدية أيضا أن يعود الى باريس، فلما جاءته أنباء هذا

الهجوم، أسرع الى القصر وحال بين الملك و بين شعبه الهائج، على أن يقبل العودة الى باريس . وهكذا استسلم لويس الى القدر ، وترك نفسه تحت رحمته ، وعاد الى باريس حاملا شارة الثورة [١] على صدره ، وسط موكب النساء . وقد كان دخول لويس قصر التويلرى أول خطوة فى سبيل دخوله السجن فيما بعد ، ومن السجن الى المقصلة !

الفصل الثالث

فرنسا من أكتوبر سنة ١٧٨٩ الى سبتمبر سنة ١٧٩١

انتقلت الجمعية الأهلية الى باريس عقب مغادرة الملك فرساى فأمنت بذلك جانب الحكومة وتدخلها فى أعمالها اعتمادا على حماية الشعب ، ولكنها أصيبت بتدخل الشعب من حين لآخر فى تصرفاتها ، فأثر ذلك تأثيرا سيئا فى عمل الدستور الذى بدأت به فى فرساى .

وتتلخص القرارات التى أصدرتها الجمعية فى هذا الشأن فيما يلى :

(١) حقوق الانسان — أعلنت حقوق الانسان [٢] على أساس تعاليم روسو : ومجملها أن الناس ولدوا أحرارا متساوين فى الحقوق ، وأن الغرض من الحكومات ضمان الحرية ، والأملاك الشخصية ، وصيانة الحقوق ، وحماية الأرواح ، ومنع المظالم ، وأن لكل أمة الحق فى مشاركة الحكومة فى وضع القوانين ، وتقرير

---

(١) الأصل فى هذه الشارة أنه حين هاج الشعب فى باريس عقب عزل نكر (١١ يوليه) اقترح بعضهم أن يضع كل فرد ورقة من أوراق الشجر فى قبعته ليتعارف المتضامنون فى السخط على الحكومة ، ثم أبدلت هذه الشارة فى اليوم التالى باللونين : الأزرق والأحمر . فلما جاء الملك لزيارة باريس عقب سقوط الباستيل ، وضع اللون الأبيض بينهما إكراما له فبقيت الألوان الثلاثة شارة الثورة منذ ذلك الحين .

(٢) نشرنا فى صدر الكتاب الصورة الأصلية لهذا القرار كما ورد فى الدستور الذى وقعه لويس السادس عشر فى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩١ ويرى التوقيع بأعلى الجانب الأيسر للصورة .

الضرائب ، ولها وحدها السلطة العليا فى البلاد ، وليس لأحد أن يستعمل هـذه السلطة إلا بإرادتها .

(٢) الامتيازات — محى نظام الامتيـازات وما كان يترتب عليـه من واجبات وحقوق .

(٣) تقسيم فرنسا — ألغى التقسيم القـديم لفرنسا وقسمت من جديد الى ٨٣ قسما تكاد تتساوى مساحتها كلها ، وأطلقوا على كل منهـا اسم أحد أجزائها الطبعية الشهيرة كنهر أو جبل ، وتقرر لكل منها مجلس ينتخب بالتصويت العـام ، ويكون عمله الإشراف على شؤونها الداخلية .

(٤) السلطة التشريعيـة — وضعت السلطة التشريعيـة فى يد مجلس نيابى واحد ينتخب لمدّة سنتين لا غير بحيث لا يتجدّد انتخاب أحد الأعضاء مرتين متواليتين ، وجعل الانتخاب على درجتين ، كما جعـل حقا مقصورا على من يدفعون قدرا معينا من الضرائب ومن لا يقل سنهم عن خمسة وعشرين عاما ، وخوّل الملك سلطة رفض (Veto) أى حق إلغاء قرارات المجلس ، إلا اذا أعادت عين تلك القرارات ثلاثة مجالس متتالية ، ووضع شرط يحرم على أعضاء المجلس النيابى دخول الوزارة .

ويلاحظ أن قصر مدّة المجلس على سنتين مع تحـريم إعادة انتخاب الأعضـاء السابقين كان من شأنه أن يحرم البلاد ثمرة الخبرة النيابية ويعرقل سـبل الإصلاح نظرا لاحتمال اختـلاف الآراء بين المجالس المتعاقبة . أما منع الأعضاء من الدخول فى الوزارة ، فقد حرم الحكومة خبرة الكثيرين من ذوى الكفاية ، وأقام حاجزا بين السلطتين التنفيذية والتشريعية ، أصبح معه دوام التفاهم بين الفريقين متعذرا .

(٥) سلطة الملك — خوّل الملك حق رفض قرارات المجلس النيابى على النحو الذى بيناه ، كما خوّل حق تعيين الوزارة ، ورياسة الجيش ، وإعلان الحرب ، وعقد معاهدات الصلح — بشرط موافقة المجلس — كما خوّل حق الاشراف على

القضاء والادارة، على أن هذا الإشراف كان بلا قيمة إذ جعلت تلك الوظائف قائمة على أساس الانتخاب، فأصبحت سلطتها مستمدة من الشعب لا من الملك .

وعلى الجملة قد سلبت من الملك كل سلطة حقيقية وأبقى له ظلها، فبعد أن كان سيد البلاد أصبح أول خادم لها، ومع هذا فلم تعط له أية فرصة ليكون خادما نافعا .

(٦) الدستور المدنى (ويراد به النظام الذى وضع للكنيسة) — نزل رجال الدين عن « زكاتهم » كما ذكرنا ولكن إفلاس خزائن الحكومة حمل الجمعية على اغتصاب أملاك الكنيسة[1] وتحديد مرتبات لرجال الدين، على أن يكون تعيينهم بطريق الانتخاب حتى تقطع كل علاقة بين البابا والكنيسة . ولما أعان البابا ورجال الدين سخطهم على هذا النظام، أصدرت الجمعية قرارا يحتم على رجال الدين أن يقسموا يمين الإخلاص والطاعة للدستور، وإلا حرموا وظائفهم وأوقفوا عن العمل .

هرب الملك — كانت هذه القرارات سببا فى نفور الملك من الجمعية بعد إخلاصه لها، ولا سيما بعد القرار الذى أصدرته بشأن رجال الدين، فان عقيدته الدينية كانت تأبى عليه أن يحتمل التهاون فيما يمس الدين وأهله . واذ كان ميرابو قد عاد الى صف الملك لما كان يتقاضاه منه من الأموال، ولما رآه من تطرف الجمعية، فقد نصح له بأن يخرج من باريس علنا وسط حرسه الى إقليم مجاور من الأقاليم الموالية له، وهناك يدعو الجمعية الى دستور جديد، تكون له فيه سلطة فعلية، فان أبت، زحف على باريس وقضى على العصاة . ولكن الملك والملكة لم يثقا تماما بميرابو، فجعلا يسوّفان فى تنفيذ خطته، حتى اذ كان أبريل سنة ١٧٩١ توفى ميرابو، فقبر معه مشروعه، وفقدت الملكية فيه أكبر نصير قادر على إنقاذها .

---

(١) قدّر بعضهم قيمة هذه الأملاك بنحو ثلاثة آلاف مليون فرنك، ولكنها عرضت فى السوق بأبخس الأثمان للحصول على قيمتها نقدا . وقد كان من نتيجة ذلك اضطراب الحالة المالية، وظهور حزب جديد يمالئ الثورة ممن اشتروا أملاك الكنيسة . ولكن ظهر حزب آخر معاد لها من الحانقين على التعدّى على حقوق البابا والكنيسة، ولم تخمد حدّة هذا الحزب حتى أبرم نابليون اتفاقا (كونكوردات) مع البابا فى سنة ١٨٠١

تغلب رأى الملكة بعد ذلك ، وكان مشروعها يقضى بالهرب سرّا نحو الحدود فى اتجاه شالون (Châlons) ومتز (Metz)، حيث تجرى مظاهرة عسكرية لإرهاب الجمعية وإعادتها الى صوابها . وفى ليلة ٢١ يونيه اتخذ الملك وزوجه وبنوه من الليل ستارا ، ويمموا شطر الحدود ، حيث كان ينتظر الفار بين جيش بقيادة بوييه (Bouillé) كما كان ينتظرهم على مسافات متقطعة فصائل صغيرة من الجند لتحرسهم فى طريقهم . ولما أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الأمان اكتشفت دخيلة أمرهم ، وقبض عليهم فى ڤارن (Varennes) ، وأعيدوا الى باريس وسط مظاهر الاحتقار والاستخفاف الشديد .

الاختلاف فى مصير الملك — كان أكبر ما يشغل الأذهان بعد عودة الملك هو مصير التاج وصاحبه ، فقد صرح الملك فى خطاب له قبل هربه ، بأن كل ما وافق عليه منذ جلسة ٢٣ يونيه سنة ١٧٨٩ ، كان بالرغم من إرادته فلا يتقيد به ، فرأى فريق من الأعضاء وهم جماعة المتطرفين من اليعاقبة[١] ، أن فى سلوك الملك هذا خروجا منه على أمته ، وحنثا بعهده ، وأنه قد آن الوقت الذى تزول فيه الملكية وظلها ، وتقام الجمهورية[٢] لتوطيد النظام الجديد . غير أن الأغلبية كانت تميل الى رأى المعتدلين الذين كانوا من حزب اليعاقبة ، ثم انفصلوا عقب هذا الحادث ، وأصبحوا يعرفون باسم فويان (Feuillants) «نسبة الى الدار التى يجتمعون فيها ، وقد كانت قديما ديرا لجماعة دينية بهذا الاسم» . وكان هذا الرأى يقضى بإعادة الملك الى عرشه ، مع تقييد سلطته بأكثر مما كانت عليه ، فأصدرت الجمعية قرارا بذلك على زعم أن الملك

---

(١) تكونت هذه الجماعة من بين أعضاء الجمعية الأهلية مذ كانت بفرساى للبحث فى أعمالهم النيابية . ولما انتقلت الجمعية الى باريس اتسع نطاقها ، وأصبحت تشمل عددا كبيرا من المشتغلين بالسياسة ، واتخذت ناديا لها دارا قديمة للفئة الدينية المعروفة باسم «اليعاقبة» (Jacobins) فأطلق هذا الاسم على أعضاء ذلك النادى الذين قوى شأنهم مذ أنشأوا فروعا لناديهم فى كل إقليم وناحية بفرنسا .

(٢) يلاحظ أن هذه هى المرة الأولى التى نبتت فيها فكرة الجمهورية ، وذلك نتيجة تدرّج الحوادث كما ذكرنا فى ختام الفصل الأول .

لا يعدّ مسئولا عن فراره ، لأنه نقل بالقوة ! ولا ريب أن الجمعية قد اتبعت هذا الرأى رغبة فى اجتناب الأزمة التى تعقب إلغاء الملكية ، والفوضى التى قد تنشأ عن هذا الانقلاب ، إلا أن قرارها أغضب المتطرفين من اليعاقبة ، فطعنوا فى رأى الأغلبية ، وقرروا تنظيم مظاهرة لإرهاب الجمعية وإخضاعها لرأيهم ، وقد أفلحوا فى دعوتهم ، اذ اجتمع خلق كثير من الغوغاء فى ساحة شان دى مارس (Champs de Mars) فى ١٧ يوليه لإمضاء الشكوى التى أعدّت فى هذا الشأن ، ولكن الحرس الأهلى شتت شملهم ومزق جموعهم ، فاختفى على أثر ذلك زعماء المتطرفين أمثال دانتون (Danton) وروبسبير (Robespierre) جزعا لما قد يحل بهم ، ولو قبض عليهم حينئذ وضرب على أيديهم بشدّة لتخلصت البلاد من عوامل الفوضى التى بقيت تئن منها طويلا .

أما الملك فكانت الجمعية قد أصدرت قرارا بوقفه عن مباشرة سلطته حتى يتم وضع الدستور فيوقعه ويقسم يمين الاخلاص له .

وفى سبتمبر سنة ١٧٩١ تم الدستور ، فوقعه الملك وأقسم يمين الولاء للجمعية والقانون . وهكذا ظن العالم أن زمن الثورة والاضطراب فى فرنسا قد انقضى وأن البلاد يوشك أن يطلع عليها فجر عهد جديد .

الفصل الرابع

الجمعية التشريعية — L'Assemblée Législative.

انحلت الجمعية الأهلية عقب إتمام الدستور وحلف يمين الاخلاص له ، فطويت بذلك صحيفة الهيئة التى قوضت دعائم النظام القديم . ومهما يقل عن المبادئ الجليلة التى أتى بها رجال هذه الجمعية ، فما لا ريب فيه أنهم لم يتخذوا الحيطة لحماية الشعب من نفسه ، بعد أن سلبوا السلطة من الملك لحماية الشعب منه ، وهذا أكبر

انتقاد يوجه اليهم، فهم وإن كان جلهم على قسط وفير من الحزم، فقد جرفوا فى تيار العواطف الذى دفع البلاد الى هاوية بعيدة الغور .

انعقدت الجمعية التشريعية فى أول أكتوبر سنة ١٧٩١ وفق أحكام الدستور، وكانت تختلف عن الجمعية التى تقدّمتها فى أن مهمتها اقتصرت على تنفيذ مواد الدستور، وحماية نتائج الثورة من عبث العابثين بها . ولذا يرى أنه بدل ان كان النزاع فى الجمعية الأهلية قائمـا على مسائل دستورية، أصبح نزاع الأحزاب الآن قائما على الاستئثار بالسلطة . على أنه لما كان أعضاء الجمعية الأهلية قد قرروا أنه لايجوز تجديد انتخاب أى عضو فيها للجمعية التشريعية، فقد حرمت هـذه الجمعية من أعظم رجال فرنسا كفاية وحزما وخبرة، وامتلأت بشبان حديثى العهد بالسياسة وشؤون الدولة .

الأحزاب — انقسمت الجمعيـة من بادئ الأمر الى ثلاثة أحزاب وهى : اليسار واليمين والوسط، فأما حزب اليسار، فكان يجمـع أنصار اليعاقبة الذين تقـدّم ذكرهم، المتطرّفين منهم والمعتدلين وأشهرهم جمـاعة الجيروند (Girondins) نسبة الى الاقليم الذى انتخبوا عنـه . وكانوا ينقمون على الدسـتور اعتداله فى عرفهم، ويعتمدون فى خطاباتهم على الألفاظ المنمقة والعبارات الخلابة تشبها بنوّاب الرومان، ومن أكـبر رجالهم كوندورسـيه (Condorcet) وبريسـو (Brissot) وڤرنيو (Vergniaud) وأما حزب اليمين فكان يتألف من أنصار جمـاعة الفويان الذين كانوا يعضدون الدستور . وكان حزب الوسط يشمل أفرادا عرفوا بالحـذر والتردّد، فكانوا يخدمون الحزب بعـد الآخر، دون اتخاذ رأى معروف ولا ثبات على خطة واحدة .

فرنسا والدول — كان أول ما اتجهت اليـه أنظار الجمعية الجديدة مسألة الحرب التى كانت تهـدّد فرنسا حينئذ من جانب دول أوربة بدعوى « الدفاع عن حق الملوك الإلهى وحق الأسرات » ولا ريب أن هذا نفاق وادعاء باطل فلطالما نشبت الثورات، وأعدم الملوك فى أوربة، دون أن تحرّك الدول ساكنا . والحقيقة

أن أوربة لم تر فى نشوب الثورة إلا فرصة لاضعاف فرنسا واغتيال أملاكها، وإزالة منافس خطير من ميدان السياسة .

وتفصيل ذلك أن الروسيا اقترحت فكرة التعاون فى القضاء على الثورة، حتى تحوّل نظر النمسا وبروسيا الى غرب الرين، ليخلو لها الجو فى بولندة، ولكن بروسيا ظلت تتردّد طويلا قبل أن تغامر بجنودها ضد فرنسا، حتى ألحت عليها انجلترا وهولندا والنمسا بالكف عن دسائسها فى بلجيكا والانصراف الى ما قد يصيبها من الغنم بمحاربة فرنسا . وبذا خرجت الدول من انشقاق بعضها على بعض، بالاتفاق على التهام تلك الدولة المنشقة على نفسها . ولما قرّ الرأى على ذلك، بدأت النمسا وبروسيا تترقبان الفرص وتتلمسان الأعذار للبدء بالتدخل .

كيف بدأت الحرب — وكان أوّل هذه الأعذار ما نشأ عن إلغاء امتيازات الأشراف من هضم حقوق الأمراء الألمان المقيمين على حدود الالزاس . فقد قبلت الجمعية أن تعوّضهم عما فقدوه، ولكنهم أصروا على أخذ حقوقهم كاملة . وازداد المركز حرجا باحتلال فرنسا كونتية فينيسان — وكانت ملكا للبابا — وذلك عقب قيام أهالى أفينيون (Avignon) ضدّ عمال البابا، واعلان انضمامهم الى فرنسا . هذا الى أن باريس امتلأت بالوفود من ألمانيا وسويسرا وايطاليا طالبين أن يساعد زعماء الثورة أممهم للوصول الى مثل نصيبهم من الحرية . فجزعت الدول، وبدأت تفكر فى التدخل قبل أن يتفاقم الأمر . ولا ريب أن إلحاح المهاجرين من الفرنسيين فى أوربة، وتوسل الملك والملكة لأخيهما أمبراطور النمسا بالتعجيل بانقاذهما من الخطر الذى كانا يشعران به على رغم قبولها الدستور، لم يترك مجالا للنمسا فى التردّد، فأرسل الأمبراطور بالاتفاق مع ملك بروسيا تهديدات عدّة الى فرنسا كان أخطرها شأنا بلاغ بلنتز (Pillnitz) (٢٧ أغسطس سنة ١٧٩١) الذى أعلنا فيه أن دول أوربة لا تتردّد فى استخدام كل الوسائل لإعادة الملكية الى قوتها فى فرنسا . وقد طرب الأشراف المهاجرون لصدور هذا البلاغ، وأرسلوا منشورا من كوبلنتز (Coblentz) توعدوا فيه زعماء الثورة بكل عقاب صارم .

ولقد وقعت هذه التهديدات وقعا أثار الشعب الفرنسي، حتى أن الجمعية قررت أن كل مهاجر لايعود الى فرنسا يعــدّ شريكا فى التآمر على ســلامة بلاده، ويكون جزاؤه الموت ومصادرة أملاكه . وقررت أيضا أن ينفى كل من لايقسم يمين الطاعة والاخلاص للدستور من رجال الدين . وانتهى الأمر أخيرا بأن أفلح أنصار الحرب(١) فى فرنسا فى حمل الملك على اعلان الحرب فى ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢

الحـــرب — كانت عدّة فرنسا الكبرى المتطوعين من أبنائها، فان الجيش القديم كان قد انحل على أثر الثورة ومهاجرة الكثيرين من الضباط الأشراف . على أن هؤلاء المتطوعين كانوا لا يملكون من الصفات الحربية سوى الحماسة، وهى لاتغنى عن النظام والخبرة، ولا يملكون من المعدّات والذخائر إلا القليل . ولعل أكبرمعجزة أتت بها الثورة هى التغلب على كل هذه المصاعب، والانتصار فى النهاية على أعظم جيوش أوربة . ولاريب أن ذلك يعزى إلى أن الحليفتين لم يجمعا من الجنود أكثر من ثمانين ألفا فى مقدّمتها الأشراف المهاجرون وكان يقود هذه القوّات برنسويك (Brunswick) قائد بروسيا وهو شيخ تنقصه صفات المغامرة والاقــدام . ولم تكن الثقة متبادلة بين الحليفتين، كما أن أنظارهما كانت متجهة نحو بولنــدة على الدوام لمراقبة ما تجريه روسيا هناك . هذا الى أنهما كانتا فى غرور من قدرتهما على سحق فرنسا على مهل، ولذلك فانهما لم تتعجلا فى الزحف اليها . أضف الى ذلك أن برنسويك أصدر بلاغا فى ٢٥ يوليه توعد فيه باريس بالتدمير اذا أصاب الأسرة المــالكة أى سوء أو اذا قاوم جيوشه مقاوم . وقد أتى هذا البلاغ بغير ما كان ينتظره الأعداء اذ تماسكت الأمة تماسكا تاما لدفع الأخطار التى كانت تتهدّدها .

(١) كانت الأحزاب المختلفة مجمعة على اعلان الحرب ماعدا اليعاقبة المتطرفين . فأنصار الملكية المطلقة كانوا يأملون أن تنتصر النمسا فتعيد الى الملك سلطانه المطلق . وأنصار الملكية الدستورية، كانوا يرجون من وراء انتصار فرنسا تقوية مركز الملك فتخف حدّة المتطرفين . والجيروند، كانوا يرغبون فيها لاتخاذها وسيلة للاستئثار بالسلطة . وأما اليعاقبة المتطرفون فقد رغبوا وحدهم عن الحرب مخافة أن تؤدّى الى الهزيمة فيقضى على الثورة، أو الى النصر فيقوى مركز الملكية .

أسرعت فرنسا بالزحف الى بلجيكا عقب إعلان الحرب ، ولكنها ردّت على عجل،ولم يتعقبها أعداؤها،فأفسحوا لها المجال لتنظيم صفوفها من جديد، إذ لم يبدءوا مهاجمتها إلا فى ١٩ أغسطس ، فاستولوا على كثير من المدن حتى اخترقوا غابات الأرجون (Argonne) «ترمو بيل فرنسا» فوجدوا الفرنسيين تحت قيادة ديمورييه (Dumouriez) مرابطين على تلال ڤالمى (Valmy) فأطلقوا عليهم النيران،ولكن الجنود الفرنسية ثبتت فى مكانها ثباتا لم يعهده خصومها من قبل . ولما كان المرض قد تفشى بين الجنود ، وكانت الدول فى شغل عن الحرب بموقف روسيا المقلق فى الشرق فقد اتفق برنسويك مع ديمورييه على أن ينسحب من غير قتال ، ولذا تعتبر موقعة ڤالمى على صغرها من أهم مواقع التاريخ لأنها ولدت فى فرنسا وجيشها تلك الثقة بالنفس التى جعلتها مصدر الفزع لأوربة مدّة طويلة .

باريس إبان الحرب — كان الملك قد اتخذ وزارة من حزب اليمين عند افتتاح الجمعية التشريعية، ولكنها سقطت إزاء حملات الأحزاب المعارضة، وأعقبتها وزارة من الجيروند فتم على يدها اعلان الحرب، إلا أن هزيمة الجند فى فاتحة الهجوم أدّت الى سقوط هذه الوزارة، وتعيين وزارة جديدة تمثل الأحزاب المختلفة،فلم يرق ذلك فى أعين الجيروند الذين فكروا فى استخدام الشعب لإرهاب الملك وحمله على إرجاع وزارتهم،وقد ظاهرهم اليعاقبة المتطرفون فى هذه الفكرة، على أمل أن تتهيأ لهم الفرصة لأغتيال الملك وإعلان الجمهورية . ومن ثم دبرت مظاهرة ٢٠ يونيه باسم الاحتفال بذكرى ميثاق ملعب التنس ، وفيها اقتحم الشعب قصر التويلرى وأحاط بالملك . ولكنه أبدى من الثبات واللين ما استطاع أن يرد المتظاهرين دون أن يظفروا ببغيتهم . إلا أن هذا الحادث أفزع كثيرا من المعتدلين أمثال لافييت، فأشاروا على الملك بإغلاق جمعية اليعاقبة والضرب على أيدى المحرضين، ولكن الملك والملكة لم يعملا بهذه النصيحة ، فعرّضا حياتهما وحياة أسرتهما لأخطار لم تكن فى الحسبان .

١٠ أغسطس — ذلك أن المتطرفين لم ينثنوا بعد ٢٠ يونيه عن توجيه أشد الحملات الى الملكية وأنصارها، وجاء بلاغ برنسويك فاتخذه المحرضون سلاحا جديدا يستخدمونه لإغراء البارسيين ووفود متطوعى الأقاليم على المطالبة بخلع الملك . وحدث أن وفدا من مرسيليا وصل فى أواخر يوليه وهو ينشد نشيد الرين الذى وضعه روجيه دى ليل وعرف منذ ذلك الحين بالمرسيليز، فوجد المتطرفون فى ذلك الوفد الضالة التى ينشدونها لتحقيق أغراضهم فبدءوا باغتصاب السلطة من بلدية باريس ليلة ١٠ أغسطس، ثم هاجموا قصر التويلرى فى الصباح، ففر الملك وأهله الى قاعة الجمعية، وبعد قتال عنيف بين الغوغاء والحرس الخاص، اقتحم الغوغاء القصر، ومنه الى الجمعية حيث ألحوا بخلع الملك، ولكن الجيروند أفلحوا فى الحصول على موافقة الجمعية بوقفه فقط، وترك البت فى مسألة العرش الى مؤتمر وطنى يدعى لهذا الغرض، آملين أن يفوزوا حينئذ باستخدام رأى مندوبى الأقاليم ضد يعاقبة باريس[1]، على أنهم قبلوا مع ذلك وضع الملك فى حراسة بلدية باريس، وسجنه مع أسرته فى " الهيكل القديم " .

واذ تم ايقاف الملك وحكومته انتخبت هيئة تنفيذية لادارة البلاد، وكان على رأسها دانتون (Danton) أحد زعماء اليعاقبة، وبطل الحوادث التى مرت بنا، فاشترك مع مجلس الكومون (البلدية الجديدة) فى إدارة الأعمال وتنفيذ السياسة المخربة التى جرى عليها حزبهم .

مذابح سبتمبر — فى تلك الأثناء تقدم الأعداء فى الأراضى الفرنسية على عجل كما مر بنا، فقررت الجمعية بتأثير الكومون والرعب الذى أحدثه بلاغ برنسويك القبض على الأشراف وإيداعهم السجون حتى يأمن الناس شر الخيانة . وماوافت الأنباء بسقوط ڤردان (مفتاح باريس) فى ٢ سبتمبر، حتى استولى الجزع على الجميع وطافت

(١) فزع الجيروند خلال هذه الحوادث لما رأوه من رغبة زعماء نادى اليعاقبة فى التسلط على الجمعية وإملاء سياستهم على البلاد بقوة الغوغاء ومجالس الكومون بباريس .

بالسجون عصابات مسلحة، وأودت بحياة كل من فيها تشفيا منهم . ولقد استمرت هذه المذابح حتى ٥ سبتمبر بعد أن بلغ عدد من قتل نحو ١٥٠٠ ولا شك أن المسئول عن كل هذه الأرواح هو دانتون ومن ورائه مجلس الكومون .

أما الجمعية التشريعية، فقد انحلت بعد ذلك بقليل ، بعد أن تم على يدها هدم الملكية والدستور نفسه، بل هدم السلام والعدل والحرية .

الفصل الخامس

المؤتمر الوطنى — (La Convenion Nationale)[1]

الأحزاب — عقد المؤتمر الوطنى فى ٢٠ سبتمبر بجلس الجيروند على اليمين ولم يكونوا أقل رغبة فى الجمهورية من اليعاقبة، وانما جعلوا برنامجهم مكافحة مطامع ذلك الفريق ، لما رأوا فيهم من نزعة السيطرة على البلاد . أما اليعاقبة المتطرفون[2] فقد جلسوا على اليسار، وكانوا أقل عددا ولكنهم كانوا أكثر كفاءة وأكبر جرأة وأشد ارتباطا، تظاهرهم من الخارج مدينة باريس . وجلس بين الفريقين جماعة عرفوا باسم « السهل » (La plaine) وكانوا يتبعون رأى الفريق الأقوى .

وقد كان فاتحة أعمال المؤتمر إلغاء الملكية فى ٢١ سبتمبر، ثم اعلان الجمهورية فى ٢٥ سبتمبر ، ولما جاءت الأنباء بتقدم الجيوش الفرنسية بعد ڤالمى حتى اكتسحت البلجيك وضمت سافوى ونيس الى فرنسا وبسطت حمايتها على جنيف، أصدر المؤتمر قرارا فى ١٩ نوفمبر بتأييد كل أمة تطالب بحريتها . ولقد حاول الجيروند أثناء كل هذا أن يستأثروا بالسلطة فى ظل النظام الجديد فوجهوا الى اليعاقبة تهما

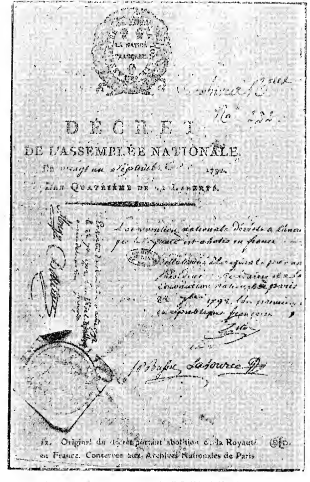
(١) انتخب المؤتمر على قواعد جديدة وضعتها الجمعية التشريعية وهى إلغاء النصاب المالى وإنقاص السن الى ٢١ عاما (٢) يعرف هؤلاء باسم (Montagnards) إذ اتخذ زعماؤهم مقاعدهم بأعلى القاعة فى أقصى اليسار وأشهرهم دانتون وروبسبيير ومارا وديمولين .

لم يكن لها من نتيجة إلا أن زادتهم ارتباطا وتساندا وجعلتهم يشعرون أن لا سبيل الى تأييد الجمهورية، وإرهاب خصومهم والسيطرة على البلاد، إلا باعدام الملك، فحاولوا أن يكرهوا المؤتمر على إصدار قرار باعدامه بتهمة الخيانة العظمى للبلاد من غير محاكمة . إلا أن الجيروند قاوموا تلك الحركة، وأفلحوا فى حمل المؤتمر على تقرير محاكمته، طمعا فى انقاذه، ومع أن العرف والدستور يناقضان هذه المحاكمة، فقد مثل أمام المؤتمر ودافع عن نفسه، كما دافع عنه محاميان حتى كاد المؤتمر يقتنع ببراءته . ولكن روبسبيير وقف فى الأعضاء يذكرهم أنهم « ليسوا قضاة بل رجال سياسة » وكان لخطابه وخطاب زملائه من التأثير ماجعل المؤتمر يقرر إدانة الملك . فحاول الجيروند[1] انقاذه بالالتجاء الى استفتاء الشعب فى العقوبة، غير أن اليعاقبة أفسدوا عليهم حياتهم، بأن حشدوا جموعا من غوغاء باريس داخل القاعة وخارجها لارهاب الأعضاء المعتدلين والمترددين، يوم أخذ الأصوات فى أمر تقدير العقوبة، ثم اقترح أحدهم ألا يبدى العضو رأيه وهو جالس أو قائم فى مكانه كما جرت العادة، بل بالذهاب الى المنبر واعلان رأيه من هناك، فأفزعت هذه الحيلة كثيرا من الأعضاء، ودفعتهم الى الرضوخ لرغبة أعدائهم . وهكذا فاز اليعاقبة بالأغلبية، وقرر المؤتمر إعدام الملك فى ١٧ يناير سنة ١٧٩٣ ونفذ فيه الحكم فى ٢١ يناير بميدان الجمهورية بباريس، وكان آخر ما نطق به : "إنى برىء ... ... ولكن فليكن دمى فداء سلام وسعادة أبناء فرنسا " !

عهد الإرهاب — رأى الثوار حينئذ أنه قد تحتم عليهم المضى فيما شرعوا فيه من الإرهاب، سواء أرغبوا فى ذلك أم كرهوا، حتى لا تسنح الفرصة للرجعيين وأنصار الملكية بالثأر منهم . وكانت الأحوال كلها قد تهيأت لهم لتحقيق أغراضهم، فقد أحاطت بالبلاد إذ ذاك أخطار عديدة نشأت عن حالة الفزع التى أوجدها قتل الملك فى داخل البلاد وخارجها .

(١) لم يحاول الجيروند انقاذ الملك رغبة فيه، ولكن نكاية فى اليعاقبة وجزعا من انتقال السلطة الى يد خصومهم ومن أجل ذلك أرادوا الالتجاء الى استفتاء الشعب، لاستخدام رأى الأقاليم ضد يعاقبة باريس .

أما فى داخل البلاد فقد عم السخط على اليعاقبة ولا سيما فى الأقاليم حيث أخذ يتجلى هذا السخط فى مظاهر شتى ، فديموريه — وكان من أكبر أنصار الجيروند — انضم الى الأعداء بعد أن حاول عبثا الزحف الى باريس لتخليص البلاد من إرهاب المتطرفين . ثم إن الفتن الداخلية استعرت فى أنحاء البلاد على أثر قتل الملك ،



LA NATION FRANÇAISE

DÉCRET

DE L'ASSEMBLÉE NATIONALE,

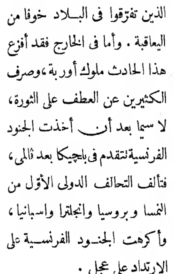
L'an Quatrième de la Liberté.

Original du décret portant abolition de la Royauté en France. Conservé aux Archives Nationales de Paris

قرار إلغاء الملكية (٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢)

[نقلا عن الصورة الأصلية المحفوظة بدار السجلات الرسمية بباريس]

وإعلان التجنيد العام، والاستطالة على رجال الدين، وتحريض الجيروند الذين تفرّقوا فى البلاد خوفا من اليعاقبة . وأما فى الخارج فقد أفزع هذا الحادث ملوك أوربة، وصرف الكثيرين عن العطف على الثورة، لا سيما بعد أن أخذت الجنود الفرنسية تتقدم فى بلجيكا بعد ڤالمى، فتألف التحالف الدولى الأوّل من النمسا وبروسيا وانجلترا واسبانيا، وأكرهت الجنود الفرنسية على الارتداد على عجل .





ديموريـــه

إزاء كل هذا رأى المتطرّفون الفرصة سانحة للاستئثار بالحكم دون باقى الأحزاب، فأعلنوا أن البلاد فى خطر، وأن لا سبيل الى الدفاع عنها، إلا اذا تألفت هيئة صغيرة تدير الأعمال، وتقرر الخطط بغير تردّد أو توان . فأجاب المؤتمر بغيتهم، وأنشأ لجنة سميت لجنة الأمن العام (Comité du Salut Public) وأقام الى جانبها محكمة سميت محكمة الثورة مهمتها القضاء على كل العوامل التى تعرقل مصلحة الدفاع الوطنى، وكان للمتطرّفين اليد العليا فى الهيئتين .

أعمال لجنة الأمن العام — لم يلبث اليعاقبة أن قبضوا على ناصية الحالة فى الداخل والخارج . فأما فى الداخل، فقد أطفأوا نيران الثورات بما أعدّوه من القوّة وأعلنوه من الوعود، إذ وضعوا دستورا جديدا للجمهورية سمى فيما بعد (دستور سنة ١٧٩٣)، ولكنهم لم ينفذوه . واستخدموا القوّة لاطفاء الفتن، حتى لم ينسلخ عام ١٧٩٣ إلا وقد أخمدت الثورة فى لافنديه (La Vendée) وأذعنت مرسيليا، ودانت طولون وفتحت ليون أبوابها بعد حصار طويل، فهدمت رأسا على عقب .

وأما فى الخارج فقد أظهر اليعاقبة العجاب بكفاءتهم ، وارادتهم الحديدية ، ونشاطهم الغريب الذى نفخوا منه فى صدر الأمة حتى حولوها من أقصاها الى أقصاها الى ثكنة عسكرية ، فاستخدموا الشبان للقتال ، والشيوخ لاستنهاض الهمم ، والنساء للتمريض والحياكة ، والأولاد والمتزوجين للعمل فى الحقول ومصانع الأسلحة والذخيرة .

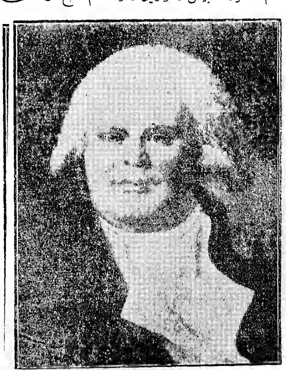
وكان المحور الأكبر لادارة الشؤون الحربية ووضع خطط القتال ، كارنو (Carnot) الذى يكاد لايعرف التاريخ له مثيلا فى قدرته العجيبة على تنظيم الجيوش وتجهيزها بكل معدّات القتال ، حتى أنه لم يحل الحول حتى كانت هزائم فرنسا قد انقلبت الى انتصارات ، اذ أوقف زحف الحلفاء الى فرنسا ، ثم اتخذ الجيش الفرنسى خطة الهجوم ، فاكتسح البلاد المنخفضة مرة ثانية ، واحتل ضفة الرين اليسرى ، وأجبر الأسبان على التراجع الى ماوراء جبال البرانس ، وبذلك تحقق ما كانت تحلم به فرنسا من قديم فى الوصول الى الحدود الطبيعية .



كارنو

محكمة الثــورة — بينما كانت لجنة الأمن العام تقوم بمهمة الدفاع عن البلاد ، وتعدّ لها عدّة النصر ، كانت محاكم الثورة فى باريس والأقاليم ، تنظر فى أمر من يشتبه فى سلوكهم ضدّ مصلحة البلاد ، وتدفع بهم الى المقصلة ، فقضت على مئات من الرجال والنساء بتهمة الخيانة العظمى ، حتى أصبح مشهد الإعدام بالمقصلة أمرا عاديا تحتشد الجموع لرؤيته كل يوم . ولقد ذهب بين الضحايا كثير ممن لم تكن لهم جناية سوى التشيع لآراء أقل تطرفا من آراء اليعاقبة ، أو ممن كان يخشى أن يثأروا لأنفسهم — أرسل أعداءك الى المقصلة قبل أن يرسلوك اليها — فسقط على حدّ المقصلة كثير من زعماء الجيروند ، كما سقطت الملكة ، وشارلوت كورداى التى قتلت مارا زعيم نادى اليعاقبة طمعا فى القضاء على حكم الإرهاب بالإرهاب .

انقسام اليعاقبة — على أنه اذا كان اليعاقبة قد أفسحوا المجال لأنفسهم بالقضاء على كل أعدائهم، فانهم سرعان ما انقسموا شيعا وأحزابا ، أولها حزب دانتون، الذى رأى أن سياسة الفزع والارهاب قد بلغت أقصى مداها ، وأنه لا بد من العودة الى سياسة الاعتدال، لاسيما وقد أخذت الأخطار التى كانت تهدد البلاد تخف وطأتها . والثانى حزب هيبير (Hébert) وشومت (Chaumette) الذى كان يدعو الى نهاية التطرف فى كل شيء ، وبتأثيره اتخذ تقويم جديد لفرنسا يبدأ بتاريخ اعلان الجمهورية، ووضعت أسماء جديدة للأيام والشهور والفصول، ومحى نظام الأسابيع ، وقسم الشهر الى ثلاثة أقسام متساوية ، وأعلن زوال المسيحية من فرنسا واستبدالها بعبادة « العدل والحق » كما أعلنت استباحة أملاك الأشراف، وأوجد النظام العشرى للمقاييس والموازين وهو النظام المتبع الى الآن فى فرنسا



دانتون

وغيرها . وكان هناك فريق ثالث لم يرتض مبادئ دانتون المعتدلة، ولم يسلم بآراء هيبير المتطرفة، وكان على رأسه روبسبيير، فنجح بمساعدة دانتون فى القضاء على جماعة هيبير أوّلا، ثم انفرد بالجماعة الأخرى فقضى عليها . وهكذا خلا الجو أخيرا لروبسبيير باعدام دانتون بطل ١٠ أغسطس .

الإرهاب الأكبر — كان روبسبيير شديد الاعتقاد بوجود الكائن الأعظم (Ètre Supréme) فجعل فاتحة أعماله حمل الأمة على مشاركته اعتقاده، بأن أقام احتفالا فخما للعبادة الجديدة، رأسه هو بنفسه كالكاهن الأكبر لها . وكذلك عمل على صيانة حقوق الأملاك لأربابها، وأهتم ببسط سلطان « الفضيلة »، مستعينا على ذلك بالارهاب وسفك الدماء بلا حساب، حتى بلغ عدد ضحايا المقصلة فى باريس وحدها ١٣٧٦ فى ستة الأسابيع الأخيرة من حكمه — وكان مع ذلك يشكو من البطء فى القضاء على أعداء الجمهورية !


روبسبيير

إعدام روبسبيير — غير أن الشعب مل هذه المشاهد الدموية التى كان يراها كل يوم، وأصبح يتوق الى عهد تسود فيه السكينة والسلام، لا سيما أن الحجة التى كانت تتخذ ستارا لهذه الفظائع، وهى سلامة الوطن قبل كل شىء، قد باتت ولا محل لها، بتقهقر أعداء فرنسا، وخمود الفتن . لذلك دبرت مكيدة لازالة شبح روبسبيير المخيف، واشترك فى تدبيرها وتنفيذها رجال مختلفو المبادئ والأخلاق، فلم يكن يربطهم بعضهم ببعض سوى الفزع من الفتك بهم . وكان أكبر عامل بينهم فوشيه (Fouché) أحد زعماء الارهاب، فان له الفضل الأكبر فى تدبير هذه المؤامرة وإحكامها . وفى ٢٩ يوليه سنة ١٧٩٤ وجه المؤتمرون الى روبسبيير فى قاعة المؤتمر تهمة الخيانة التى طالما أزهق الأرواح باسمها، فلجأ روبسبيير الى قوة العامة لانقاذه، ولكن أكثر أنصاره كانوا قد انفضوا من حوله، فاستطاع المؤتمر أن يقدمه الى المقصلة ليشرب من الكأس التى طالما جرعها المئات من الأبرياء . وأحس الناس كأنما أفاقوا من حلم مريع !

الفصل السادس

حكومة الادارة

كان أكبر ما يرغب فيه الناس جميعا بعد هذه الحوادث المفزعة ، أن تعود الحياة والأعمال الى مجراها العادى ، بعد أن ساد الرعب والضنك طويلا ، وكسدت التجارة ، وارتبكت الأحوال المالية . فتعالت الأصوات من كل جانب بوجوب القضاء على كل عوامل الفوضى والارهاب ، وإعادة سير الأحكام فى طريقها النظامى ، فتشجع المؤتمر ، وأغلق نادى اليعاقبة ، وفض مجلس الكومون فى باريس ، وألغى كل القوانين الاستثنائية التى وضعها رجال العهد البائد . بيد أن رغبة البلاد فى السلام والطمأنينة لم تصل الى درجة الرغبة فى القضاء على الثورة وآثارها ، فقد كان يعز على الناس ضياع ثمرة جهاد وآلام السنين التى مرت ؛ كما أن الكثيرين من أفراد الشعب نالوا خيرا وفيرا فى عهد الثورة — كأرباب المزارع وأصحاب الوظائف وغيرهم — فلم تذهب بهم رغبتهم فى التخلص من حكم الارهاب الى حد إرجاع الملكية القديمة . غير أن الملكيين خيل اليهم أن الفرصة سانحة ، فهبوا بمساعدة الانجليز ، وحاولوا غزو فرنسا من الشمال ، وإضرام نار الفتنة فيها ، ولكن القائد الكبير "هوش" قضى على محاولتهم هذه ، وضربهم ضربة أليمة شتتت أنصارهم .

دستور سنة ١٧٩٥ — اتجهت أنظار المؤتمر بعد ذلك الى وضع دستور جديد للجمهورية ، تصان فيه حقوق الأفراد ، فوضع النظام المعروف بدستور العام الثالث ، وبمقتضاه تألفت الحكومة من الهيئات الآتية :

أولا — الهيئة التشريعية ، وتتألف من :

(١) مجلس الشيوخ ، ويتكون من ٢٠٠ عضو ممن يزيد سنهم عن الأربعين ، ووظيفته مراجعة قرارات المجلس الآخر ، ووقف ما لا يتفق منها مع المصلحة العامة ؛

(ب) مجلس الخمسمائة ، ويتكون من خمسمائة عضو ممن يزيد سنهم عن الثلاثين ، ويسقط ثلث عددهم فى كل عام، ووظيفته وضع مشروعات القوانين لا غير . (١)

ثانيا — الهيئة التنفيذية : وتعهد الى خمسة أعضاء ينتخبهم المجلسان ، ويرأسون الادارة بالتناوب — لكل واحد منهم ثلاثة شهور، ويسقط واحد منهم سنويا بالاقتراع، ومهمتهم تولى الادارة والسياسة والشؤون الحربية .

ولما كان المؤتمر قد خشى أن تكون أغلبية الحكومة الجديدة لغير رجاله ، فيتعرض لانتقام خصومه ، من يعاقبة وملكيين ، فقد اشترط فى تكوين الهيئة التشريعية المقبلة ، أن يكون ثلثا أعضاء المجلسين من بين أعضائه ، غير أن الشعب كان شديد الحنق على كل رجال العهد القديم ، فهب يحتج على هذا القيد ملتجئا الى القوة كسابق عادته ، ولكن المؤتمر قابل القوة بمثلها . وكانت له الغلبة على الشعب ، بفضل جندى شاب لم تدركه الشهرة بعد ، وهو نابليون بونابرت .

الفصل السابع

نابليون بونابرت

مولده ونشأته — ولد فى أجاكسيو بجزيرة قرشقة (Corsica) فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ من أسرة تسكانية الأصل، هاجرت الى تلك الجزيرة قبل ذلك العهد بأجيال عديدة ، وكان أبوه « شارل بونابرت » محاميا ذا شهرة كبيرة، وأمه (ليتيشيا راموليتو Lætitia Ramolino) من فضليات النساء وأذكاهن . شب والجزيرة حديثة العهد بالثورة التى قامت ضدّ فرنسا حين حاولت الاستيلاء

(١) وضع نظام الانتخاب على درجتين واشترط ألا تقل سن الناخب عن ٢١ سنة وأن يكون ممن يدفعون قدرا معينا من الضرائب وأن يعرف القراءة والكتابة .

عليها، فشبعت مخيلته بقصص أبطال قومه وشجاعتهم، ولما آنس منه أبوه الرغبة في الجندية من صغره، أرسله الى مدرسة بريين (Brienne) الحربية ومنها الى المدرسة الحربية العليا بباريس . فاظهر تفوّقا عظيما على أقرانه في الرياضيات، واطلاعا واسعا في التاريخ والجغرافيا ، ولما أتم دراسته سنة ١٧٨٥ عين ملازما في الجيش ، وسرعان ما نشبت الثورة ، فرحب بها نابليون حقدا على الأشراف وأبنائهم الذين كانوا يهزءون به في المدرسة ، وانتصارا للأفكار الحديثة التي شبع بها ، فطفق يساعد على نجاح الثورة وانتشارها في موطنه ، تارة بالكتابة وتارة بالخطابة ، حتى اضطرت أسرته الى النزوح الى فرنسا ، فرارا من اضطهاد أهل الجزيرة لها . إلا أن نابليون خفف تدريجا من حماسه وتشيعه الشديد للثورة ؛ لأن تربيته العسكرية لم تلائمها الفوضى والجرائم التي كان يرتكبها الغوغاء . ولكنه من جهة أخرى ، رأى من واجبه تعضيد حكومة اليعاقبة ، لدفع الأخطار التي كانت تهدد البلاد ، فعين عام ١٧٩٣ قائدا للدفعية في حصار طولون التي ثارت واعتصمت بمعونة الانجليز والاسبان ، فكان لخطته الفضل الأكبر في اخضاعها ، ولما حدثت فتنة باريس التي أشرنا اليها عام ١٧٩٥ نجح في الدفاع عن المؤتمر كما عرفنا ، فعين قائدا للجيش الداخلي ، وتعرف اذ ذاك بجوزفين بوهارنيه ، أرملة أحد قواد فرنسا الأشراف ، فتزوج بها ، ثم عهدت اليه قيادة الحملة الايطالية (التي أعدتها الحكومة الجديدة) اعترافا بخدماته لحكومة الادارة .

الحملة الايطالية — كانت الجيوش الفرنسية قد انقلبت الى الهجوم كما علمنا عقب موقعة ڤالمي ، فدخلت بلجيكا وهولندا[1] ، ثم ردت على أعقابها بعد تأليف التحالف الدولي الأول[2] ، ولكن لجنة الأمن العام قاومت هذا الخطر وأخذت تهاجم أعداءها حتى احتلت البلجيك وهولندا من جديد فانفرط عقد التحالف على الأثر بخروج بروسيا[3] التي اعترفت لفرنسا بفتوحاتها في الشاطئ الأيسر للرين ، وتبعتها

(١) موقعة جماب نوفبر ١٧٩٢ (٢) موقعة نيروندن مارس ١٧٩٣

(٣) معاهدة باسل ١٧٩٥

أسبانيا التي نزلت لفرنسا عن جزيرة سان دومنجو . فلم يبق سوى انجلترا والنمسا ، ومعهما سردينيا ، فبدأت حكومة الادارة بتوجيه ضرباتها الى النمسا ، وكانت خطتها ترمى الى مهاجمة ڤينا عن طريق وادى الطونه ، بينما يقوم جيش آخر بالزحف الى شمال ايطاليا ، ومنها الى ڤينا أيضا ، وهذا العمل الأخير هو الذى وكل الى نابليون .

سار نابليون بطريق الألب البحرية ، وكان جيشه صغيرا تنقصه المؤن والذخائر ، بيد أنه أشعل حماسة الجند وحرّك مطامعهم ، فما كاد ينزل فى السهل الأعظم حتى مزق شمل أعدائه فى موقعة مونت نوت (Monte Notte) أبريل سنة ١٧٩٦ وما زال بالسردينيين يضربهم ضربات متلاحقة ، حتى نفضوا يدهم عن محالفة النمساويين ، وتخلوا له عن نيس وسافوى (فى أبريل سنة ١٧٩٦) ، فتحوّل حينئذ الى النمساويين فأجبر قائدهم بوليو (Beaulieu) على الارتداد الى ما وراء نهر الأدا ومنه الى ما وراء المانشيو (Mancio) حتى أصبح سهل لومبارديا مفتوحا أمام نابليون ، فدخل ميلان ومنها تقدّم الى منتوا (Mantua) أمنع معقل لأعدائه فى ايطاليا ، فحاول النمساويون أن يحولوا دون استيلائه عليها ، ولكنهم أرغموا فى النهاية على تسليمها ، وبذلك تمهد السبيل لنابليون لمواصلة الزحف الى ڤينا من غير أن يلقى مقاومة تذكر ، حتى اضطر النمساويون أخيرا الى التقدّم لعقد الهدنة .

ولما كان جيش فرنسا الزاحف على الرين قد هزم . وحصلت فرنسا على كل ما كانت ترجوه من الحملة ، فقد وافق نابليون على هذه الرغبة وعقد صلح كامپو فورميو (Campo Formio) فى أول أكتوبر سنة ١٧٩٧ ؛ وبه تخلت النمسا عن كل أملاكها فى ايطاليا مقابل حصولها على جمهورية البندقية ؛ كما تخلت عن البلاد الواطئة ؛ واعترفت بجمهورية شمال ايطاليا (Cisalpine) التى كوّنها نابليون [1] ؛ وسلمت بحق فرنسا فى الشاطئ الأيسر للرين ، وملحقات البندقية على ساحل الادرياتيك

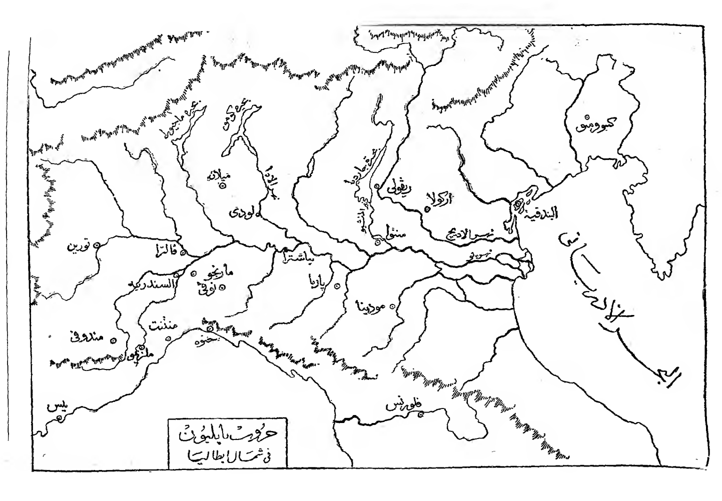
(١) تكونت هذه الجمهورية من أملاك النمسا فى شمال ايطاليا ومن فراره (Ferrara) وبولونيا (Bologna) ورومانيا (Romagna) التى انتزعها نابليون من البابا بموجب معاهدة تولنتينو (Tollentino) (فبراير سنة ١٧٩٧) عقب سقوط منتوا .

وهى دلماتيا (Dalmatia) وجزائر الأيونيان (Ionian) وتعتبر هذه الحملة فاتحة عهد نابليون المجيد، لما تم على يديه من الفوز الباهر والنصر العظيم .

الحمـــلة المصرية — لم يبق من أعداء فرنسا بعد الآن إلا انجلترا، فقد حاول الفريقان عبثا الوصول الى حل حاسم أو إبرام صلح يرضى الجانبين، ومن ثم اتجهت أنظار فرنسا منذ عام ١٧٩٧ الى غزو مصر لتحويل تجارة الهنـد من طريق رأس الرجاء الى طريق البحر الأحمر، رغبـة فى هدم سـيادة بريطانيا التجارية، وإنشاء قاعدة لغزو ممتلكاتها فى الشرق، لما كانت سيادتها البحرية تحول بين فرنسا وبين غزو عدوّتها فى بلادها .

على أن فكرة اسـتيلاء الفرنسيين على مصر لم تكن قريبة العهد، بل ترجع الى ذلك الزمن الذى كانت فيه بريطانيا وفرنسا تتنازعان النفوذ فى بلاد الهند، فقد كانت بريطانيا تعمل دواما على جعـل طريق رأس الرجاء هو طريق مواصلات الهند، رغبة فى استبقاء سيادتها التجارية التى تقوم على السيادة البحرية ، بينما كانت فرنسا تعمل على تحويل ذلك التيار التجارى الى طريق البحر الأبيض ، على زعم أن موقعها الجغرافى يسمح لها بالتفوق على انجلترا . ولذا كانت تحاول بين كل حين وآخر إعادة فتح طريق مصر التجارى أو الاستيلاء على مصر ذاتها، غير أنها فشلت المرة بعـد المرة، حتى إذا تهيأت الظروف لغزو مصر إبان حروب الثـورة وجدت الفكرة تعضيدا عاما من رجال التجارة ومن رجال الحرب والسياسة كنابليون وتليران .

وفى يوم ١٢ أبريل سـنة ١٧٩٨ أصدرت حكومة الإدارة أمرها الى الجنرال بونابرت بغزو مصر، وفتح قنال السويس، وكذلك الإستيلاء على موانئ البحر الأحمر، وضمها الى حكومة الجمهورية . وفى يوم ١٩ مايو خرجت الحملة من طولون واستولت على مالطه ، ثم أبحرت الى الاسكندرية، ولما سقطت المدينـة فى يد الفرنسـيين زحفت الجنود الى القاهرة، وبعـد قتال عنيف فى الرحمانيـة وشبراخيت وبجوار الأهرام استولى بونابرت على العاصمة . غير أن البريطانيين الذين رأوا فى الاستيلاء


حروب نابليون
في شمال ايطاليا
تورين
فالنزا
مارنجو
نوفي
السندرية
منتنت
مندوفي
نيس
ميلان
لودى
بحيرة كومو
بحيرة ماجيور
بياشنزا
بارما
مودينا
فلورنس
بحيرة جاردا
منتوا
ريفولي
اركولا
نهر الاديج
البندقية
كمبوفورميو
البحر الادرياتي

على مصر خطرا عظيما يهدّد كيانهم فى الشرق ، تعقبوا الحملة وفاجأوا القوّات البحرية الفرنسية المرابطة فى أبى قير ، وفى موقعة تعرف بموقعة النيل قضوا على تلك القوّات ، وقطعوا طريق الاتصال بين فرنسا وجيش الشرق ، ولذا أخذ الفرنسيون يعتمدون على موارد الثورة فى مصر ، ويعملون على تنظيم البلاد ، وتدعيم مركزهم فيها ، فأرسلوا ديسيه (Desaix) لغزو الوجه القبلى ، بينما كان نابليون يخمد فى القاهرة ثورة أهلية استعرت لنزع الحكم الأجنبى منها ، ولما استتب له الأمر ، بدأ العلماء الذين رافقوا الحملة بدراسة الشؤون المصرية من وجوهها العديدة ، وتنظيم حياة البلاد على قواعد المدنية الحديثة التى خلفها نابليون أينما حل . هذا فضلا عن دراسة مشروع فتح قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر .

على أن إعلان تركيا الحرب على فرنسا عقب غزوتها لمصر ، وعزم الحكومة العثمانية على تسيير جيش الى سوريا وآخر الى الأسكندرية بمساعدة بريطانيا ، اضطر نابليون الى مباغتة خصومه فى سوريا . ففى ربيع ١٧٩٩ خرج الى العريش ومنها الى غزة ويافا ثم حاصر عكا ، إلا أن سقوط معدّات الحصار التى أرسلت بحرا فى يد الانجليز ، واستماتة الجزار باشا قائد الحصن فى الدفاع عنه بمساعدة سدنى سميث قائد القوّات البريطانية فى شرق البحر الأبيض ، اضطر نابليون الى رفع الحصار والعودة لمصر لا سيما والجنود العثمانية الموجهة اليها كانت قد وصلت الى الاسكندرية . وفى يوم ٢٥ يوليه فاجأ نابليون هذه القوّات وبدّد شملها عند أبى قير . غير أن هذا الانتصار لم يكن حاسما نظرا لانقطاع المواصلات بين فرنسا وجيشها فى الشرق ، ولذا فقد عوّل نابليون على العودة سرا لفرنسا تاركا قيادة الجيش الى كليبر . إلا أن العثمانيين وحلفاءهم البريطانيين عاودوا الكرة على مصر بقوّات متفوّقة آتية من انجلترا والاستانة والهند فاضطر كليبر الى عقد اتفاقية مع سدنى سميث تعرف باتفاقية العريش (٢٤ يناير سنة ١٨٠٠) وبها وافق كليبر على الجلاء عن مصر ، على أن تنقل جنوده الى فرنسا غير أن انجلترا أصرت على الجلاء بلا شرط مطلقا . ولذا عادت الحرب بين الفريقين ، وانتصر كليبر على جنود الحلفاء عند هليوبوليس فى ٢٠ مارس ثم أخذ فى تنظيم البلاد

كما فعل نابليون من قبل، الى أن قضى عليه بطعنة مدية من يد حلبي فى القاهرة يوم ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠

وقد خلفه الجنرال مينو، ولم يكن على شئ من قدرة سلفه، ولذا أسرع البريطانيون الى التضييق عليه، فحاول نابليون دفع ذلك الخطر المحدق به بالتحالف مع بول الأول قيصر الروسيا على أن يشترك الحليفان فى توجيه حملة الى الهند، إلا أن مقتل القيصر قضى على هذا المشروع، وأفسح المجال لبريطانيا لمواصلة الحملة على مصر، ولم يلبث مينو أن هزم ووافق على جلاء جنوده عن البلاد. وقد أعقب هذا الخذلان صلح أميان وبه أعيدت مصر الى حكم العثمانيين (سنة ١٨٠٢)

فرنسا فى غياب نابليون (التحالف الدولى الثانى ديسمبر سنة ١٧٩٨) — بينما كان نابليون غائبا عن فرنسا، تألف حلف جديد اشتركت فيه روسيا التى حقدت على فرنسا تدخلها فى الشرق، وانتزاعها مالطه من يد الفرسان الذين كانوا فى حماية القيصر؛ وتركيا التى غزيت أملاكها فى الشرق؛ وانجلترا التى لم يكن قد تم معها الصلح بعد؛ والنمسا التى أرادت أن تثأر لنفسها، وتنتصر لأمراء ايطاليا الذين اكتسحت أملاكهم تدريجا[1]؛ وتدفع خطر الفرنسيين الذين أغاروا على سويسرا، وأصبحوا قيد خطوات من الحدود. وما كادت الحرب تعلن حتى تقدّم القائد الروسى سواروف (Suovaroff) الى إيطاليا وسحق قوّات الفرنسيين فى نوفى وأجبرهم على التخلى عن كل ما كان بيدهم من الأملاك الشاسعة هناك والارتداد الى شاطئ جنوه، بيد أن الحالة انعكست على الحلفاء فى سويسرا وفى البلاد الواطئة فنجت فرنسا من الخطر، وانفرط عقد المحالفة بخروج روسيا منها (أغسطس — أكتوبر ١٧٩٩).

حكومة الادارة — فى هذه الأثناء كان النزاع قائما فى حكومة الادارة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية بسبب الأنظمة التى وضعت فى دستور سنة ١٧٩٥،

(١) دخل الفرنسيون روما، وأعلنوا الجمهورية فى أملاك البابا — فبراير ١٧٩٨ — ثم استولوا على بيدمنت ولوقا وتسكانيا: وأرغموا جنوه على إعلان الجمهورية، وأقاموا جمهورية فى جنوب ايطاليا على مثال جمهورية الشمال.

فإنه لما كان يتعين سقوط ثلث أعضاء المجلسين التشريعيين فى كل عام، وكان يسقط من رجال السلطة التنفيذية عضو واحد أصبح المجلسان أسرع الى التأثر بالتقلبات السياسية من هيئة الحكومة ، فما حان عام ١٧٩٧ حتى كانت أغلبية المجلسين من الملكيين ، بينما كانت الأغلبية بين رجال الادارة لا تزال للجمهوريين ، فأشار نابليون حينئذ بتطهير المجلسين من زعماء المعارضين حتى لا يفت فى عضد الجيش فى ايطاليا بعودة الملكية الى حكم البلاد ، وسارع فعلا الى تعضيد الادارة ونصرتها باستخدام جنده فى القضاء على خصومها ، وتعرف هذه الحركة فى التاريخ باسم انقلاب فركتيدور (Coup d'état de Fructidor) ، إلا أن الادارة جعلت منذ ذلك الحين تتبع سياسة تقوم على إلغاء انتخابات المعارضين ، وإعادة القوانين الاستثنائية والضرب على أيدى المحرّضين ضد الحكومة ، ومكافأة أعوانها بالرتب والمناصب ، وعلى الجملة ، فانها بدلا من أن تقوم على دعائم الاصلاح ، والسعى فى الخير العام ، أصبحت تقوم على القوّة وما يتبعها من وسائل الإرهاب ، وإفساد الأخلاق ، وقد زاد مركز الادارة سوءا ، أن موقف فرنسا الحربى قد تحرّج فى غياب نابليون ، مما جعل المتطرّفين يتطلعون الى إعادة حكم الارهاب بحجة دفع الخطر ، ولكنهم لم ينالوا من أغراضهم سوى عزل بعض أعضاء الادارة ، وإعادة بعض القوانين الاستثنائية القديمة ، وفرض قرض إجبارى على الأغنياء . ومن ثم تحرّكت عوامل الجزع القديمة ، وثارت الأقاليم الغربية على الحكومة كما فعلت سنة ١٧٩٣ ، فتحولت الأنظار الى رجل ماهر جسور ، قادر على إعادة الطمأنينة وسحق حركات المتطرّفين والرجعيين على السواء . وكان ذلك الرجل ، نابليون بطل فرنسا ، الذى طوّق الشرق جبينه باكليل جديد من الغار !

إزاء هذه الرغبة العامة ، أرغمت حكومة الادارة على استدعائه ، وكانت تؤمل أنه لا يستطيع العودة ، ولكنه عاد الى موطنه فى الوقت الملائم ، فوجد « الكمثرى ناضجة » كما قال : «أى الفرصة سانحة» وبدأ من فوره بالانضمام الى سييس وحزبه ، وكان هذا يقول بأن البلاد تحتاج الى رأس مفكر ويد عاملة ، وكان يرى فى نفسه

الرأس المفكر، وفى نابليون اليد العاملة، فاتفقا على العمل لاسقاط الحكومة، ودبرا لذلك المكيدة التاريخية المعروفة بانقلاب برومير (Brumaire) .

انقلاب برومير — فى صبيحة ١٨ برومير (نوفمبر ١٧٩٩) اجتمع مجلس الشيوخ وكانت الأغلبية فيه لحزب سييس، وقرر انتقال الهيئات التشريعية الى سان كلو (St. Cloud) لاحباط مؤامرة قيل بوجودها، وعهد الى نابليون قيادة الجيوش المعسكرة بباريس وما حولها لدفع الخطر الموهوم، وهنالك بعيدا عن خطر إثارة معارضيهم لغوغاء باريس أرغمت حكومة الادارة على الاستقالة، واستخدمت قوة الجند فى تطهير المجلسين من المعارضين، ثم أصدر الباقون قرارا بتأليف حكومة مؤقتة، لادارة شؤون البلاد ريثما يتم تشكيل دستور جديد، عهد أمره الى لجنة من المجلسين تحت إشراف الحكومة المؤقتة .

القنصلية (دستور ١٧٩٩) — كان الدستور الجديد يقضى بوضع السلطة التنفيذية فى يد ثلاثة قناصل ينتخبون بواسطة مجلس الشيوخ لمدّة عشر سنوات، غير أنه تقرر للمرة الأولى أن تعهد هذه السلطة الى بونابرت وكامبسيريس (Cambacérés) وليبران (Lebrun) على أن يكون بونابرت قنصلا أولا ويكون له حق إعلان الحرب، وإمضاء المعاهدات، وانتخاب الوزارة وكبار الموظفين، ورآسة الجيش والادارة بفروعها . وكان القنصلان الآخران بمثابة مساعدين له فقط .

وأما الهيئات التشريعية فكانت تتألف من ثلاثة مجالس وهى :

(١) مجلس الشيوخ (Sénat) ، وقد وضع على رأسه سييس بطل الحوادث الماضية، حتى ينفرد نابليون بالسلطة الفعلية . وقد تقرر أن يكون انتخاب أعضائه لمدّة حياتهم، وأن يتم ذلك الانتخاب بواسطة القناصل لأول مرة، ثم يترك الأمر الى المجلس نفسه فيما بعد . وقد جعلت مهمته مقصورة على انتخاب أعضاء المجلسين الآخرين؛ والإشراف على تطبيق أحكام الدستور .

(٢) مجلس التربيون (Tribunat)، ويتكوّن من مائة عضو يسقط خمس عددهم فى كل سنة، ووظيفتهم درس المسائل والقوانين التى تعرض عليهم، دون أن يبدوا رأيا بالقبول أو الرفض .

(٣) المجلس التشريعى، ويتكوّن من ٣٠٠ عضو يتجدّد خمسهم فى كل عام ووظيفتهم سماع رأى مجلس التربيون فيما يعرضه من المسائل، وإبداء الرأى الأخير بالقبول أو الرفض .

وحينما عرض هذا الدستور على الأمة أقرّته بأغلبية عظمى، بالرغم مما فيه من العيوب . فقد كان الغرض من كل هذه الأنظمة المعقدة، إيهام الناس بأن الحكم لا يزال بأيديهم، وهو قد انتقل فى الحقيقة الى يد بونابرت ومجلس حكومته — الذى كان يتألف من رجال ذوى علم وخبرة — فجرى بونابرت فى ذلك على سنة ملوك أسرة التيودور .

الفصل الثامن

نابليون القنصل الأوّل

وجه نابليون كل اهتمامه فى بادئ الأمر الى الحرب، فانه رغما من انسحاب روسيا من التحالف كما أسلفنا، بقيت النمسا وانجلترا تناصبان فرنسا العداء، فأخذ يعدّ العدّة للقضاء أوّلا على جيوش النمسا، التى حلت محل الروسيين فى ايطاليا، وأخذت تطارد الفرنسيين الى خارج الحدود، ولكن نابليون لم يلبث أن باغت خصومه من الخلف، باجتيازه جبال الألب من سويسرا، وانحداره على الأثر فى سهول لمبارديا، فهدّد خطوط مواصلاتهم، واضطرهم الى التراجع، ثم لاقاهم فى سهل مارنجو (Marengo) حيث دارت معركة من أكبر معارك التاريخ، انتهت بهزيمة النمساويين فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ حتى سارعوا الى طلب الهدنة، ولكن الصلح لم يعقد

إلا بعد هزيمتهم ثانية فى موقعة هوهنلندن (Hohenlinden) على يد القائد مورو (Moreau) فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٠٠ ، ويسمى هذا الصلح بصلح لونيڤيل (Lunéville) ٩ فبراير سنة ١٨٠١ ، وبه تجددت شروط معاهدة كمبو فورميو ، واعترفت النمسا بالجمهوريات التى أنشأها نابليون فى ايطاليا وسويسرا وهولندا كما اعترفت بضم بيدمنت الى فرنسا ، واعادة تنظيم ايطاليا كما كانت أولا ، مع ترك البابا وملك نابولى يتمتعان بالحرية المطلقة فى ادارة أملاكهما . وقد كانت هذه الانتصارات الباهرة سببا فى رسوخ قدم حكومة القنصلية فى فرنسا ، وازدياد تعلق الناس بها ، واطمئنانهم الى حكمها .

لم يبق بعد ذلك أمام نابليون إلا انجلترا ، ولما كانت البحرية الفرنسية ضعيفة لا تقوى على منازلة خصومها ، فقد ألف نابليون حلفا بحريا (يناير سنة ١٨٠١) من الروسيا والدانيمارك والسويد وبروسيا — وكانت هذه الدول قد أحفظها توقيف انجلترا لمراكبها وتفتيشها لمحتوياتها خوفا من نقل مهربات حربية الى فرنسا ، ولكن انجلترا عجلت بتحطيم الأسطول الدانيمركى فى مياه كوبنهاجن فضلا عن أن بول قيصر الروسيا قتل فى تلك الأثناء ، فانفرط عقد التحالف على الأثر ، وانقطع أمل نابليون فى النصر ولذلك اضطر الى قبول صلح أميان (٢٥ مارس سنة ١٨٠٢) وبه تخلت انجلترا عن كل ما أخذته من فرنسا وحلفائها ، ما عدا سيلان وترنداد ورأس الرجاء ، وتعهدت بردّ مالطة الى فرسان القديس يوحنا ، ومينورقة الى أسبانيا . وأما فرنسا فقد انسحبت من مصر ، وتركتها للسلطان صاحبها الأصلى كما ذكرنا .

نابليون واصلاحاته الداخلية — لم تقتصر أعمال نابليون على شؤون الحرب وحدها ، فقد أبدى من النشاط فى ميادين السلم ما لا يقل عظمة عن انتصاره فى ميادين الحرب . ذلك أن برنامج حكومته كان يرمى الى رفع مكانة فرنسا فى الداخل والخارج ، ولتحقيق هذا الغرض ، اتخذ نابليون لنفسه عمالا من كل جنس ومذهب ، بلا تفريق فى الدين أو المبدأ أو المركز الاجتماعى ، وكان هو فوق كل انسان يعمل

بجد للإشراف على كل صغيرة وكبيرة فى ادارة الحكومة الرئيسية وفى الأقاليم : يستعرض الأوراق، ويملى الرسائل، ويستجوب الأخصائيين ساعات طويلة بغير ملل . وتلخص الخطة التى انتهجها فى حكم البلاد ، فى القضاء على المنازعات الحزبية، وحماية أصحاب المصالح، وتأييد النظام، وبسط الأمن ومكافحة كل مساوئ العهد القديم ، وإن كان الاستبداد السياسى لذلك العهد قد أصبح ممثلا فى شخصه فتراه أعلن



الأمبراطور نابليون الأوّل

احترام ملكية الأراضى التى انتزعت من الكنيسة ، صيانة لمصالح المزارعين وأهــل الطبقة المتوسطة . ثم وضع حدا للنزاع الدينى الذى كان يقسم البلاد شطرين وذلك بالاتفاق مع البابا على أن تكون له السلطة الروحية على الكنيسة ،وتبقى لنابليون السلطة الادارية ، فأصبحت الكنيسة بحولها وقوتها من ورائه تظاهره فى كل أعماله ، وتؤيده فى كل مواقفه ،وناهيك بما كان لذلك من التأثير فى نفس الشعب الذى طرب أيما طرب بعودة سماع أصوات أجراس الكنائس — وكانت معطلة منذ عهد الارهاب وما جاء به من المذاهب الجديدة .

فضلا عن كل ذلك، أمر نابليون بإلغاء القوانين التى تحرم على الأشراف العودة الى بلادهم ، وأصدر عفوا عاما عن كل المجرمين السياسيين ، فلم يبق حزب فى البلاد بأسرها إلا وأخذ يشعر بمنة قد طوقه بها نابليون ! وهكذا أصبحت فرنسا كتلة واحدة يقودها الى ميادين العمل المختلفة ، ليقوم كل فريق بنصيبه فى بناء العظمة والمجد القومى . وقد توج نابليون سلسلة أعماله الباهرة بأن وحد القوانين ، وجمع فيها بين القديم والجديد ، مما اجتمعت عليه رغبة الشعب الفرنسى . فهى تعترف مثلا بحقوق الانسان واحترام الملكية ، وبالطلاق ، والزواج المدنى ... الخ . وبذلك توطدت التغيرات الاجتماعية والاقتصادية العظيمة التى تمخضت عنها الثورة .

تتويج نابليون — وقد نشأ عن سياسة السلم التى اتبعها نابليون فى داخل البلاد وخارجها أن وافق الشعب بأغلبية عظمى عام ١٨٠٢ على تعيينه قنصلا مدة حياته ، وتخويله حق تعيين خلفه ، مع تغيير الدستور تغييرا يجعل يده أكثر انطلاقا وحرية . وحدث على أثر ذلك أن كشفت مؤامرة لقتل نابليون ، وانتزاع الحكم المطلق من يده ، فى حين أن انجلترا كانت تعمل من جديد لتأليف تحالف ضد فرنسا ، فلأجل أن تظاهر البلاد رجلها فى ذلك الوقت العصيب ، نودى بنابليون امبراطورا فى مايو سنة ١٨٠٤ ، وحضر البابا فى ديسمبر من ذلك العام بعينه ، وتولى تتويجه على مثال امبراطرة الرومان الأقدمين . ولما أن فرغ نابليون من مشاغله الداخلية ، ولى وجهه شطر أوربة التى عادت الى امتشاق الحسام .

الفصل التاسع

حروب نابليون الامبراطور

لم تكن معاهدة أميان فى الحقيقة إلا هدنة بين الخصمين، اقتضاها الاعياء الذى حل بهما فى نضال دام أعواما طويلة، كما اقتضاها موقف المتحاربين، فبينما كانت انجلترا تسيطر على البحار، كانت فرنسا تسيطر على أوربة، فلم يك ثم من سبيل الى أن تأخذ الواحدة بخناق الأخرى، فعمدتا الى التهادن ريثما تتهيأ لكل منهما ظروف جديدة لاستئناف الحرب، وذلك لأن حل المسائل المتنازع عليها بينهما، وخصوصا مسألة الأراضى المنخفضة، والسيادة على البحار، لم يقض فيهما القضاء الأخير. فما وضعت الحرب أوزارها حتى عاد الطرفان الى التناجز تحت ستار السلم، ففرنسا أخذت تقاوم التجارة الانجليزية وتضيق عليها سبلها، وتزيد فى قواتها البحرية. بينما كانت انجلترا تعمل أبدا لتأليف حلف أوربى جديد ضدها، وتأبى أن تبر بوعدها بالجلاء عن مالطة استعدادا لحرب قريبة الوقوع، لذلك أخذ نابليون يتحرش بها حتى أعلنت عليه الحرب فى ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ ومن ثم بدأ الصراع الهائل الذى لم ينته إلا فى واترلو.

فكر نابليون بادئ الأمر فى غزو انجلترا نفسها، فأعد على ساحل فرنسا الشمالى جيشا قويا، ونقالات عديدة. ولكن القوة البحرية اللازمة لتنفيذ هـذه الخطة، كانت موزعة بين موانئ فرنسا وحليفتها اسبانيا، وكان الأسطول الانجليزى يراقبها ويحول بين تجمعها، فلما حاولت أن تخرج أخيرا الى البحار، باغتها نلسن عند رأس الطرف الأغر، فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ وانتصر عليها انتصارا حاسما وبذا سلمت انجلترا من أعظم الأخطار التى تعرضت لها منذ عهد الأرمادا.

التحالف الدولى الثالث (١٨٠٥) — أفلحت انجلترا خلال ذلك فى تأليف حلف جديد من الروسيا والنمسا والسويد لشل يد نابليون والقضاء على

سلطانه الذى زعزع توازن أوربة الدولى، وجعله مصدر خطر داهم للجميع، ذلك أنه حوّل جمهورية ايطاليا الى ملكية وراثية يحكمها ابن زوجته، وألحق بيدمنت وجنوه وبارما بأملاك فرنسا، وأنشأ يتدخل فى شؤون سويسرا، ويدفع الولايات الألمانية الى مصادقته ومحالفته، فضلا عن أنه كان يعمل جهده لتحقيق أحلامه فى الشرق، وجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة لاتينية.

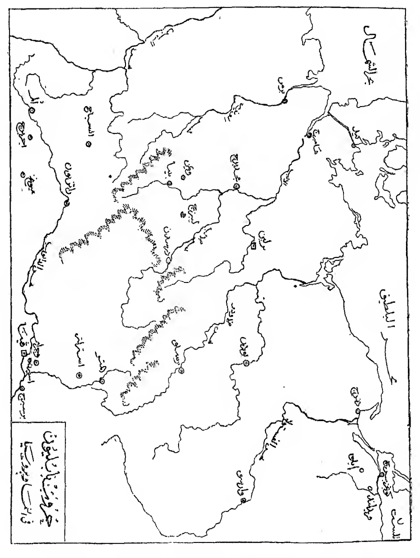
ومع أن نابليون لم يكن له حينئذ من حليف سوى بافاريا، فانه باغت النمسا قبل أن تتهيأ لها معاونة أحلافها الروسيين بأن سير جنوده المرابطة فى شمال فرنسا الى نهر الطونة بطرق متفرقة، وسرعان ما أحاط بالنمساويين، واضطرهم الى التسليم فى ساحة أولم (Ulm) — ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٥ فثبتت هذه الموقعة قدم الامبراطورية، كما ثبتت مارنجو قدم القنصلية من قبل، لاسيما وقد توّج هذا النصر بدخول ڤينا على الأثر. حينئذ عجلت النمسا بحشد فلولها المهزومة وسارعت تعاونها جيوش القيصر لانقاذ العاصمة، ولكن نابليون بطش بأعدائه جميعا، وانتصر عليهم انتصارا باهرا فى موقعة اوسترلتز فى ديسمبر، فتقهقر القيصر عائدا لبلاده، وتقدّمت النمسا لتوقيع الصلح فى برسبرج — ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥ وبه نزلت عن البندقية ودلماشيا واستريا والتيرول لفرنسا، فأصبحت لها السيادة التامة فى ايطاليا وجنوب ألمانيا مما مهد لها السبيل لتنظيم شؤون الايطاليين تنظيما لم يشهدوه منذ قرون، كما مهد السبيل لالغاء تلك البقية الباقية من العصور الوسطى — الدولة الرومانية المقدسة — وانشاء اتحاد جديد من أمراء ألمانيا الجنوبية تحت حماية فرنسا.

موقف بروسيا — كانت بروسيا قد اتخذت خطة المسالمة منذ التحالف الأوّل، بيد أن مطامع نابليون فى ألمانيا، وانتهاكه حرمة أراضيها فى الحرب الأخيرة أثار فيها رغبة الانضمام الى جانب الحلفاء، فلما جاءت موقعة أوسترلتز ثاب اليها رشدها، وسارعت الى مصادقة نابليون، على أن يضم اليها هنوفر، ولكنها عادت فرأت أن معاهدة برسبرج، وما نتج عنها من نشأة اتحاد الرين، وبسط سلطان نابليون على

ايطاليا ، لاسيما وقد خلع أسرة البربون من نابلى ونصب أخاه يوسف ملكا عليها ، فضلا عن جعله هولندة مملكة وضع على عرشها أخاه لويس ، كل ذلك هدّد مصالح بروسيا التى ألفت نابليون يخدعها ويمنيها بوعود لاطائل تحتها ، فبينما كان يعدها بالحصول على هنوفر ، والوصول الى مرتبة الأمبراطورية ، كان يفاوض انجلترا سرا لاعادة هنوفر اليها ، وذلك على الرغم من إقفال موانئ بروسيا فى وجه التجارة الانجليزية ، و إشهار انجلترا ثم السويد الحرب عليها من جراء ذلك ، فثار غضب الشعب البروسى ، واضطرت حكومته الى انذار نابليون بالجلاء عن ألمانيا . واذ كان الأمبراطور قد فشل فى مفاوضات الصلح مع الروسيا وانجلترا ، وبات يخشى تأليف حلف جديد ضدّه ، فقد تذرّع بذلك البلاغ لمباغتة بروسيا وغزو بلادها ، لاسيما وقد كان الجيش البروسى على حسن نظامه وشجاعة أفراده ، ينقصه التمشى مع الأساليب الحربية الحديثة بل كان لا يزال يتبع تقاليد فردريك الأكبر ، ولذا تغلب عليه الفرنسيون فى موقعتين حاسمتين : ييِنا وأورشتات فى أكتوبر سنة ١٨٠٦ ، ومالبثت أن سلمت كل المعاقل والحصون الواحد بعد الآخر ، بكل مافيها من الحاميات والمعدّات الحربيـة الى أن دخلت الجيوش الغازية برلين ، حيث أصـدر نابليون مراسيم برلين الشهيرة التى أعلن بها حصار الجزر البريطانية ، وحرّم على كل الدول الأوربية الاتجار معها .

وفى خلال ذلك جمع ملك بروسيا فلول جيشيه وتقهقر بها نحو الحدود الروسية فى الاتجاه الشمالى الشرقى حيث سارع القيصر لنجدته ، إلا أن نابليون عاوده النصر فى موقعتين متتاليتين ايلو (Eylau) وفريدلند (Friedland) (فبراير سنة ١٨٠٧) فسارعت الخليفتان الى عقد الهدنة ، وفى خلالها تقابل القيصر اسكندر بالأمبراطور نابليون ، وسط نهر النيامن (Niemen) وخرجا من المقابلة صديقين حميمين ، اذ اتفقا على شروط معاهدة تلسيت (Tilsit) التى أمضيت فى ٧ يوليه سـنة ١٨٠٧ ، وبها تخلت بروسيا عن أملاكها غرب نهر الألب (Elbe) لانشاء مملكة وستفاليا التى نصب عليها جيروم أخو بونابرت الأصغر ، كما نزلت عن أملاكها فى بولندة الى ملك

سكسونيا[(١)]. أما القيصر فقد اعترف بالتغييرات التى أحدثها نابليون فى ألمانيا، وتعهد بالانضمام اليه فى تنفيذ نظام الحصار القارى ضدّ انجلترا. وفى نظير ذلك تعهد نابليون

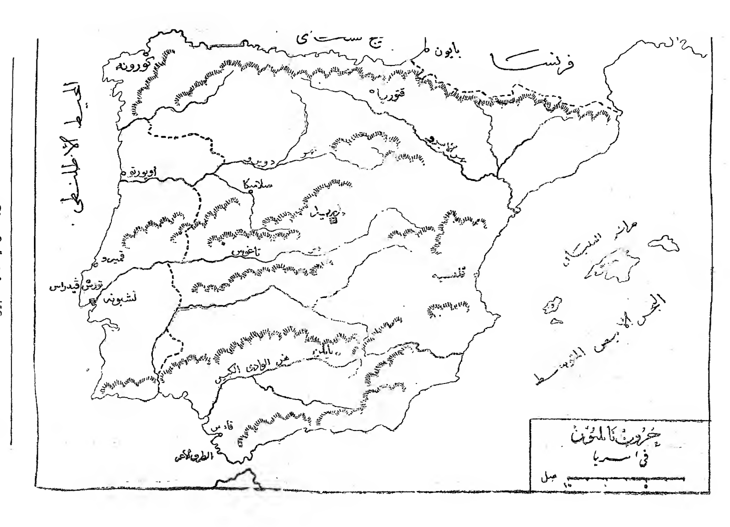


(١) ضمت وستفاليا وسكسونيا الى اتحاد الرين على أثر هذا التغيير فأصبح الاتحاد يشمل كل ألمانيا ما عدا بروسيا.

بمساعدة حليفه في تحقيق مطامعه في فنلنده ووادي الطونة، وتحقيق حلم القياصرة منذ عهد بطرس الأكبر في تقسيم تركيا .

نابليون وأيبيريا — يعتبر صلح تلسيت الحدّ الذي بلغ عنده ملك نابليون أقصى اتساعه . وله أهمية خاصة في سياسة فرنسا التي كانت ترمى حينئذ الى إخضاع انجلترا بطريق الحصار التجاري، غير أن نابليون رأى بثاقب نظره أنه ما دامت انجلترا تجد لتجارتها منفذا في ولايات البابا وفي أيبيريا، فلا سبيل الى نجاح خطته . لذلك صمم على الاستيلاء على تلك البلاد، إلا أنه اصطدم في هذه المحاولة بعاملين من أقوى العوامل الفعالة وهما الكنيسة والشعور القومي . ففي مايو سنة ١٨٠٨ أعلن نابليون ضم أملاك البابا الى فرنسا، فأجاب البابا ذلك الأمر بحرمانه من غفران الكنيسة فقبض عليه نابليون وسجنه، مما أثار ثائرة الأمم الكاثوليكية، وصب على رأسه اللعنات في كل مكان . وأما خطته إزاء أيبيريا فقد حركت قوة جديدة في وجهه لم يألف مكافحتها من قبل، وهى قوة الشعور الوطني، فنابليون لم يقاتل الى الآن إلا بلادا مقطعة الأوصال، لا وحدة لها ولا ارتباط بين أجزائها كألمانيا والنمسا وإيطاليا ولكنه وقف في هذه المرة أمام عصبيات قوية، هبت تدافع عن كرامتها القومية، وتذود عن حريتها، وتحمى عروش ملوكها من اعتداء الغاصبين .

ذلك أن نابليون عقد اتفاقا مع اسبانيا في نوفمبر سنة ١٨٠٧ على أن يعملا سويا لغزو البرتقال في مقابل اقتسامها معا، وبينما كانت الجنود الاسبانية تعمل بعيدة عن بلادها، استولى نابليون على المعاقل الاسبانية نفسها، فثار الاسبانيون على ملكهم الذي جلب عليهم هذه الغارة الأجنبية، وحملوه على النزول عن عرشه لابنه فرديناند إلا أن ميرا (Murat) قائد الحملة الفرنسية، أبى أن يعترف بفرديناند، وأرسل الأب وابنه الى بايون لمقابلة نابليون، وهناك أرغما على النزول عن العرش، وتوج يوسف بونابرت ملكا على اسبانيا، وأقيم ميرا مقامه في نابلي : غير أن الاسبانيين لم يرتضوا ملكا ليس منهم، فقاموا يظاهرهم البرتقاليون للدفاع عن حرية بلادهم . وقد كانت


المحيط الأطلنطى
فرنسا
بايون
كورونه
أوپورتو
دويرو
سلامنكا
مدريد
تاغوس
لشبونه
فلنسيه
قادس
الوادى الكبير
البحر الأبيض المتوسط
حروب نابليون
فى أسبانيا
ميل

هذه الحرب التى استعرت فى أيبيريا بدء الكوارث التى انتهت بضياع سلطان فرنسا الواسع الأطراف . فان دفاع الاسبانيين والبرتقاليين المجيد، كان قدوة حسنة لشعوب أوربة، حتى لم يلبث أن أنحلت أمام هذه القوّة الجديدة — قوّة الشعوب — قوّة نابليون التى طالما دوّخت الملوك والحكومات . ولا ريب أن طبيعة البلاد الاسبانية والبرتقالية، كانت خير عضد لأهلها، فانها اضطرت أعداءها الى الانقسام فصائل صغيرة لا ارتباط بينها، وجعلت شبه الجزيرة ميدانا رحبا للحروب غير المنظمة، هذا الى أن انجلترا قوّت العصابات الاسبانية بارسال جيش يرتكز على الشاطئ ويتدّرع بالأسطول مما أطال أمد المقاومة وفت فى عضد الفرنسيين .

وقد ظهرت بوادر النجاح حينما استطاع ولزلى قائد الجيش الانجليزى أن يهزم الفرنسيين عند فيمرو — أغسطس ١٨٠٨ — ويضطرهم الى الانسحاب من البرتقال، بينما كان الاسبانيون يناوشون أعداءهم حتى انتصروا عليهم عند بايلن سنة ١٨٠٨ وأرغموهم على إخلاء مدريد، فلم ير نابليون مناصا من أن يعمل سريعا للقضاء على «عصابات الزراع والرهبان» الذين حالوا بينه وبين آماله العريضة، فرحل الى اسبانيا حيث نكل بأهلها، وظهر عليهم فى ملاحم عديدة حتى استولى على مدريد وأعاد أخاه اليها . ثم طارد النجدات الانجليزية التى أرسلت بقيادة مور (Moore) حتى كورونه (Corona) . وأنشأ بعد ذلك ينظم شؤون البلاد على أساس جديد، فقضى على مساوئ العهد القديم، وأدخل كثيرا من مبادئ الاصلاح فى بلاد لم تعرف الاصلاح منذ أمد طويل . بيد أن تلك الاصلاحات لم تكن فى نظر الاسبانيين شيئا يذكر بجانب ما فقدوه من استقلال البلاد، وامتهان كرامتها، فاستماتوا فى الجهاد، حتى خيل للعالم أن الفرصة قد حانت للتخلص من شارلمان أوربا الجديد .

موقف النمسا — فى هذه الظروف العصيبة داهم نابليون خطر جديد من جانب النمسا التى كانت تعانى آلاما لا تحتمل منذ معاهدة برسبورج وصلح تلسيت، فقد انتزعت أملاكها، وعطلت تجارتها، وانتهكت كرامتها، وأصبحت ترقب الفرص للوقيعة بنابليون .

فلكي لا تستفيد من ظروف الثورة الاسبانيــة ، اجتمع نابليون بالقيصر فى مدينة ارفرت ووقعا عهدا سريا مؤدّاه أن تساعد الروسيا فرنسا اذا ما اعتدت عليها النمسا ، وذلك مقابل المضى فى تنفيذ مشروع الشرق الذى أقرّاه فى تلسيت ، ولكن النمسا رأت أن ويلات الحرب أخف من ويلات السلام ، وأن قيام الاسبانيين بالثورة فرصة لا تعوّض ، ولذلك أعلنت الحرب على فرنسا فى أبريل سنة ١٨٠٩ وأسرعت بتوزيع قواتها ، فوجهت جيشا الى إيطاليا وآخر الى غاليسيا ، والثالث الى الحدود الفرنسية . ولكن سرعان ما أقبل نابليون على عجل ، وظهر على جيش عدوه فى موقعة اكمهل التى فتحت له أبواب ڤينا فى مايو سنة ١٨٠٩ ثم تعقب خصومه الى واجرام حيث نشبت المعركة التاريخيــة العظيمة التى سحق فيها الجيش النمساوى على ما أبداه قواده من المهارة والاستبسال ٦ يوليو سنة ١٨٠٩

واذ كان قد خاب أمل النمسا فى الدول التى كانت تعتمد عليها ، فقد قبلت صلح شينبرون فى ٤ أكتوبر سـنة ١٨٠٩ وبه نزلت عن سلزبرج الى اتحاد الرين ، كما تخلت عن جزء من بوهيميا وكذلك كراكو وغاليسيا الغربية الى ملك سكونيا ودوق وارسو ، وأعطت الروسيا جزءا من غاليسيا الشرقية . وأما فرنسا فقد أخذت تريستا وما حولها من الأراضى النمساوية فى شمال الأدرياتيك .

وقد أعقب هذه المعاهدة طلاق جوزفين وزواج نابليون بمارى لويز من أسرة هابسبرج ، ابتغاء ربط الدولتين برابطة الصداقة والمصاهرة ، ولكن الزواج لم يثمر الثمر السـياسى المطلوب . لأن النمسا لم تتردّد فى الأخذ بالثأر حينما لاحت لهـا الفرصة السانحـــة .

الصـــراع فى أيبيريا — عاد الفرنسيون الى الوقوف وجها لوجه أمام «عصابات الرهبان والزرّاع» فى أيبيريا ، فقد عزز نابليون قواته بجيش عظيم يقوده سولت وناى وغيرهمـا من كبار القـوّاد ، فنكلوا بهـم ، وضيقوا عليهـم الخناق ، وطاردوهم الى سواحل البرتقال . ولكن القائد الانجليزى ولزلى لم يلبث أن عاد الى

أيبيريا وأخذ يهدّد مواصلات الفرنسيين حتى أجبرهم على التقهقر على أثر انتصاره عليهم فى تلاڤيرا (Tallaveira) فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٠٩ ، بيد أن النصر عاد ثانية الى صفوف الفرنسيين، فأكرهوا ولزلى على الارتداد الى البرتقال، وبذلك خلا الجوّ لهم، واتسع المجال أمامهم لإخضاع المقاطعات الثائرة عليهم . وفى العام التالى خرج القائد الفرنسى الكبير مسينا (Masséna) لمهاجمة القوّات التى أعادت نشاطها تحت زعامة ولزلى . ولكنه اضطر الى التراجع الى أسبانيا بعد معركة تورس ڤدراس (Torres Vedras)، ومع ذلك فان ولزلى لم ينتفع طويلا بهذا الانتصار، لأنه عاد فارتدّ الى الساحل، ورجعت الحالة الى ما كانت عليه أوّلا .

وسط هذه الأزمة العصيبة، جاءت أوربة لنصرة أيبيريا، متأثرة بالنكبات الكبار التى حلت بجيوش نابليون، وبالروح القومية التى انبعثت فى القارة من أقصاها الى أقصاها .

الفصل العاشر

نابليون والشرق

قبل أن نبدأ الكلام على حرب الأمم يحسن بنا أن نتتبع سير الحوادث فى الشرق وتأثيرها فى الحروب المستعرة فى الغرب . ففى عام ١٨٠٣ استؤنف القتال بين فرنسا والدول كما رأينا فاضطر نابليون الى إغراء تركيا للانضمام اليه واعلان الحرب على أعدائه لاسيما الروسيا عدوتها القديمة، ولما تم له الأمر فى ديسمبر ١٨٠٦ قطعت بريطانيا علاقتها مع تركيا بغير إعلان حرب ، وطفقت تبذل جهدها لإرغام العثمانيين على التخلص من سيطرة الفرنسيين، بأن وجهت قوة بحرية يقودها الاميرال ديكورث الى الدردنيل والقسطنطينية لارهاب تركيا ، غير أن العثمانيين رفضوا بايعاز مندوب فرنسا أن يفاوضوا بريطانيا ما دامت قوتها باقية فى المياه العثمانية ،

وجعلوا يعززون حصون الدردنيل لتسدّ على الأسطول البريطانى طريق العودة، فاضطر الأميرال ديكورث الى النكوص على أعقابه من غير أن يفوز برغبته فى أول مارس سنة ١٨٠٧ إلا أن بريطانيا لم تسكن لهذا الفشل، ففى منتصف ذلك الشهر، ظهر الأميرال فريزر على الشواطئ المصرية، وبدأ بمحاصرة الاسكندرية رغبة فى نزع هذه البلاد من يد محمد على الذى كان البريطانيون يعتبرونه آلة تسيرها فرنسا لتحقيق مطامعها فى مصر والشرق . وبعد الاستيلاء على هذه المدينة تقدّمت القوات البريطانية على رشيد للبدء فى الغزوة الكبرى بمساعدة المماليك خصوم محمد على الذى انتزع منهم ملك البلاد، إلا أن هذا كله لم يجد نفعا فقد هزمهم محمد على هزيمة كبرى واضطرهم الى العودة للاسكندرية حيث شدّد عليهم الحصار حتى أجلوا عن البلاد فى سبتمبر سنة ١٨٠٧

ولقد نشأ عن هذه الانتصارات التى أصابها العثمانيون أن تفرّغت تركيا لمواصلة الحرب ضدّ الروسيا حتى اضطرتها الى تحويل جانب كبير من القوّات المواجهة لنابليون فى الشمال، على أن الامبراطور استطاع قهر الروسيين بغير معونة حلفائه كما رأينا، ومن ثم تهيأت الأحوال لمقابلة تلسيت، وفيها تخلى نابليون عن أصدقائه بل تعاقد على أن يقتسم مع القيصر ملك العثمانين ما عدا القسطنطينية وولاية الروملى اذا لم يعقد الصلح سريعا بين الروسيا وتركيا، إلا أن فرنسا نجحت فى عقد هدنة سلوبدزيا «٢ أغسطس سنة ١٨٠٧» بين الفريقين المتحاربين، وبذا ضاع أمل الروسيا فى تقسيم الأملاك العثمانية، ولكنها أصرت مع ذلك على استبقاء ولايتى الأفلاق والبغدان التى احتلتها من بداية الحرب على أن تحتل فرنسا ولايتى البوسنه وألبانيا على سبيل التعويض . ولكن نابليون تردّد فى قبول هذه السياسة التى كانت الروسيا تدفعه اليها، وبدلا من أن يرفض هذا الأمر بتاتا طلب تعويضا يعسر قبوله ألا وهو احتلال ولاية سيليزيا، وبذا تعقدت المفاوضات وأخذت العلاقات الفرنسية الروسية تتوتر تدريجا .

أخذ نابليون يماطل الروسيا بعد ذلك طويلا حتى يتم عقد الصلح مع بريطانيا، ولكن هذا الأمل تبدّد فى بداية عام ١٨٠٨ حين أعلنت بريطانيا رغبتها فى استئناف

الحرب حتى الانتصار التام . حينئذ عاد نابليون الى توطيد دعائم الصداقة مع الروسيا ، وفى خطاب أرسله للقيصر فى فبراير عام ١٨٠٨ عاد الى إعلان رغبته فى تقسيم تركيا بل وتقسيم آسيا والهند كذلك . وبدأت فى الواقع مفاوضات لتقسيم تركيا — مفاوضات لم يكن القصد منها إلا اكتساب الوقت ريثما يتم عقد الصلح مع بريطانيا حتى لا تعود الروسيا الى الاشتراك مع عدوتها . ولكن هذه المفاوضات لم تثمر كما كان ينتظر ، فقد أخفق الطرفان فى الاتفاق على مصير الأستانة . على أن نابليون رأى أن لا مندوحة عن الرضوخ لرغبة الروسيا بعض الشيء حين ثار أهل الأندلس واشتبكوا معه فى حرب ضروس أنهكت قواه وأنذرته بشر مستطير ، ولذلك قابل نابليون قيصر الروسيا فى أرفرت «سبتمبر سنة ١٨٠٨» وتعاقد معه على أن تضمن الروسيا بقاء النمسا وبروسيا على الحياد فى نظير اعتراف فرنسا باستيلاء الروسيا على فنلندا وولايتى الأفلاق والبغدان غير أن الشرق وموقفه السياسى خرج نهائيا من يد نابليون من هذا الحين ، فان عودة دول أوربا الى مناجزته اضطرته الى توجيه قواته للدفاع عن مركزه فى أوربا ، بل عن مركزه فى فرنسا ذاتها .

لهذا انفردت الروسيا بتسوية مسائل الشرق ، فنقضت هدنة سلوبدزيا واستأنفت الحرب مع تركيا لمدة ثلاث سنوات متوالية بغير أن تصل الى إرغام العثمانيين على صلح يقتطع جزءا من أملاكهم ، فلما تغيرت الأحوال فى أوروبا وأصبح دخول الروسيا فى حرب مع فرنسا قريب الوقوع ، أخذت الروسيا تعمل لعقد الصلح مع تركيا بشروط معتدلة حتى تستطيع توجيه كل قواتها ضد نابليون . وقد حاولت فرنسا إحباط هذا الصلح رغبة فى تبديد قوات أعدائها كما فعلت مرارا إبان حروبها فى أوربا ، إلا أن تركيا فقهت الى رغبة فرنسا فى استخدامها آلة لتنفيذ أغراضها كما فعلت أولا ، فبدأت مفاوضات الصلح مع الروسيا على أن تسترد الولايات الشمالية مع بقاء بسرابيا وحدها فى يد الروسيا . وفى ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ عقد الصلح نهائيا فى بخارست ، وكانت هذه المعاهدة عاملا كبيرا فى جميع قوات أعداء نابليون وتحطيم ملكه كما سنرى .

الفصل الحادي عشر

حـــــرب الأمـــــم

سرت الروح القومية التى ظهرت فى اسبانيا الى بقية ممالك أوربة، روح الجهاد لتخليص البلاد من الحكم الأجنبي، وشر تسلطه عليها، واستبداده بها، فبدأت بذلك حرب الأمم بعد حرب الملوك، وأصبح كل فرد يرى من واجبه أن يأخذ قسطه من الدفاع عن شرفه الوطنى. ولعل النظام الاقتصادى الذى فرضه نابليون على أوربة وأرغمها على العمل به كان من أشد العوامل فى إثارة هذه الحرب فقد عطلت المتاجر، وأوصدت المصانع، وأصبحت أثمان الحاجيات فوق طاقة الفقراء، فى حين أن انجلترا التى أراد نابليون الايقاع بها لم يصبها من الضرر شيء يذكر فى جانب كل هذه الآلام والمتاعب.

وكانت الروسيا أسبق الدول الى الانتقاض على نابليون متأثرة بالعوامل الآتية:

(١) أضاف صلح شينبرون الى دوقية وارسو مقاطعة غاليسيا كما رأينا، فأقيم بذلك حاجز منيع بين الروسيا وأوربة، خلافا للسياسة الروسية التى بدأها بطرس الأكبر؛

(٢) لم يقم نابليون بما تعهد به فى تلسيت من مساعدة الروس لتحقيق مطامعهم فى تركيا على زعم اشتغاله بمحاربة النمسا وأيبيريا؛

(٣) أحدث النظام القارى ضيقا شديدا فى الروسيا وأنزل بأهلها ضررا بليغا دون أن يكون من وراء كل ذلك نفع للروسيا؛

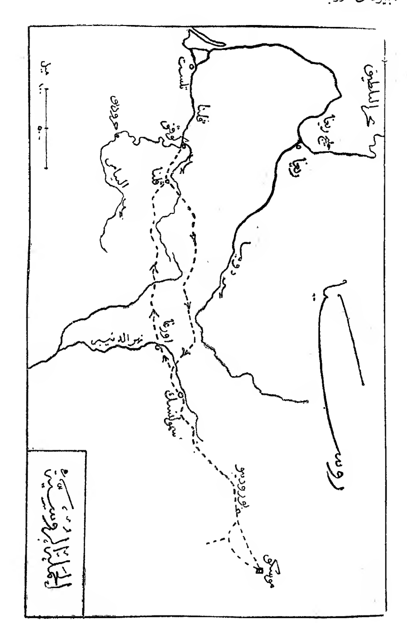
(٤) تحولت سياسة فرنسا الى مصادقة النمسا بعد زواج نابليون بمارى لويز، فلم تعد تعبأ بمصالح الروسيا، فقرر رأى القيصر وحكومته على نقض معاهدة تلسيت وفتح ثغور بلادهم للمتاجر الانجليزية فى سنة ١٨١٠، ولما كان فى هذا العمل نقض

عظيم للسياسة التى من أجلها خاض نابليون غمار حروبه الكثيرة، واضطر من أجلها أن يضم الى فرنسا هولندا وكل سواحل ألمانيا بما فيها برمن وهمبرج ولوبك فى سنة ١٨١١، فلم ير بدا الآن من شن الغارة على الروسيا احتفاظا بغرضه، وضنا بسياسته من العبث، على الرغم من ضيق موارده، وتحفز أمم أوربة للأخذ بالثأر منه .

الحملة الروسية — جهز نابليون لهذه الغارة جيشا من أنحاء الامبراطورية يربو على ستمائة ألف مقاتل، وسار به الى الروسيا فى صيف عام ١٨١٢ ؛ فتراجع الروسيون أمامه ليطوّحوا بالقائد العظيم فى بطاح بلادهم الواسعة الأطراف، المتشعبة المسالك ولم يشتبكوا معه إلا عند نهر «بروديتو» Borodino (٧ سبتمبر) حيث تطاحن الفريقان على غير جدوى، ثم عاد الروس الى خطتهم الأولى، فجعلوا يتقهقرون دون أن يتركوا مدينة أو قرية إلا جردوها مما ينتفع به . وظل نابليون يتقدّم بين تلك الأراضى الموحشة حتى دخل موسكو فى ١٤ سبتمبر ١٨١٢ ولشدّ ما ذهل لما رآه فيها من السكون المخيم، والوحشة الشاملة، بعد فرار أهلها منها، وما كانت العشية حتى اشتعلت فيها النيران من كل جانب، بفعل حاكم المدينة، فارتد الى خارج أسوارها وأقام ينتظر عبثا أن يطلب الروس الصلح، فلم ير مندوحة وقد دنا فصل الشتاء، من أن يعود أدراجه صوب الحدود الأوربية، فلاقت جنوده فى سبيلها من النكبات الكبار ما مزقها كل ممزق، اذ كان البرد شديدا والطريق قفرا، وفرسان القوازق تطاردها، وجيوش الروس تهاجمها فى كل مكان ومن كل جانب : فلم يفلت عند الحدود من ذلك الجيش الزاخر إلا نحو مائة ألف جندى، على رغم العناية التى بذلها المارشال ناى (Ney) فى إنقاذ الجيش، حتى لقب منذ ذلك الحين بناى أشجع الشجعان .

عودة التحالف الأوربى — ما كادت تذيع أنباء الكارثة التى حلت بجيش نابليون فى الروسيا، حتى قام الشعب البروسى يطلب الانضمام الى الروسيا للأخذ بثأر يينا، ولنقض النظام القارى الذى قيد متاجره وعطل مصالحه، فلم تر الحكومة بدا إزاء الرغبة العامة من أن ترتبط مع الروسيا بمعاهدة كليش (Kalish)

التى أبرمت فى ٢٨ فبراير سنة ١٨١٣ على أن تعملا معا للقضاء على سلطان نابليون فى أوربة .



وكانت بروسيا قد أخذت منـذ معاهدة تلسيت تنهض نهضة قوميـة أساسها الدعوة لانقاذ الوطن من مصاب تحكم الأجنبي فيه . والعمل على إعادة الحرية اليه، باستخدام قوى البلاد ومواردها فى ذلك السبيل، فقام شارنهرست (Scharnhurst) بتدريب القادرين على حمل السلاح وفق آخر الأنظمة والأساليب الحربية المستحدثة، حتى أصبح كل بروسى على أهبة تامة للانضمام الى الجيش عند ماتحين ساعة الخلاص. وقام ستين (Stein) باصلاح البلاد اجتماعيا واداريا كما أصلحت فرنسا إبان الثورة، فى حين أن همبولت (Humboldt) اتخذ من العلم والتعليم وسيلة لبث مبادئ الوطنية والتضحية الذاتية فى سبيل تحرير البـلاد واعلاء شأن الوطن ، فنشطت الأمة فى كل ميادين حياتها نشاطا مدهشا، حتى اذا أعلنت الحرب على فرنسا، لبت البلاد بأجمعها نداء الوطن ، ونهضت نهضة لا مثيل لها إلا فى تاريخ فرنسا سنة ١٧٩٣ ، حين سارع القوم الى حمل السلاح وهم ينشدون الأناشيد الوطنية، ويبدون العجاب من مظاهر الحماسة والغيرة الصادقة .

أما نابليون فقد وقف وسط العاصفة لايلين ولا يتزعزع، إذ بادر الى تجهيـز جيش جديد من زهرة الشـبان فى فرنسا ، ثم أسرع لمقابلة أعدائه فانتصر عليهـم فى لوتزن «Lautzen» (١٤مايو) و «بوتزن Bautzen» (٢١ مايو) إلا أن انتصاره لم يعد حاسما كما كان فى أوسترلتزو يينا ، فان أوربة التى عرفها قديمـا ، تغيرت ، ودبت فيها روح جديدة، وكذلك فرنسا تغيرت بتأثير الضحايا المتوالية . لذلك أسرع نابليون الى عقد هدنة مع خصومه، ليستجمع قواه المشتتة، ويلتمس سبيلا للصلح على يد النمسا التى أرادت انتهاز هـذه الفرصة لاستعادة أملاكها التى سلبها نابليون فاشترطت أن يكون ردّ تلك الأملاك ثمنا لتدخلها لاعادة السلام . غير أن نابليون لم يقبل أن ينزل عن شبر واحد من الأرض لأنه ـ كما قال ـ "ليس كملوك أوربة، فهؤلاء ولدوا من بيوت فيها الملك منذ قرون، فلن تزعزع الهزيمة عروشهم، وأما هو فقد اعتلى العرش بطريق الانتصار" لذلك انضمت النمسا الى أعدائه بمقتضى معاهدة ريشنباخ (Reichenbach) التى أبرمت فى ٢٧ يونيه كما انضمت السويد، فتفوّق

الحلفاء تفوقا عدديا هائلا اضطر معه نابليون أن يقابل كلا من هذه الجيوش على انفراد، فانتصر بادئ الأمر على الجيوش النمساوية المتجمعة حول درسدن، إلا أن قواده أخفقوا فى باقى الميادين . وفى منتصف أكتوبر، أطبقت عليه جيوش أعدائه فى ليبزج، واضطرته الى التقهقر الى ما وراء الرين بعد أن كبدته خسائر فادحة .

الأمبراطورية تتداعى — حينئذ رأى نابليون ذلك البناء الشامخ الذى شاده على أسنة الحراب ينهار أمام عينيه ! فألمانيا وايطاليا أفاقتا كأنما من حلم مرعب، وطرحتا حكمه جانبا، وفتحتا بلادهما للغزاة المنتصرين. وهولندا أسرعت الى إعادة حكم بيت أورنج . ونابلى عقدت صلحا منفردا مع النمسا، وانجلترا (ولزلى) اقتنص الفرصة فى أسبانيا لسحق قوة الفرنسيين مرتين: الأولى فى سلامنكا عام ١٨١٢ وقد أعقبها دخوله مدريد ظافرا . والمرة الثانية فى فتوريا عام ١٨١٣ حين اضطر الفرنسيين الى التراجع وراء البرانس .

أما فرنسا نفسها التى طالما تعلقت بنابليون، فقد بدأت تقلب له ظهر المجن، وتعلن رغبتها فى السلام، إذ رأت أن رجلها العظيم الذى كان يستخدم مواهبه النادرة لمصلحة البلاد، بات يستخدم البلاد لارضاء كبريائه ومنافعه؛ ويرغمها على خوض غمار حروب لا مصلحة لها فيها . فقديما كانت ترغب فى الحرب، وتنشط لها طالما كان الغرض منها الوصول الى الحدود الطبيعية، وأما الآن، فقد رأت أن الغرض إرضاء مطامع الامبراطور فحسب. حقا أن نابليون كان يعمل دائما على أن يجعل « الحرب تسد نفقات الحرب » إلا أن هذا المبدأ لم يعد فى الامكان تحقيقه إزاء المطامع الواسعة . هذا الى أن اقفال البلاد فى وجه التجارة الانجليزية ، كان على عكس سياسة توفير الرخاء التى خبرتها البلاد ، وتمتعت بها فى أوائل حكمه ، فباتت تئن مما صارت اليه من الضنك والاعسار الشديد، وترغب فى تقلص نفوذ « نيرون » التاريخ الحديث .

إزاء هذه الحوادث، كان خيرا لنابليون أن يطأطئ الرأس أمام الحقائق الواقعة، فيرضى بما عرضه عليه الحلفاء فى فرنكفورت فى نوفمبر سنة ١٨١٣، بأن يبقى له ملك فرنسا بحدودها الطبيعية . ولكن الرجل الذى رقى العرش على أسنة الحراب، رفض الصلح تحت ظلال الهزيمة — بالرغم من أنه كان صلحا شريفا يرضاه الشعب الفرنسى — فدل بهذا الرفض على أن طبيعته العسكرية ثارت ضدّ مزاياه السياسية، فملكت قيادته وجردته من أرفع صفاته العقلية .

دخول باريس وخلع نابليون — أعلن الحلفاء حينئذ أنهم يحاربون نابليون لا الشعب الفرنسى، وزحفوا الى باريس بطريق المارن والسين والبرانس، وكان نابليون لا يزال يعتقد أن فرنسا تتحرك لنصرته اذا أصبح الوطن فى خطر، ولكن فرنسا تداعت أعصابها، وانحطت عزيمتها، فقاوم نابليون أعداءه بكل ما بقى لديه من قوة، لخلص شرفه العسكرى من العار، وارتاح بعدها الى الدخول فى مفاوضات الصلح مع خصومه فى شاتيون (Châtillon) "فبراير سنة ١٨١٤" إلا أن الحلفاء تشدّدوا الآن فى إرجاع فرنسا الى حدودها القديمة قبل الثورة .

حينئذ أعلن نابليون أنه يفضل أن يحتمل أقصى ويلات الحروب على أن يذعن لهذا الشرط المهين، فجمع الحلفاء شملهم وتعاهدوا من جديد فى شومنت (Chaumont) "مارس سنة ١٨١٤" على أن يواصلوا الحرب متكاتفين حتى يبلغوا مأربهم، وأن يبقى ذلك التحالف مدّة عشرين عاما لحماية السلام فى أوربة .

استأنف الحلفاء بعد ذلك الزحف الى باريس، فوقف نابليون ينازعهم الأرض شبرا شبرا، حتى نفذ القضاء، وسقطت باريس فى ٣١ مارس سنة ١٨١٤، بيد أن سقوطها لم يكن ليفل عزيمة لا تفل، اذ جمع نابليون قواده وجنده فى فونتينبلو (Fontainebleau) ودعاهم لمواصلة الجهاد، ولكنهم بسطوا أمامه ما وصلت اليه البلاد من الانحلال والضنك والملل، إذ أن فرنسا إذ ذاك لم تصبح تلك التى عرفها العالم يوم قرع العدوّ أبواب فردان غداة الثورة . فكتب الأمبراطور فى فونتينبلو

نزولا عن العرش لولده ملك رومة تحت وصاية زوجته مارى لويز . ولكن الحلفاء رفضوا ذلك الشرط ، فنزل نابليون عن العرش بلا قيد ، وفى أبريل سنة ١٨١٤ قر الرأى على أن يحتفظ بلقب أمبراطور ويمنح ملك جزيرة ألبا .

وأما عرش فرنسا فقد أعيد الى لويس الثامن عشر وارث عرش البربون بمساعى تاليران الذى ألف حكومة مؤقتة عقب سقوط نابليون ، على أن يكون الحكم دستوريا . وعلى يده أبرمت معاهدة باريس الأولى فى ٣٠ مايو سنة ١٨١٤ ، وبها أعيدت فرنسا الى الحدود التى كانت لها عام ١٧٩٢ تقريبا مع استرداد بعض مستعمراتها . وأما باقى الأراضى التى تخلت عنها فقد تقرر فى أمرها أن ترد هولندا لأسرة أورانج على أن تضم اليها البلجيك ، وأن تستقل الولايات الألمانية وترتبط باتحاد عام بينها ، وتستقل سويسرا فى ظل حكومة أهلية ، وتسترد الولايات الايطالية استقلالها القديم عدا ما يخصص منها للنمسا . أما باقى المسائل التى لم يبت فيها فقد تركت المناقشة فى أمرها الى مؤتمر يعقد خصيصا لذلك فى فيينا .

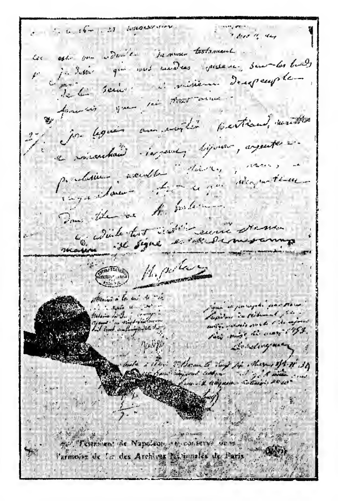
عودة نابليون ، بداية النهاية — لم يرض نابليون بمصيره إلا انتظارا لما تجيء به الفرص ، فلما علم بالنزاع القائم بين الحلفاء على توزيع الغنيمة ، وبسخط الشعب الفرنسى على الملكية الجديدة التى اقترنت عودتها بنكبات لم تعرفها البلاد منذ سنين عديدة ، كما اقترنت بسياسة الانتقام وإرضاء شهوات الأشراف المهاجرين ، وتبديد إرث الثورة وثمرة جهودها ، بادر بالهرب الى فرنسا حيث هرع اليه أنصاره وجنده القدماء ، فزحف الى باريس ، ودخلها بعد فرار الملك دون أن تسفك نقطة من الدماء (٢١ مارس ١٨١٥) .

حكم مائة اليوم وواترلو — كان أول ما اهتم به نابليون ، أن يجمع حوله القلوب ، وأن يقنع الدول برغبته فى السلام ، فأعلن قبوله لمعاهدة باريس ، وصرح بتأييده لمبادئ الثورة ، وأصدر دستورا جديدا سماه "القانون الاضافى" كان من شأنه أن يزيد فى إشراك الأمة معه فى الحكم ، إذ جعل الهيئة التشريعية مكونة من مجلسين

تكون الوزارة مسئولة أمامها ، كما أنه أطلق الحرية للصحافة والمطبوعات ، فقوبل حكمه بالترحيب فى فرنسا ، وإن كان الكثيرون قد قابلوا هذه المنح بالتردّد والفتور .

النضال الأخير — أما دول أوربة التى كانت حينئذ مجتمعة فى مؤتمر ڤيينا لرسم خريطة أوربة من جديد ، فقد عهدت نابليون لا يسلم بالهزيمة ولو فى أحرج الظروف وأشد المواقف ، ولذا أعلنت أن نابليون يعكر جو السلام فى العالم ، وأن من واجب الدول أن تتعاون مرة أخرى فى القضاء عليه قضاء مبرما ، فأسرع نابليون بتأليف جيش جديد قوى ، وسار به لملاقاة جيشى بروسيا وانجلترا اللذين احتشدا فى البلجيك قبل غيرهما استعدادا للقتال ، وكانت خطته أن يقضى على جيش كل منهما على انفراد ، فأفلح نابليون فى هزيمة بلوخر قائد الجيش البروسى عند ليني (Ligny) يوم ١٦ يونيه ثم تحول للحاق بجيوش ولنجتن المتقهقرة للاتصال بالبروسيين ، فنشبت حينئذ المعركة التاريخية الكبرى ، معركة واترلو (Waterloo) وفيها عملت الطبيعة على فشل نابغة الحروب ، إذ أمطرت السماء طويلا ليلة ١٨ يونيه حتى عجز نابليون عن نقل مدافعه الى المواقع الصالحة للقتال فى الوقت المناسب ، ورغما عن النجاح الذى صادفه فى أوّل المعركة ، فان ثبات ولنجتن الذى لقب من أجله بالدوق الحديدى ، أدار الدائرة على نابليون ، وزعزع كل آماله فى النصر ، واذا كان قد بقى فى نفسه شيء من الثقة بالمستقبل ، فقد تلاشى حينما وصل بلوخر ، الذى أفلح فى تنظيم قواه المشتتة على عجل ، والتحوّل الى واترلو ، للقتال بجانب حلفائه فى الساعة الحاسمة ، فحمل الجيشان على نابليون حملة هائلة ، مزقت الخطوط الفرنسية ، وأوقعت فى صفوفها الرعب والجزع ، ففرّ نابليون من ميدان القتال على عجل ، ولما لم يجد عضدا ولا نصيرا فى باريس ، وألفى الانجليز يراقبون الشواطئ حتى لا يهرب ، نزل عن عرشه للمرة الثانية ، وكتب الى الحكومة الانجليزية يسلم نفسه لكرمها و رعايتها .

دخلت جنود الحلفاء باريس للمرة الثانية ، وفرضوا على فرنسا معاهدة باريس الثانية (٢٠ نوفمبر ١٨١٥) وبها تقرر أن تدفع غرامة حربية قدرها ٧٠٠ مليون فرنك



Testament de Napoléon, conservé dans l'armoire de fer des Archives Nationales de Paris

وصية نابليون بخطه وتوقيعه (٦ أبريل سنة ١٨٢١) وصى فيها بدفنه على ضفاف السين وسط الشعب الفرنسى الذى أحبه دائماً، وباعطاء مخلفاته بسنت هيلانه الى الجنرال برتران الذى تبعه الى المنفى .

[نقلا عن الصورة الأصلية المحفوظة بدار السجلات الرسمية بباريس]

وأن يحتلها الحلفاء لمدّة خمسة أعوام ، وأن تعود حدودها الى ما كانت عليه فى عام ١٧٩٠ وقد عارضت بروسيا فى شروط هذا الصلح ، وحاولت أن تكيل لفرنسا بالكيل الذى كالتها به فى تلسيت ، وأن تنزع منها الالزاس واللورين بحجة لزومهما للدفاع عن بلادها ، ولكن بعد نظر الحلفاء تفوّق فى آخر الأمر ، إذ كان لا بدّ من الاعتدال لتثبيت قدم الملكية العائدة ، وتسكين أعصاب الفرنسيين حتى لا تثور للانتقام .

نابليون فى المنفى — أما نابليون فقد نفى الى جزيرة سنت هيلانه وبقى سجينا بها حتى فاضت روحه فى ٥ مايو سنة ١٨٢١ ، وظل مدفونا بها حتى سنة ١٨٤٠ حين نقلت رفاته الى قبة الأنفاليد بباريس . ولقد كانت حياته فى المنفى على تمام البساطة والهدوء ، لا يعكرها إلا ذكريات الماضى وغلظة حاكم الجزيرة له . ولم يحاول بتاتا أن يفر الى فرنسا كما فعل فى ألبا ، ولكنه شرع يهيئ الطريق لعودة أسرته الى العرش ، تارة بالأحاديث وطورا بالمذكرات ، اعتقادا منه بأن الملكية العائدة لا تلبث أن تبسط نظام العهد القديم وتعيد مساوئه ، فتتطلع البلاد الى عودة أسرته التى نجت على يديها من الفوضى والمظالم ، وتمتعت فى ظلها طويلا بالسعادة والرخاء ، ولبست ثوبا قشيبا من المجد والفخار ، فجعل يصوّر تاريخه صورة رجل كان يعمل للحرية والسلام . ومما قاله فى هذا الشأن : " إن حالتنا الحاضرة لا تخلو من المزايا ، فنحن شهداء مبادئ خالدة ، يبكى حظنا الملايين من الخلق ويتأوه الوطن لمصابنا ... ولو كنت مت وأنا فى أوج عظمتى ، لبقيت الى الأبد لغزا لا يحل . وأما اليوم ، وأنا متجرّد من سلطانى ، فيمكن للناس أن يروا حقيقتى " . وأخذ يبسط هذه الحقيقة كما كان يراها هو ، لا كما يراها التاريخ ، فكانت من أكبر العوامل الفعالة فى ارتقاء ابن أخيه لويس نابليون على العرش فيما بعد .

نابليون فى نظر التاريخ — لم يختلف المؤرخون فى رجل كاختلافهم فى نابليون ، فمنهم من يرى فيه شبيها بفرسان العصور الوسطى الذين كانوا يشنون الغارات والحروب للسلب والنهب ، ومنهم من يرى فيه المثل الأعلى لصفات الأمة

الفرنسية . والواقع أنه يكاد لا يعرف التاريخ رجلا سواه جمع بين أرفع الصفات وأحطها ، فهو شخصية قائمة بذاتها ، منقطعة النظير ومستقلة عما عداها ، « كتلة من الصخر الصلد ، أرسلت الى العالم فلا تخضع لشيء من نواميس الطبيعة » !

نبغ نابليون فى فنون القتال وتعبئة الجيوش ، ووضع الخطط الحربية وتنفيذها بالدقة والإحكام نبوغا ما عرفه العالم من قبل ، وأقام على أنقاض الفوضى التى كانت تسود فرنسا قبيل ظهوره والخلل الذى كان يفت فى عضد حكومتها أجيالا طويلة حكومة تعدّ آية فى نظامها ، ودقة أعمالها ، ولا يزال الكثير مما أدخله من الاصلاحات قائما فى فرنسا الى اليوم . وأما خدماته للعلم والمدنية فكثيرة جليلة عديمة المثيل ، وسيظل قانونه (Code Napolèon) علما ينطق بفضله ويشيد بذكره أبد الدهر ، ومهما يقل عن فتوحاته فلا ريب أنها عجلت تأسيس الوحدة القومية فى إيطاليا وألمانيا بعد أن بقيتا مقطعتى الأوصال قرونا طويلة ، إلا أن تلك الفتوحات أدّت الى سقوطه وضياع ملكه ، فقد كان الرين والألب والبرانس كما قال تاليران (Talleyrand) فتوح الأمة الفرنسية ، وما عداها فتوح نابليون ، ويعنى بهذا أن فرنسا كانت تشعر بضرورة القيام بتلك الفتوحات وحدها ، ولا تطمع فى سواها ، إذ لم تكن ترتجى ثمرة من ورائها . ولعل نابليون أدرك ذلك بجعل الأمم الخاضعة له تدفع نفقات الأمبراطورية دون الفرنسيين بقدر المستطاع ، وطفق يقطع قوّاده اقطاعات فسيحة مكافأة لهم على إخلاصهم فى خدمته ، وصار يلقن الفرنسيين بواسطة المدارس والتعليم حب الأمبراطورية ووجوب الاحتفاظ بها والتغنى بمجدها ومفاخرها ، إلا أنه على الرغم من كل هذا كانت فرنسا تشعر بأن الأمبراطورية حمل ثقيل لا يحتمل لا سيما وقد كانت الممالك التى تضمها الأمبراطورية مسلوبة الارادة والسلطة ، عليها الغرم ولغيرها الغنم ، فلم يلبث أن سقط ذلك البناء الشامخ من أساسه حينما هبت عليه العاصفة . ولو كان نابليون اتخذ سياسة تحاكى سياسة الأمبراطورية البريطانية الحاضرة — أى سياسة توزيع السلطة بين الحكومة الرئيسية وحكومات الأجزاء المختلفة المكوّنة لها ، وقسم الحقوق

والواجبات بينهما، بدلا من حكمها من مركز واحد على مثال الدولة الرومانية — لتماسكت تلك الأجزاء فى وقت الشدّة .

وبالجملة لولا طمع نابليون الذى لم يقف عند حدّ ، وغرامه الجنونى بالسيادة والسيطرة على العالم ، لما عرف التاريخ رجلا أبقى منه أثرا فى خدمة المدنية والحضارة .

المصادر

عن الثورة الفرنسية — التاريخ السياسى للثورة للأستاذ أولار (Aulard) و " الثورة " تأليف لويس مادلين (Louis Madlein) ، ومحاضرات اللورد اكتون (Lord Acton) عن الثورة الفرنسية وكتاب هولندروز (Holland Rose) عن فرنسا فى عهد الثورة ونابليون . وكتاب ماريوت (Marriott) عن أوربة من ١٧٨٩ الى ١٨٧٨ — والثورة الفرنسية لكارليل (Carlyle) .

عن نابليون — نابليون الأوّل تأليف فورنيه (Fournier) . ونابليون — والفصل الأخير تأليف روزبرى (Roseberry) والتاريخ العام تأليف لافيس ورامبو (Lavisse et Rambaud) ومذكرات نابليون بسنت هيلانه (Las Cases) .

الباب الثانى

عهد المؤتمرات

الفصل الأول

مؤتمر فيينا

قواعد التسوية — يعتبر مؤتمر فيينا أكبر المؤتمرات أهمية بعد مؤتمر وستفاليا، فكما أن هذا المؤتمر الأخير نظم شؤون أوربا بعد حرب دولية طاحنة هى حرب الثلاثين سنة فكذلك سوى مؤتمر فيينا حساب أوربا بعد الحروب التى قامت فى عهد الثورة ونابليون . وإنه لمن الخطأ الاعتقاد أن التسوية اختلفت كثيرا فى الحالتين ، فعلى الرغم من ارتفاع الأصوات فى أوربا التى خضبت أرضها بالدماء مدة ربع قرن كامل ، بأن تكون التسوية المقبلة على قاعدة احترام الحقوق القومية ومبادئ الحرية التى أيقظتها الثورة وحروبها ، فان الساسة أغفلوا هذه الاعتبارات لاجهلا بها، ولكن برا بعهود ارتبطوا بها إبان الكفاح ضد نابليون، وكان لا مناص من تنفيذها، غير أنهم حاولوا أن يكسبوا عملهم مظهرا خداعا، فأطلقوا عليها اسم خطة ارجاع الحقوق الشرعية الى أصحابها على أنهم لم يتبعوا تلك القاعدة نفسها كلما تصادمت مع مطامعهم أو تعارضت مع مواثيقهم ، فكأنهم لم يخرجوا فى عملهم عما عرفه العالم من قبل وهو اقتسام الغنيمة بين الظافرين .

أعمال المؤتمر — ولقد اجتمع المؤتمر تنفيذا لشروط معاهدة باريس الأولى التى نصت على اجتماع ساسة أوربا فى فيينا لتحقيق غرضين معينين وهما

توزيع البلاد التى لم يبت فى أمرها فى تلك المعاهدة ألا وهى أراضى الرين الألمانية و بعض الأراضى الايطالية، وكذلك إعادة تنظيم الولايات التى أنشأها نابليون وهى ولايات اتحاد الرين ودوقية فرسوفيا . وقد كانت الخطة المقترحة للعمل أن يجتمع مفوّضو الدول الأربع الكبرى اجتماعات سرّية للفصل فى هذه الشؤون ثم يبلغ ممثلو الدول الأخرى أمر الاتفاقات النهائية، وذلك بغير أن تدعى فرنسا الى الاشتراك فى الأعمال مطلقا ، إلا أن الحلفاء راعوا جانب الملكية الفرنسية الجديدة التى كانت تحتاج الى شئ كبير من عناية الدول وعطفها حتى تلقى احتراما وتأييدا من جانب الشعب الفرنسى، خصوصا وقد أعلن الحلفاء مرارا أنهم كانوا يحاربون نابليون لا الشعب الفرنسى ، ولذلك دعيت فرنسا الى حضور المؤتمر بغير أن تشترك فى المفاوضات السرية شأنها فى ذلك شأن الدول الصغرى .

غير أنه على الرغم من أن فرنسا دخلت المؤتمر تكريما لها وتأييدا لمليكها فقط، فان مندوبها تاليران لم يلبث أن استطاع بمهارته النادرة أن يشترك فى مباحثات الدول العظمى ؛ اذ أعلن من بداية الأمر أن فرنسا لاتطمع فى شئ ما مطلقا وكل ماترغبه هو الدفاع عن القانون وحماية الحقوق الشرعية ، فضمن بذلك التفاف الدول الصغرى حوله كما ضمن إشراكه فى مفاوضات الدول اشتراكا أدّى الى تمزيق وحدتهم حينما حانت الفرصة .

الخلاف بين الحلفاء — ذلك أنه بينما كانت الدول الأربع متفقة على معظم الشؤون المقرر مناقشتها فى فيينا ، ظهر اختلاف وجهات النظر بينها فى شأن بولندا وسكسونيا . فبينما كان قيصر الروسيا يرغب فى الاستيلاء على دوقية وارسو بأكملها أى نصيب بروسيا فى تقسيمات بولندا الماضية ، كانت بروسيا ترغب فى تعويض أملاكها البولندية بالاستيلاء على مقاطعة سكسونيا عقابا لمليكها على اتصاله بنابليون ومعاونته له . غير أن النمسا وانجلترا عارضتا فى قبول هذه الرغبات : فانجلترا كانت تخشى أن يؤدّى امتداد نفوذ القيصر الى الفستولا الى الاخلال

بالتوازن الدولى فى أوربا، كما أن النمسا رأت فى مطالع بروسيا إخلالا بالتوازن فى ألمانيا، وخطرا دائما يهدد أملاكها فى بوهيميا . لذلك وقفت بروسيا والروسيا فى جانب والنمسا وانجلترا فى الجانب الآخر، فأصبحت قوات الفريقين متعادلة بحيث لو انضمت فرنسا الى فريق دون الآخر رجحت الكفة . ولما كان المبدأ الذى نادى به تاليران من أول الأمر هو تأييد مبدأ الحقوق الشرعية، فقد عارض فى اغتصاب أملاك سكسونيا، وأعلن تأييده لمطالب النمسا وانجلترا فى هذا الشأن فعملت الدولتان على إدخال المندوب الفرنسى فى مفاوضات الحلفاء السرية، وما لبثا بعد ان أعياهما حسم النزاع أن تعاقدا معه فى ٣ يناير ١٨١٥ على العمل بكل الوسائل لإجبار الروسيا وحليفتها على الإذعان لمطالب الحلفاء .

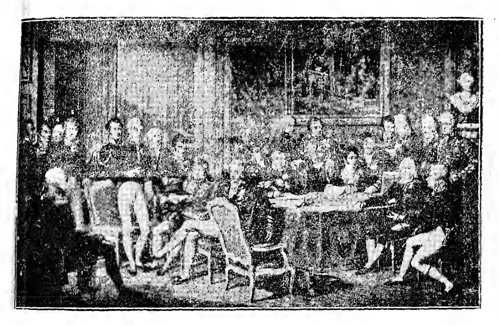
التســوية — على أن روح الاعتدال تغلبت فى النهاية، خصوصا حينما جاءت الأنباء بتدبير مؤامرات ترمى الى إعادة ملك نابليون، فسوى الخلاف بأن ضم إقليم بوزن وميناء دانتزيج الى بروسيا، وأعطيت غاليسيا للنمسا، وجعلت كراكو جمهورية مستقلة، ووضع ما بقى من بولندا القديمة تحت حكم القيصر على أن يحكمها حكم دستوريا . وأما فى ألمانيا فقد استولت النمسا على التيرول وسالزبرج من بافاريا، فى نظير إعطائها بايريت وانسباخ وبلاتينات الرين، وظفرت بروسيا بثلثى سكسونيا ومعظم الأراضى الواقعة على الشاطئ الغربى لنهر الرين فضلا عن وستفاليا على شاطئ الرين الأيمن، وتريف وغيرها من الأراضى التى انتزعت من فرنسا على الشاطئ الأيسر، وبذلك أصبح واجب الدفاع عن ألمانيا من الغرب مناطا ببروسيا بعد أن انسحبت النمسا من البلجيك وبلاد الرين وحوّلت نظرها شطر ايطاليا .

ومع أن هذه التسوية لم تؤثر فى تحسين العلاقات بين الحلفاء، ودرء التصدع الذى حدث فى كتلة التحالف الأوربى ضد فرنسا، فان عودة نابليون من ألبا حطمت هذا المجهود العظيم الذى بذله تاليران، وأعاد التضامن وحسن التفاهم بين الدول ثانية حتى استطاعت حل باقى المسائل المعلقة حلا سريعا وهى مسألة إنشاء اتحاد يشمل

ألمانيا بأكملها بدلا من اتحاد الرين، وكذلك تسوية باقى الأراضى الايطالية التى لم تتضمنها معاهدة باريس الأولى .

أما عن الاتحاد الألمانى فيلاحظ أنه ظهرت فى ألمانيا أثناء الجهاد ضد نابليون رغبة قومية وجهتها إقامة حكومة ألمانية متحدة، تدفع عن الأقاليم المكونة لها شر جيرانها وتتولى تنظيم مصالحها ، على مثال مافعله نابليون فى اتحاد الرين، إلا أن الأمراء الألمان آثروا المحافظة على استقلالهم، كما أن النمسا وبروسيا تنازعتا الزعامة، فلم يفز الألمان فى آخر الأمر بأكثر من اتحاد أسمى لا قيمة له فى الواقع

مؤتمر فيينا



(١٩) جنتز
(٢٠) همبولت (ألمانيا)
(٢١) كاثكرت (انجلترا)
(٢٢) تاليران (فرنسا)
(٢٣) ستاكالبرج (روسيا)

(١٣) ويسنبرج (النمسا)
(١٤) راسومفسكى (روسيا)
(١٥) ستيوارت (انجلترا)
(١٦) لبرادور (اسبانيا)
(١٧) كلانكرتى (انجلترا)
(١٨) واكن

(٧) مترنيخ (النمسا)
(٨) ديبن (فرنسا)
(٩) نسلرود (روسيا)
(١٠) بالملا (البرتقال)
(١١) كاسلريه (انجلترا)
(١٢) دالبرج (فرنسا)

(١) هارندنبرج
(٢) ولنجتون
(٣) لوبو
(٤) سالدانا
(٥) لوينهيلم
(٦) نووى

لأنه سلب من المجمع الذى أنشئ يمثل الإمارات كل قوة تنفيذية، وقيدت سلطته بقيود ثقيلة جعلت تلك السلطة وهمية .

أما فيما يتعلق بالأراضى الايطاليــة فقد كانت المشكلة التى تواجه الدول ترتبط بمملكة نابلى التى كان يحكمها ميرا قائد نابليون بتأييــد النمسا ، وذلك مقابل تخليــه عن مناصرة فرنسا إبان النزاع الأخير . غير أن الدول وخاصــة فرنسا آثرت القضاء على كافة الآثار النابليونية فقررت فيما بينها عزل ميرا و إعادة المملكة الى أسرة البوربون .

هذه هى أهم المسائل التى تم الاتفاق عليها فى فيينا ، وقد ضمنت جميعا فى معاهدة نهائية أطلق عليها « العقد الأخير Acte Final » ٩ يونيــه ١٨١٥ ودعيت الدول الصغرى فى النهاية الى الموافقة عليها فقط ، بحيث يمكن أن يقال أن مؤتمر فيينا لم ينعقــد مطلقا بمعنى أن الدول المشــتركة لم تجتمع فى جلسات عامة للبحث والتشاور فى المسائل المطروحة أمامها .

حالة أوربا ســـنة ١٨١٥ — وتتضمن معاهــدة باريس الأولى ومعاهدات فيينا المتممة لها وكذلك معاهدة باريس الثانيــة التصفية النهائية لحروب الثورة بحيث أصبحت أوربا عام ١٨١٥ تقوم على القواعد الآتية :

(١) أعيدت فرنسا الى ما كانت عليه حدودها قبل الثورة اذا استثنينا أفنيون التى ضمت اليها و بعض البلاد التى اجتزئت منها فى الشمال والشمال الشرقى .

(٢) حصلت انجلترا بفضــل سيادتها البحرية على مالطة وجزائر الأيونيـان فى البحر الأبيض ، وغيانا وطباجو وترنيتى فى أمريكا ، ومستعمرة الرأس فى أفريقيا وسيلان فى آســيا وجزيرة فرنسا فى المحيط الهنــدى وكلها أخذت من فرنسا او من حليفتها هولندا واسبانيا .

(٣) ظفرت بروسيا باقليم " بوزن ودانتزيج فى بولنــدا " ، كما ظفرت بثلثى سكسونيا فضلا عن وستفاليا على شاطئ الرين الأيمن ، وتريف وغيرها من الأراضى التى انتزعت من فرنسا على الشاطئ الأيسر ، و بذلك أصبح واجب الدفاع عن ألمــانيا

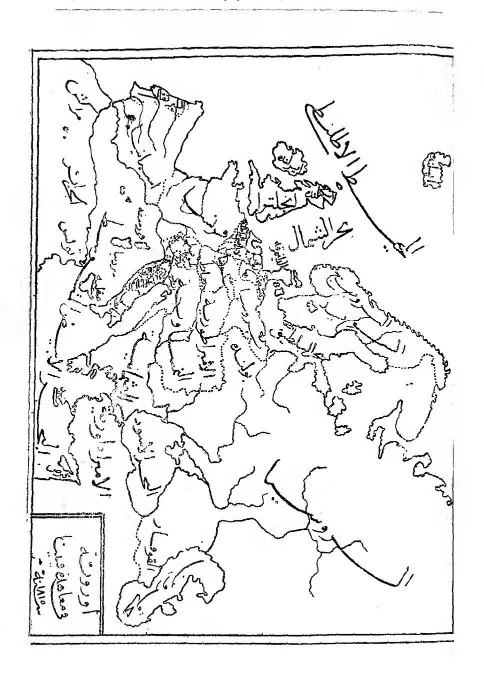
من الغرب مناطا ببروسيا خصوصا بعد أن انسحبت النمسا من البلجيك وحوّلت نظرها شطر إيطاليا .

(٤) حصلت النمسا فى ألمانيا على سالزبرج وفى إيطاليا على لمبارديا والبندقية فضلا عن دلماشيا وراجوس، ولكنها فقدت البلجيك وتخلت عن أملاك أخرى لبافاريا . وقد كان احتلال النمسا للمبارديا والبندقية عاملا ممهدا لسيطرتها على إيطاليا بأكملها وتحقيق حلم الامبراطرة القديم فى التسلط على هذه البلاد .

(٥) حصلت الروسيا على فنلندا السويدية فى البلطيق كما حصلت على بسارابيا العثمانية الواقعة على الطونة ودوقية وارسو البولندية على أن تبقى حكومة مستقلة تحت إشراف القيصر .

(٦) أحيطت فرنسا بسلسلة من الولايات الصغيرة لتحقيق عزلتها وضمان احتفاظها بالسلم، وكان هذا الحائل الدولى يتألف من مملكة الأراضى الواطئة التى تكوّنت من البلجيك وهولندا، واتحاد سويسرا الذى تألف من اثنتى عشرة ولاية تضمن الدول حيادها ، ومملكة سردينيا التى اشتملت على سافوى ونيس وبيدمنت فضلا عن جنوة وملحقاتها .

(٧) احتفظت ألمانيا بأكثر الممالك التى أنشأها نابليون وهى مملكة بافاريا — وقد أضيفت اليها لاندووسبير — ومملكة ورتمبرج ومملكة سكسونيا التى اجتزئ ثلثاها لمصلحة بروسيا . هذا فضلا عن إحياء مملكة هانوفر التى كانت تتبع ملوك انجلترا . وفيما عدا هذه الولاية لم ترد أية إمارة من الإمارات التى قضى عليها نابليون وأدمجها فى غيرها الى حالتها الأولى، بحيث أصبح عدد الولايات الألمانية ٣٨ بعد أن بلغت نحو أربعمائة . وقد تقرّر إنشاء اتحاد من هذه الولايات لضمان الطمأنينة والسلم فى داخل البلاد وخارجها، ولكنه كان اتحادا اسميا لاقيمة له فى الحقيقة إذ كان فى الواقع عبارة عن مؤتمر من دول مستقلة لاجمعية تمثل الشعب، وتعتمد على هيئة تنفيذية تتولى تنفيذ قراراته .


أوروبة
ومعاهدات
سنة ١٨١٥
بحر الشمال
انجلترا

(٨) تقرر فيما يختص بايطاليا أن يسترد البابا أملاك الكنيسة، وتسترد أسرة البور بون أملاكها فى إيطاليا بعد أن طرد منها ميرا قائد نابليون، وكذلك ترد باقى الولايات الايطالية الى أمرائها عدا ما خصص منها للنمسا و بيدمنت .

(٩) أعيدت شبه جزيرة ايبيريا الى ما كانت عليه قبل الثورة بمعنى أن اسبانيا والبرتغال عادتا الى ملوكهما الأقدمين فى حين أن مملكة النرويج انتزعت من الدانيمارك وضمت الى السويد فأصبحت شبه جزيرة أسكندناوه مملكة متحدة تحت حكم برنادوت .

نقد التسوية العامة — تلك هى السياسة التى اتبعها الحلفاء لتسوية حساب أوربا بعد زوال حكم نابليون . ويلاحظ أنه لم يراع فيما وضعوه من القرارات احترام مبدأ الحقوق الشرعية أو احترام مبدأ القومية الذى أثارته حروب نابليون بل جعلوا توازن الدول ومطامعها وحدها أساس التسوية فلا عجب اذا تزعزعت قواعد السلم المرجى ، وهدم البناء الشامخ الذى شيد حجرا بعد حجر إبان القرن التالى .

على أننا يجب ألا ننسى مع كل هذا أن الدول كانت ارتبطت إبان الحرب بعهود لم تربدا من الوفاء بها ، خوفا من اشتباكها فى حرب جديدة فى وقت ما كان أحوجها فيه الى السلم . كما يجب ألا ننسى أن الحرية فى فرنسا ولدت الغزوات والحروب ، واقترنت بالجرائم وسفك الدماء فكان اضطهادها أمرا لا بد منه فى نظر الذين نصبوا أنفسهم لاعادة السلام الى أوربا . ولا يغيب عن البال أيضا أن حركة الحرية فى ذلك الحين لم تكن قد بلغت درجة من القوة تستدعى الاهتمام والمراعاة ، واذا كان رجال مؤتمر فرساى فى سنة ١٩١٩ قد داسوا تلك الاعتبارات واستهانوا بها ، فلا عجب اذا أغفلها رجال السياسة الذين جلسوا فى موضعهم منذ نيف ومائة عام .

الفصل الثانى

الاتحاد الأوربى وعهد المؤتمرات

نشأة الاتحاد الأوربى — كما أن الثورة الفرنسية وجهت دعوة الحرية والإخاء والمساواة بين الأفراد، فكذلك وجهت دعوة المودّة والصداقة بين الدول حتى تقضى على آثار الحروب وتنتشر ألوية السـلام والطمأنينة فى العـالم أجمع . ولمـا عصفت بأوربا ريح الحروب القائمة حول مطامع نابليون وتأثرت مرافق الحيـاة بأكملها بأعباء النضال الفادح تعززت الرغبـة فى تحقيق تلك الأغراض، واتجهت الأنظار الى إنشاء عصـبة دولية تتولى تنظيم علاقات الشـعوب المختلفـة كما تتولى الحكومات الخاصة تنظيم علاقات الأفراد .

على أن هذه الفكرة لم تكن وليدة عهدها بل كانت دائمـا وليدة الحوادث والمنازعات التى عصفت بالعالم الأوربى، ففى حرب الثلاثين سنة شاهد جرتيوس — مؤسس القانون الدولى الحديث — الانسانية متجرّدة عن كل صفاتها فنادى بالتحكيم وتنظيم شؤون الحرب — اذا دعت الحال — على مبادئ يعترف بها العالم أجمع . ولمـا قامت الحروب الدينيـة الطويلة فى أوربا وضـع هنرى الرابع ملك فرنسا مشروعه الأعظم (Grand Design) الذى كان يتضمن انشـاء جمعية دوليـة تتولى حسم المنازعات وتأمين العـالم من مخاوف الحروب الدموية التى طالمـا زعزعت أركان الحيـاة فى أوربا، على أن مقتل هنرى الرابع طوى هـذا المشروع الى أن نشبت حروب لويس الرابع عشر، فأذاع برنارد سان بيير مشروع السلم الدائم ومؤدّاه اتخاذ صلح يوترخت الذى ختم حروب القرن السابع عشر قاعدة نهائيـة لرسم الحدود بين الممالك المختلفة مع إنشاء اتحاد دولى للفصل فيما قد ينشأ بينها من المنازعات . غير أن هـذه الأصوات الداعية للسـلام خفتت وسط الضجة القائمة على الفتح والاستعمار

فى القرن الثامن عشر، حتى اذا قامت حروب نابليون وتعرّضت أوربا لأشد النكبات والكوارث تطلع العالم الى تأليف حلف أوربى تصان به الحياة والأموال ويستتب به الهدوء والسلام .

على أن الروح التى سادت فى مؤتمر ڤيينا لم تكن — كما رأينا — روح التفاهم والتعاون بين الدول للمصلحة العامة أو روح العمل لتعويض الانسانية عن آلامها المفجعة واتخاذ الوسائل التى تكفل درء المخاطر عنها فى المستقبل ، بل كانت الروح التى تملى قرارات المؤتمر تنصرف الى إعادة الحقوق الشرعية لأصحابها بقدر المستطاع مع وضع اتفاقيات قليلة الأهمية للاحتفاظ بالتوازن والسلم فى أوربا . أما المسألة الكبرى الشاغلة للأذهان وهى مسألة السلم الدائم فى أوربا وإنشاء اتحاد للتحكيم بين الدول لمنع أسباب الحرب فلم تلق إلا نجاحا يسيرا كما يتضح من دراسة المشروعات التى وضعت لتحقيق هذه الأغراض مما يدل على أن أوربا فى عام ١٨١٥ كانت لا تزال تتشبث بالمصالح الخاصة وتتنازع فيما بينها نزاعا أفضى فى النهاية الى فشل كل هذه الآمال .

المحالفة المقدّسة — ويعزى أوّل مشروع ظهر لتدعيم السلم الأوربى الى الاسكندر قيصر الروسيا الذى عرف بنزعاته السامية وعواطفه الكريمة ، كما عرف بالتردّد وعدم الثبات على المبدأ ، ففى فاتحة حياته السياسية أظهر الاسكندر ميلا قويا الى الأخذ بالمبادئ الحرة فى بلاده وغيرها ، كما أيد مشروع الاتحاد الأوربى لأنه يمتزج بفكرة السلم المرجى فى داخل البلاد وخارجها . فما كاد يتم وضع قرارات الصلح فى ڤيينا حتى اقترح الاسكندر فى سبتمبر سنة ١٨١٥ تأليف حلف مقدّس غايته التعاقد على الحكم وفق تعاليم الدين المسيحى والتعامل بين الملوك كاخوة يتبادلون المشورة والمعونة حتى يمتنع التضارب والمنازعات التى تفضى الى الحروب وما يقترن بها من الخراب والدمار .

على أن هـذا المشروع لم يلق التأييد الكافى من باقى الدول لأنه تضمن فكرة غامضة لا تصلح لتنظيم العلاقات الدولية من جهة ، ولأن النص على تبادل المشورة

والمعونة من جهة أخرى كان من شأنه أن يثير مخاوف الدول فى أمر تقييـد حريتها وتصرفها ، ولذلك أبت انجلترا إمضاء هذه المحالفة التى اعتبرتها على حدّ تعبير وزيرها «كاسلريه» قطعة من التصوّف واللغو لاقيمة لها . أما «مترنيخ» وزير النمسا فقد أمضاها على اعتبار أنها مظاهرة جوفاء لا طائل تحتها ، ولهذا قتلت الفكرة فى مهدها ومن غير أن تعطى أية فرصة لتنفيذها ، وكل ما تركته من الأثر أن اعتقدت الأمم أن الملوك قد تحالفوا ضدّها فى حين أن المحالفة المقدسة ، كما قال مترنيخ فى مذكراته لم تتضمن القضاء على حرية الشعوب ولا تأييد الاستبداد والحكم المطلق ، إنما كانت تتضمن محاولة من قبل القيصر فى تطبيق المبادئ المسيحية على تصرفات الدول السياسية .

المحالفة الرباعية — على أنه اذا كان مشروع القيصر قد تحطم لأنه تضمن مبادئ غامضـة وغير محدودة ، فكذلك تحطم النظام الذى وضـعته الدول الأربع الكبرى وعرف فيما بعد باسم نظام مترنيخ (Metternich System) لأنه تحوّل من الأغراض المعينة التى حدّدت له بادئ الأمر الى أغراض عامة كان من شأنها تقييد حرية الدول فى سياستها العامة وتهدّدها بالتدخل فى شؤونها الخاصة . ويرجع هذا النظام الى أن الدول أرادت اتخاذ الوسائل التى تكفل الدفاع عن التسوية التى تمت فى باريس وفيينا من الأخطار التى كانت تهدّدها لا سيما من جانب فرنسا التى كانت لا تزال تضطرب بآثار الحروب والتقاليد النابليونية ، وذلك بأن تعاقدت فى نوفمبر سنة ١٨١٥ على العمل معا لتنفيذ مواد الصلح وضمان السلم وتوثيق عرى الصداقة بين الدول الأربع المتعاقدة وهى بروسيا والنمسا وانجلترا والروسيا بأن يجتمع مندوبون عنها من وقت لآخر لاتخاذ الوسائل التى تضمن استقرار السلم وسعادة الشعوب . وهذا معناه أن الدول لم تتعاقد على الاحتفاظ بالسلم ضدّ فرنسا وحدها بل تعاقدت على الوقوف موقف الهيمنة على شؤون أوربا كلها . وهذا ما جعل الاتحاد من بداية الأمر مهدّدا بالانحلال ، شأنه فى ذلك شأن المحالفة المقدّسة ، طالما كانت أغراضه عامة وغير محدودة بحيث توجب التنافس والانقسام بين الدول . وقد تبين فعلا

اختلاف وجهات النظر بين الدول فى أغراض الاتحاد فى المؤتمرات التى عقدت للنظر فى بعض المشاكل التى كانت تهم العالم الأوربى تطبيقا للمبادئ التى احتواها برنامج الاتحاد .

مؤتمر اكس لاشابل — ففى عام ١٨١٨ عقد مؤتمر فى اكس لاشابل للبحث فى عدة أمور : أهمها سحب جيوش الاحتلال من فرنسا والنظر فى قبولها ضمن العصبة الأوربية بعد أن أوفت بتعهداتها المالية وأظهرت رغبتها فى الاحتفاظ بالسلم واحترام المعاهدات . وقد وافقت الدول فعلا على سحب الجيوش من فرنسا ، وأما قبولها ضمن العصبة الأوربية فقد أدّى الى اختلاف فى الرأى . ذلك أن الروسيا أعلنت أن مجرّد انضمام فرنسا الى الاتحاد القديم يناقض نصوصه الصريحة فيما يختص بتأمين أوربا ضدّها قبل كل شئ ، وأن من الواجب أن يوضع أساس جديد لعصبة أوربية عامة تشترك فيها كافة الدول الكبرى والصغرى منها ، وتكون مهمتها مكافحة خطرين عظيمين يهدّدان السلام وهما الثورات والتطرف فى الحكم المطلق ، وكذلك المحالفات المنفردة التى تؤدّى الى هدم العصبة . وهذا يدل على أن القيصر اشتدّت هواجسه من أثر الانقلابات العنيفة التى نشأت فى أوربا فى ذلك العهد سواء من جانب الأحرار أم من جانب الرجعيين ، فدعا الدول الى التعاون لمعالجة الحالة حتى يستقر السلام و يضمن الملوك عروشهم التى أقرّتها المعاهدات .

ومع أن النمسا كانت لا تعارض فى إقامة دكتاتورية أوربية لمناهضة الحركات القومية على الاطلاق ، فانها رأت أن اتجاه العصبة الى محاربة الحكم المطلق قد يجعل الاتحاد الأوربى خطرا عليها ، ولذلك رفضت قبول هذه الدعوة ، شأنها فى ذلك شأن انجلترا التى أبت بلسان «كاسلريه» أن تشترك فى عصبة قابلة لاحتمالات وتفسيرات لا حدّ لها ، عصبة تقيد حريتها فى العمل وتنذر بالتدخل فى شؤون الدول . ولذلك اقترحت تجديد المحالفة الرباعية وقبول فرنسا ضمن أعضائها على ما فى ذلك من التناقض مع أغراض المحالفة . وقد حسم الخلاف أخيرا بتجديد التحالف القديم ضدّ فرنسا من

جهة ، ومن جهة أخرى دعيت فرنسا الى الاشتراك مع الدول فى ضمان السلم على أساس المعاهدات ، واشترط ألا ينظر فى شؤون أمة بغير اعلانها وحضور ممثليها . وهذا معناه فى الحقيقة أن الدول تخلصت من أزمة عظمى بالاتفاق على صيغة غامضة يصح أن تفسر تفسيرات عديدة طبقا لمصالحها الخاصة كما صرح جنتز عن أعمال هذا المؤتمر .

سياســـة مترنيخ (Mettrenich System) — على أن الحوادث نفسها لم تلبث أن ساعدت على تبديد هذا الغموض والابهام ، فان اضطراب الدول فى ذلك العهد بالثورات القومية سواء أكان فى فرنسا واسبانيا أم فى ألمانيا وايطاليا جعل مترنيخ وزير النمسا يخشى أن يمتد لهيبها الى امبراطوريتها القائمـة على الحكم المطلق فعمل على اتخاذ العصبة الأوربية وسيلة لإخضاع الأمم وإخماد كل نزعة فيها الى التمرد والعصيان . وممـا ساعد مترنيخ على تنفيذ هــذه السياسة أن الاسكندر قد أثيرت مخاوفه أيضـا من جراء الاضطرابات العنيفة التى ظهرت فى أكثر الدول الأوربية وفى الروسيا نفسها ، فتخلى عن مبادئ الحرية التى تشيع لها فى أوائل حياته وانضم الى وزير النمسا فى الحملة التى أعدّها لاخماد صوت الحرية فى كل مكان .

مؤتمرا ترباو وليباخ (١٨٢٠ — ١٨٢١) — وقد كانت فاتحة المسائل التى اتخذها مترنيخ وسيلة لتنفيذ سياسته مسألة نابلى التى نشبت فيها ثورة واسعة النطاق بتأييد الجمعيات السرية المعروفة بالكاربونارى بحيث أرغم الملك فرديناند على أن يحكم بلاده حكما دستوريا . على أن هذا الانقلاب كان يؤثر فى مصالح النمسا ويدعوها الى التدخل لسببين : (أوّلا) لأن ولاياتها الايطالية تعرّضت لخطر الدعوة الثورية التى قامت فى الجنوب . (وثانيا) لأن النمسا تعاقدت مع ملك نابلى على أن تعاونه فى مقاومة أى انقلاب يؤدّى الى نقض المبادئ التى تسير عليها النمسا فى حكم ولاياتها الايطالية .

ومع أن الدول لا سيما انجلترا كانت لا تعارض بتاتا فى تدخل النمسا لقمع الثورة بصفتها الخاصة ، فان مترنيخ أصر على أن يفوّض من قبل الدول فى أمر هذا التدخل حتى يستند على نفوذها الأدبى والسياسى من جهة ، ويظفر من جهة أخرى بتقرير

مبدأ التدخل لمحاربة الثورات بصفة عامة . غير أن كاسلريه وزير انجلترا رفض بتاتا مبدأ التدخل الأوربى فى مثل هـذا الغرض الذى لا يمكن أن تنطبق عليه مبادئ العصبة وهى ضمان السلم والمعاهدات ، وذهب الى أنه ليس لأية دولة أن تتدخل فى الشؤون الداخلية لأية دولة أخرى إلا اذا كانت هناك معاهدات خاصة تبيح مثل هذا التدخل . غير أنه لمـا كانت الروسيا وبروسيا قد قبلتا وجهة النظر النمساوية وأصبح مما لا مناص منه اجتماع مؤتمر فى ترباو فقد صرح كاسلريه بأنه لا يمتنع عن حضـور الاجتماع بشرط عدم الاشـتراك فى المناقشات التى تدور فيه ، وقد انضمت فرنسا الى انجلترا فى سياستها ممـا كان يشـير الى انقسام أوربا الشرقية والغربية فى مبادئ السياسة العامة .

والواقع أنه ما كاد يجتمع المؤتمر فى الميعاد المعين (أكتوبر سنة ١٨٢٠) حتى أصدرت دول الشرق الثلاث قرارا بالتدخل لمحاربة الثورات جاء فيه :

" إن البلاد التى تتغير حكومتها على أثر قيام ثورة فيها تطرد من المجمع الأوربى وتبقى كذلك حتى تقدّم الضمانات الكافية عن عودة النظام فيها ، واذا نشأ عن هذا التغيير خطر يهدّد السـلام العام فان الدول تتخذ كافة الوسائل السـلمية والقهرية اذا اقتضى الحال لإرجاع الأمن الى نصابه وإعادة الأمم المنشقة الى دائرة العصبة".

وقد احتجت فرنسا على هذا القرار بشئ من التحفظ ، وأما كاسلريه فقد أعلن صراحة للمرة الثانية أن هذا المبدأ يمس استقلال الدول ويعرّضها لاغارة غيرها عليها ولا يمكن أن تقبـله انجلترا التى تستند حكومتها على ثورة ١٦٨٨ ولكن احتجاجه لم يأت بنتيجة ما ، وانفض المؤتمر على أن يجتمع فى ليباخ فى العام التالى للنظر فى شؤون نابلى اذا فشل توسط الدول توسطا سلميا لارجاع الحكم الى نصابه القديم .

ولمـا كان أهل نابلى قد أصروا على الاحتفاظ بحقوقهم المكتسبة التى لا يمكن أن تنقض بحال ، فقـد دعى فرديناند الى المؤتمر الذى تحـدّد لاتخاذ الوسـائل التى تضمن نفاذ مشيئة الدول ، على أن هذه الدعوة أثارت ثائرة الشعب وجعلته يرغم الملك

على أن يقسم باحترام الدستور قبل مغادرته البلاد، إلا أن فرديناند أعلن بعد خروجه من نابلى أنه فى حل من الارتباط بهـذا القسم الذى انتزع منـه بوسائل الضـغط والارهاب، ولم يلبث أن طلب الى النمسا فى المؤتمر إعادة الملكية المطلقة فى بلاده، فأجيب الى ما طلب وزحفت الجنود النمساوية الى نابلى ، وأعادت الحكم المطلق الى أشدّ ما عرف فيها من قبل .

مؤتمر فيرونا ١٨٢٢ — فى هذه الأثناء تفاقمت الثورة التى نشبت فى اسبانيا ومستعمراتها منذ عام ١٨٢٠ تفاقما استرعى أنظار الدول، ذلك أن الملك فرديناند السابع الذى أرغم على اعلان الدستور فى بلاده كان لاينفك عن تحريض الملكيين على قمع حركة أعدائهم ومنافسيهم أملا فى إنقاذ الملكية الشرعية من مخالب المتطرفين، وقد أدّى هذا التحريض الى نشوب حرب أهلية بين الفريقين لاسيما فى المقاطعات الشمالية التى قررت إنشاء وصاية تتولى الحكم، هـذا الى انتقال عدوى الثورة الى المستعمرات، مما جعل الأمبراطورية الاسبانية بأسرها ميدانا للفوضى والاضطراب .

لذلك اتجهت أنظار الدول الى هـذا الخطر لاسيما وأن وزارة ريشليو المعتدلة فى فرنسا خلفتها وزارة من الملكيين الذين كانوا يرغبون فى مناصرة الملكية الشرعية والدفاع عنها فى اسبانيا، فاتفق الرأى على عقد مؤتمر جديد فى فيرونا للبحث فى هذه الشؤون، على الرغم من أن انجلترا أصرتْ على الاحتفاظ بحريتهـا فى العمل وعدم الانضمام الى إجماع الدول، لادفاعا عن المبدأ العام الذى سارت عليه فى المؤتمرات السابقة وهو عدم التدخل فى شؤون الدول الداخلية فقط وإنما لأن التدخل فى هذه الحالة كان من شأنه أن يعيد الى اسبانيا النفوذ الفرنسى الذى حاربته بالمـال والرجال، ويقضى على الامتيازات التجارية التى كانت لها فى أسبانيا ومستعمراتها . وقد تعززت هذه السياسة حينما تولى كاننج وزارة الخارجية بعد كاسلريه الذى انتحر قبيل انعقاد المؤتمر، فقد كان عماد الوزارة فى السياسة التى جرت عليها فى مقاومة التدخل الدولى، وكان يفضل أن تحطم أركان العصبة عن أن تنتزع من انجلترا حريتهـا فى العمل، خلافا لكاسلريه الذى كان يمانع فى سياسة التدخل مع الابقاء على العصبة .

فلما اجتمع المؤتمر فى أكتوبر ١٨٢٢ ظهر اختلاف الدول للعيان، ذلك أن فرنسا أبلغت الدول عزمها على التدخل لقمع الحركة فى اسبانيا و رغبت اليها جميعا أن تؤيدها بنفوذها الأدبى والسياسى، فأجابت النمسا والروسيا و بروسيا بعزمها على تأييد هـذا التدخل . أما ولنجتن مندوب انجلترا فقـد أعلن أن بريطانيا لاتشترك فى أمر هـذا التدخل ولا تخاطب الحكومة الاسبانية فى شأن أعمالها الداخلية التى ليس لأية دولة أن تعترض عليها ،ولم يلبث أن انسحب نهائيا من المؤتمر،فتحطمت بهـذا الانسحاب قواعد الاتحـاد الدولى، وانفسح المجال لكاننج لأن يرعى مصالح دولته طبقا لتقاليدها ونزعاتها الخاصة .

والواقع أنه ما كادت فرنسا تتـولى قمـع الثورة فى اسبانيا وتنتصر عليهـا حتى خشيت انجلترا أن تنزع الدول الى إخضاع المستعمرات أيضا، فقررت أن تتخذ الوسائل التى تضمن الاحتفاظ بمصالحها التجارية العظيمة، وذلك بأن تعمل على استقلال تلك المستعمرات حتى توازن مايمكن أن تحصل عليه فرنسا من المزايا فى اسـبانيا . وقد ساعد انجلترا على اتباع هذه الخطة أن الولايات المتحدة أعلنت بلسان منرو رسالتها الشهيرة التى احتجت فيها على دعوى الدول الأوربية فيما يتعلق بالتدخل فى شؤون أمريكا الجنوبية ، وقررت أن مثل هذا التدخل تعتبره الولايات المتحدة أمرا غير ودى، ولذلك أسرع كاننج الى عقد محالفات تجارية عديدة مع المستعمرات الاسبانية، ولم يلبث أن اتخذ الخطوة النهائية فى سبيل الاستقلال بأن أرسل مفوضين سياسيين الى هذه الولايات، وانتهى بأن اعترف باستقلالها نهائيـا عام ١٨٢٥ "حتى ينشئ" كما قال "عالمـا جديدا يوازن ما يحصل عليه غيره من الفوائد فى العالم القديم" .

وهكذا كانت سياســة انجلترا ضربة قاضية على العصبة، على أن هناك مايبرر تصرفها هـذا وهو أن الاتحاد الذى أنشئ لغرض ضمان المعاهدات والاحتفاظ بقواعد السـلم بين أمة وأخرى استخدمته الدول الأخرى للتدخل فى شؤون الممـالك الخاصة وجعلته قاعدة لمناهضة مبادئ الحرية والقومية فى أوربا بأجمعها .

الباب الثالث

العهــــد الرجعى فى أوربا

١٨١٥ — ١٨٣٠

لم تكد تستقر الأحوال فى أوربة بعد هزيمة نابليون، حتى استقلت الرؤوس المتوجة عروشها من جديد، وأنشأت تسترد نظام العهد البائد بكل إشاراته ومعانيه، وتطمس معالم الثورة وآثارها، بشدة وعنف، لتتضاءل أمامها شدّة العهد الخالى. وكانت شخصية مترنيخ هى الشخصية القوية البارزة فى وسط ذلك المحيط الذى كان يعج بخيبة الآمال للحرية والأحرار، على أن بذور الثورة كانت قد نشرت فى كل الأرجاء، فلم تلبث أن نمت قوة حيويتها الكامنة. ومهما كانت رغبات الملوك وأنصارهم من أشياع القديم، فقد كان لا بد لهم أن يطأطئوا الرؤوس عاجلا أو آجلا أمام المبادئ الجديدة. إلا أن هذا الانتصار لم يكن ثمرة ساعة أو يوم أو جيل، بل ثمرة كفاح مستمر، وجهاد طويل لم يمل.

الفصل الأول

فــرنسا

كان لويس الثامن عشر شــديد التعلق بمميزات الملكية القديمة، وكان يرغب فى استئناف تقاليد العهد الذى فصلته فترة من « الإجرام الهائل » كما دعا الثورة، ولذا كان يعتبر سنة ١٨١٤ السنة التاسعة عشرة لا السنة الأولى من حكمه، إلا أنه مع هذا كان بعيد النظر، شديد الحرص على العرش الذى اعتلاه بعد سنين من

الاغتراب والمنفى، فرأى منـذ البداية أن العودة الى النظام القديم ضرب من الحمق يذهب بالملك وصاحبه، فوطد العزم على قبول مبادئ العهد الجديد قدر المستطاع، إلا أنه لم يتخذ مع هذا خطة الحزم فى تنفيذ رغباته وإرادته، حيال رغبات وإرادة الأشراف المهاجرين الذين عادوا بعودته وعلى رأسهم الكونت دارتوا وارث العرش، وأخذوا يعملون على إرجاع مظاهر العهد القـديم، كأنمـا الثورة لم تكن، وكأنمـا الملكية لم تقترن عودتها بشىء من النكبات الكبار التى أصيبت بها البلاد .

سـياسـة لويس — وضع لويس عند جلوسه على العرش دسـتورا — ٤ يونيه ١٨١٤ — احتفظت فيه فرنسا بالأنظمة القضائية والإدارية التى ورثتها عن الثورة ونابليون مع ضمان حقوق الأفراد فى المساواة والحرية الشخصية والدينية وإطلاق حرية الصحافة ضمن حدود تعينها القوانين . وأما النظام السياسى فقد أقيم على أساس يشبه النظام الانجليزى إذ وضعت السلطة التشريعيـة وهى سلطة سن القوانين وفرض الضرائب فى يد الملك ومعه مجلسان : أحدهمـا وراثى للأعيان . والآخر نيابى ينتخبه الشعب وفق قواعد معينة[1] . وأما السلطة التنفيذية فقد تولاها الملك بمعاونة وزراء مسئولين، فأصبح من حقه قيادة الجيوش وإمضاء المعاهدات والتعيين لكل الوظائف وتنفيذ القوانين، وحل مجلس النواب بشرط ألا تجاوز مدة العطلة ثلاثة شهور . ولكن الدسـتور ترك مجالا كبيرا للشرح والتأويل لا سيما فيما يتعلق بقواعد الانتخاب، وحرية الصـحافة، وانتخاب الوزارة، فأخذت الأحزاب المختلفة تستخدم هذا الغموض فى مصلحتها .

ذلك أن الأمة انقسمت حيال الدستور الى ثلاثة أحزاب : الملكيون المتطرفون الذين كانوا يعملون على هدم قواعد الحرية التى قضى عليها الدسـتور، والمستقلون الذين كانوا يشايعون مبدأ سيادة الأمة ويعيبون على الدستور قصوره عن تحقيق أعلى

(١) اشترط أن يكون سن الناخب ٣٠ ومايدفعه من الضرائب ٣٠٠ ف وسن المنتخب ٤٠ ومايدفعه من الضرائب ١٠٠٠ ف وجعلت مدة انعقاد المجلس خمس سنوات على أن يجدد خمس الأعضاء سنويا ،

مبادئ الديموقراطية ، والملكيون الدستوريون الذين كانوا يقبلون الدستور كما هو على اعتبار أنه يضمن امتزاج العناصر المتباينة وإيجاد جوّ جديد للتفاهم بين أنصار الثورة وأنصار العهد القديم .

الملكية المتطرّفة (١٨١٥ — ١٨١٦) — ولما كانت عودة الملكية قد اقترنت بأشدّ أنواع المظالم والاضطهاد إزاء أنصار نابليون ورجال الثورة فقد استطاع الملكيون المتطرّفون فى ظل هذا الإرهاب «الأبيض» أن يحرزوا أغلبية المقاعد فى مجلس النوّاب ، ولذلك أطلقوا العنان لسياسة العنف والتطرّف ومطاردة أشياع الثورة وتقييد الحرية الشخصية وحرية الصحافة على الرغم من مقاومة الوزارة المعتدلة التى كان يرأسها "ريشليو" حتى خيل للناس أنهم على أبواب انقلاب جديد لا يقل خطورة عن الانقلاب الماضى ، وأن فرنسا تتعرّض لأعظم الأخطار من جراء هذه الخطة العمياء ، فقررت الوزارة حل هذا المجلس اعتمادا على روح الاستياء التى ظهرت فى أنحاء البلاد ، وكانت النتيجة أن انتقلت الأغلبية فى المجلس الجديد الى طائفة المعتدلين من فريق الملكيين الدستوريين .

الملكية المعتدلة (١٨١٦ — ١٨٢٠) — نظمت فرنسا شؤونها المالية فى هذا العهد الجديد وأعيدت الطمأنينة والثقة بالبلاد حتى أن الدول قررت فى مؤتمر اكس لا شابل سحب جنودها من فرنسا كما مر بنا ، وإدخال هذه الدولة ضمن اتحاد الدول العظمى ، على أن إطلاق حرية الصحافة فى هذا العهد وتعديل قواعد الانتخاب تعديلا يطابق مبادئ الأحرار كان من شأنه ازدياد عدد الجمهوريين وأعداء الملكية فى المجلس زيادة مقلقة لحاول ريشليو أن يقيد شروط الانتخاب مرة أخرى ، ولكن الملك أبى تأييد سياسة التوفيق بين عنصرى الأمة من أنصار الثورة وأنصار الملكية ، فاعتزل ريشليو الوزارة وخلفه "ديكاز" الذى كان يؤمن بمبدأ التمشى مع رغبات فرنسا الحقيقية ، حتى يأمن جانب الشعب وتضييق الهوة التى كانت تفصل الملك عن الرعية ، إلا أن دخول الكثيرين من رجال الثورة الغابرين

أمثال لافييت وجريجوار فى المجلس النيابى، وحادث مقتل دوق برى[1] ثانى ولدى الكونت دارتوا ولى العهد بتأثير المهيجين — كل ذلك عزز سياسة الملكيين المتطرفين الذين كانوا يعملون جهدهم فى إسقاط وزارة ديكاز حتى فازوا أخيرا بما كانوا يبتغون.

عودة الملكية المتطرفة (١٨٢٠ — ١٨٢٧) — أسندت الوزارة حينئذ الى فيليل (Villèle) زعيم الرجعيين، فعدلت قوانين الانتخاب لمصلحة حزبهم، وأعيدت الرقابة على الصحف والمطبوعات، وأرسلت حملة فرنسية الى اسبانيا عام ١٨٢٣ لإخماد الثورة فيها، هذا الى تأليف مجلس جديد من الرجعيين الذين يسيرون فى طريق العنف الى آخر مداه . ولما توفى لويس الثامن عشر عام ١٨٢٤ وخلفه أخوه شارل العاشر وهو الكونت دارتوا زعيم المهاجرين، أطلق العنان للسياسة الرجعية التى طالما سعى فى حمل أخيه على قبولها، فأعاد الى الكنيسة سلطانها المطلق، ووضع التعليم بيد الجزويت المشايعين للملكية المطلقة، ووهب الأشراف المهاجرين تعويضا كبيرا عن أملاكهم التى فقدوها، كما أمر بحل الحرس الأهلى، وطرد بقية ضباط نابليون من الجيش . على أن هذه السياسة المتطرفة التى كانت لا تلائم بتاتا حالة البلاد، أثارت روح المقاومة بين الملكيين أنفسهم فضلا عن الأحرار الدستوريين بحيث تعذر على الحكومة الاحتفاظ بمركزها ومقامها فى البلاد، فتقرر حل المجلس رغبة فى التخلص من جمهور المعارضين .

النزاع بين الملك والشعب (١٨٢٠ — ١٨٢٧) — تألف خصوم الوزارة إزاء هذا الخطر ووثقوا عرى التحالف بينهم، وألفوا حزبا يجمع الملكيين والأحرار والجمهوريين من أشياع لافييت وجيزو وتيير واستطاعوا بفضل هذا التآلف أن يفوزوا بأغلبية عظمى فى الانتخابات الجديدة حتى اضطر الملك أن يخضع للظروف القاهرة ويؤلف وزارة جديدة بزعامة مارتينياك (Martignac)

(١) كان هذا الدوق يهم الملكيين بنوع خاص لأنه كان الوحيد الذى كان يرجى أن تحفظ بواسطته سلالة البوربون من الانقراض . (وقتل فى ١٣ فبراير سنة ١٨٢٠) .

الذى عرف ببعد النظر وتوخى جانب الاعتدال. غير أن هذه الوزارة لم تفلح فى إرضاء الملكيين ولا الأحرار، فتضافر عليها الفريقان حتى سقطت، وبسقوطها تمهد السبيل مرة أخرى للرجوع الى سياسة العنف والشدة التى أوردت الملكية حتفها .

ذلك أن الوزارة عهـدت الى بولنياك (Polignac) من زعماء الرجعيين الذين لا يترددون فى اتباع أقسى وسائل العنف والإرهاق، فذعرت فرنسا من أثر هـذا التعيين، وعقدت الخناصر فى داخل المجلس وخارجه على مقاومة هذه السياسة الجديدة فلما بدأ فصـل الجلسات العادية عام ١٨٣٠ أعلن الملك عزمه على استخدام القوة اذا اتخذ المجلس خطة العمل لعرقلة أعمال الحكومة ، فأجاب المعارضون بتحـدى الملك وإرادته ، فأمر الملك حينئذ بحل المجلس ، ولكن الانتخابات الجديدة أسفرت عن زيادة عدد المعارضين، فقرر الملك فى ٢٦ يوليه سنة ١٨٣٠ — اعتمادا على الانتصارات التى أحرزتهـا الجنود الفرنسية فى الجزائر — الغـاء الانتخابات وتحوير قانون الانتخاب وتقييد الصحافة ، فانقطع بذلك سبيل المعارضة الدستورية ، ولم يبق إلا سبيل المقـاومة الفعلية، فلجأ المعارضون الى إثارة الشـعب الحانق على الملكية وأنصارها ، وكانت ظروف الأحوال كلها فى مصلحتهم ، فان الحكومة لم تتخذ الاحتياط الجدى لمـا عساه ينشأ من المقاومة ، وكان الجنود لا يرغبون فى مقاتلة إخوانهـم ، لا سيما بعد أن رفعوا العلم المثلث الألوان الذى كان يحرك قلب كل وطنى ، فلم يمض يومان حتى استولى الشعب على باريس ؛ وأصبح مطلق التصرف فيهـا . وحينئذ تألفت هيئة مؤقتة تتولى الدفاع عن الأموال والأرواح فأعادت تنظيم الحرس الأهلى ريثما تشكل الحكومة الجديدة .

لويس فيليب ملك الفرنسيين — اضطر شارل اذ ذاك أن يسحب قراراته ولكن بعد فوات الفرصة ، فقد كان تيير وحزبه من الملكيين الدستوريين قد قرروا خلعه وترشيح دوق أورليان مكانه ، وذلك لأن الدول ما كانت ترضى بإقامة جمهورية ولأن دوق أورليان كما قال أصدقاؤه "معروف بشدة إخلاصه لمبادئ الثورة ، ولأنه

اشترك فى الدفاع عنها فى موقعة جيماب وحمل العلم المثلث الألوان تحت نار الأعداء، ولا يتأخر عن حمله مرة ثانية، فضلا عن أنه يقبل الدستور ويفهمه كما يفهمه الأحرار، ويعتبر نفسه مدينا بعرشه لارادة الشعب". لكل هذه الأسباب اجتمع مجلس النواب المنحل وقرر بادئ الأمر انتخابه وكيلا عاما للمملكة، فلما دخل باريس وآستطاع استرضاء لافييت زعيم الجمهوريين الذين تحملوا أعباء الثورة نودى به ملكا على البلاد، على أن هذا الاعلان لم يتم إلا بعد أن أقسم فيليب يمين الاخلاص للدستور والتعديلات التى أدخلت عليه : وهى تتلخص فى توسيع قواعد الانتخاب ومنع الرقابة على الصحافة وتجديد الحرس الأهلى والنص على سيادة الأمة صراحة واعتبار الملك حاكما بارادة الشعب، بحيث يكون لقبه ملك الفرنسيين لا ملك فرنسا . أما شارل العاشر فقد أسقط فى يده إزاء هذه الرغبة العامّة وآضطر أن يغادر فرنسا الى انجلترا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٣٠

موقف الدول — بهذا تمت ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ تلك الثورة التى ترجع الى عناد شارل وإصراره على الخطأ بحيث لو كانت هذه الأزمة حدثت فى عهد شارل الثامن عشر ما كانت كلفته غير إسقاط الوزارة، على أن هذا الانقلاب كاد يؤدّى الى مشاكل خارجية خطيرة لما تضمنه من خرق التعاقد على تأييد أسرة البوربون، ولكن الرابطة الأوربية كانت قد انحلت كما رأينا، وكانت الدول فى شغل بمصالحها الخاصة عن مشاغل فرنسا ، فلم تجمع كلمتها على التدخل خصوصا بعد أن أيقنت أن هذا الانقلاب لا يؤدّى الى تهديد السلم فى أوربا كما وقع إبان الثورة الأولى، فلم تلبث ان اعترفت بالنظام الجديد بعد قليل .

الفصل الثانى
ايطاليا

تمهيـــد — سقطت إيطاليا عقب انتهاء الدولة الرومانية الغربيـة فى يد القوط الشرقيين، وتبعهم فى الاستيلاء عليها اللبارد ثم شارلمان، وبعد معاهدة فردان انتقلت ايطاليا الى حفيده لوثير، وأعقبته فى السيادة عليها أسرات ألمـانية متعدّدة آخرها أسرة هابسبرج . على أن هذه الأسرات لم يكن لها من السلطة إلا الاسم نظرا لمعارضة البابوية فى تأسيس حكومة موحدة فى البلاد، فضلا عن تشبث الولايات والمدن المختلفـة فى الإبقاء على استقلالها الذى اكتسبته فى عهد الفوضى والتنازع على الحكم بين البابوية والأمبراطورية .

تأثير حكم نابليون — لذا بقيت ايطاليا اسمـا جغرافيا حتى نهاية القرن الثامن عشر، حين بدأ نابليون فتوحه فيهـا، فأخضع ولاياتها المتفرقة الى سلطات تستمد أوامرها من إرادته وحده[1]، وعمل على تحريرها من كثير من القيود التى كانت ترسف فيهـا كبقايا النظام الاقطاعى وسلطة رجال الدين، هذا الى توحيد القانون والإدارة فى البلاد، وتزويد الايطاليين بحكومة سديدة تسهر على مصـالح الشعب وتعنى بأمره، بعـد أن كانت ايطاليا مهد الفوضى والاضـطراب أجيالا عديدة . فلا عجب، وقد ظهر فضل الحكومة المتحدة القوية، أن تحرك ذوو العقول المفكرة لتحقيق ذلك الاتحاد فى شكل آخر هو السيادة القومية، ولكن الدول أغفلت

---

(١) هذه السلطات هى : (أ) منطقة بيدمنت وجنوة وتسكانيا و بارما و روما، وكانت تابعة للحكومة الفرنسية مباشرة . (ب) مملكة ايطاليا وتشمل ميلان والبندقية وكان يحكمها يوجين بوهارنيه ابن زوجة نابليون . (ج) مملكة نابلى وقد عين أخاه يوسف ملكا عليها ثم أعقبه ميرا صهر نابليون .

فى مؤتمر ڤيينا هذه النهضة الجديدة وانقادت الى رغبة النمسا فى إعادة البلاد الى حالة التقسيم القديم [١] .

الحالة عقب مؤتمر فيينا — وهكذا رجعت ايطاليا التى وهبتها الطبيعة كل مميزات البلاد الموحدة الى الانقسام السياسى والإدارى والاقتصادى الذى أنقذها منه نابليون ، كما عادت ترسف فى أغلال الحكم المطلق الذى جرى عليه ملوكها وأمراؤها من قرون . ففى ولايتى لمبارديا والبندقية الخاضعتين للنمسا كان نظام الحكم شديد الوطأة على الناس، وفق المبادئ التى كان يعمل لها مترنيخ فى أوربا ، إذ كانت الضرائب عالية والجاسوسية منتشرة والصحف مقيدة وحرية الكلام والاجتماع محظورة ، فى حين أن أكثر الولايات الايطالية الأخرى كانت تحذو حذو النمسا وتخضع لسياستها إما لأن الأسرات التى تحكمها كانت ذات صلة بالأسرة الأمبراطورية كما فى بارما وتوسكانيا ومودينا ، أو لأنها كانت ترتبط معها بمعاهدة صداقة ومودّة كما كان الحال فى نابلى .

أما فى بيدمنت فقد كان الحكم الرجعى على أشدّه بغير تدخل النمسا ، فقد أزال ڤيكتور أمانويل بجرّة قلم واحدة كل ما طرأ على نظام الحكم القديم من التغيير بأن أمر بتعطيل كل قوانين نابليون ، وتنفيذ كافة اللوائح والأنظمة السابقة لها ، هذا الى أنه أعاد الى رجال الدين نفوذهم الأوّل ، وأخضع الجامعة لرقابة الحكومة ، وكاد يأمر بتدمير القناطر التى أقامها نابليون على نهر البو ، وأمر فعلا بتخريب الحدائق التى كانت أقيمت لعمل التجارب النباتية ، الى غير ذلك من أمثلة الخرق فى الرأى ، والجنون فى رجعية المبادئ . على أن الحالة فى الولايات البابوية كانت لا تقل فى شدّتها عما رأته أشدّ الولايات الرجعية إذ كان البابا ورجال الدين يحقدون على

---

(١) قضت إرادة المؤتمر أن تقسم ايطاليا كما يلى : (أ) مملكة بيدمنت . (ب) لمبارديا والبندقية . (ج) أملاك البابا . (د) مملكة نابلى وهذه هى أهم الأقسام وأكبرها . وتتلوها ستة أقسام أخرى وهى دوقية تسكانيا وبارما ومودينا ولوكا ثم جمهوريتا موناكو وسان مارينو .

نابليون إهانته للكنيسة بأسرها حين اعتقل زعيم الكاثوليكية الأكبر، فهدموا كل ما بناه ذلك الفاتح رأسا على عقب، على أن الحكومة التى حلت مكان حكومته كانت ضعيفة عاجزة عن ضبط الأمن وصيانة الأملاك والأرواح فكانت لذلك موضع السخط العام .

من هذه النظرة العامة ندرك مقدار تحرّج الحالة فى ايطاليا، لأن الشعب لم يعد كتلة جامدة لا تتأثر بالحوادث، بل جسما حيا دبت فيه روح الإخاء والحرية، وغذته آمال الوحدة القومية . واذا كانت مظاهر العنف والاستبداد قد أخمدت كل مقاومة دستورية، فقد التجأ الجمهور الى تلمس سبيل آخر، أشد نكاية وأكثر خطرا، وهو تأسيس الجمعيات السرية لمقاومة العنف بالعنف، ومقابلة القوة بمثلها، حتى يتقلص ظل الحكم المطلق وتتحقق آمال البلاد . وكان أشهر هذه الجمعيات السرية جمعية الكربونارى (Carbonari) التى تكونت فى نابلى، وانتشرت انتشارا عظيما بين صفوف الجند والطبقات المستنيرة من الشعب، وكان غرضها قلب نظام الحكومات الفاسدة والقضاء على سلطة الدخيل الأجنبى الذى كان يحول بين البلاد وبين الاتحاد والحرية .

ثورات (١٨٢٠ — ١٨٢١) — ما كادت تبلغ نابلى أخبار الثورة الاسبانية سنة ١٨٢٠ حتى قام أعضاء الجمعية من الضباط يطمعون فى مثل حظ رفاقهم بأسبانيا، ويطلبون إنشاء مجلس نيابى وفق نظام الدستور الأسبانى الذى أعلن سنة ١٨١٢، فأسقط فى يد الملك فرديناند وأجابهم الى ما طلبوا، وأقسم يمين الاخلاص للدستور الجديد، إلا أنه كان يضمر غير ما يظهر، فبينما كان يعلن اغتباطه بالنظام الجديد، كان يكاتب مترنيخ خفية لمعاونته فى طمس آثار ذلك النظام .

ولما كانت النمسا ترتبط بأسرة البوربون الحاكمة فى نابلى بمعاهدة تحتم عليها أن تسير على نظام الحكم المتبع فى ولاياتها، وأن تستدعى جيوش النمسا لإخماد كل حركة

من شأنها الإخلال بذلك النظام، فقد أسرع مترنيخ الى دعوة الدول للاجتماع في مؤتمر يعقد فى تربا وسنة ١٨٢٠ للنظر فى أمثل الطرق التى تكفل إخماد الثورات التى كانت تهدد الأمن والسلام . وإذ كانت أكثر الدول تؤيد خطته التى ترمى الى التعاون فى سحق الثورات أينما ظهرت، ولم يخرج عن هذا الاجماع إلا فرنسا وانجلترا، فقد قررت الدول كما عرفنا تقرير مبدأ التدخل واستدعى الملك فرديناند لحضور مؤتمر ليباخ عام ١٨٢١ للبحث فى شؤون بلاده خاصة، إلا أن القوم فى نابلى خشوا عاقبة هذه الدعوة، فأرغموا الملك قبل الرحيل على أن يجدد قسمه بالولاء للدستور، ولكنه سرعان ما أعلن وهو فى مأمن من مواطنيه أن كل أقسامه لا قيمة لها، وأنه فى حل من الارتباط بها، ثم طلب الى الدول فى المؤتمر إعادة الملكية المطلقة فى بلاده فأجيب الى ما طلب وكلفت الجيوش النمساوية بالزحف الى نابلى، فقضت على مقاومة الثائرين فى مارس ١٨٢١، وأعادت الحكم الاستبدادى على أتمه، وأنزلت برجال الثورة كل اضطهاد .

فى تلك الأثناء نشبت الثورة فى بيدمنت، وكان عمادها رجال الجيش من أنصار الكاربونارى، كما كانت مطالبهم عين مطالب أهل نابلى، أى النظام الدستورى، غير أن الملك رأى أنه اذا أجاب الشعب الى ماطلب، أغضب النمسا وذلك ما لا يستطيعه، واذا لم يجب تلك المطالب، عرض بلاده لخطر الفتنة الأهلية، وهو ما أشفق أن يقع على يده. لذلك آثر أن ينزل عن الملك لولى عهده شارل فيلكس الذى أبى إلا التمتع بكل حقوق الملكية المطلقة، فسار على رأس جيش الملكيين، تعاونه النمسا، وقضى على الثوار فى نوفارا فى ٩ أبريل سنة ١٨٢١

أما أهل لمبارديا فقد انضموا الى الحركة بدعوة ثوار بيدمنت الذين نشروا فيها راية إيطاليا المتحدة المثلثة الألوان، وكانوا يرمون الى قطع خط الرجعة على الجيش النمساوى العامل فى نابلى، فخاب رجاؤهم بما حدث فى بيدمنت، وأخفقت الآمال الكبار التى عقدت على جماعة الكاربونارى، وأصبحت السنوات التالية لهذه

الثورات سنوات ضغط وإرهاب وتعسف وإرهاق قلما شاهده الشعب الايطالى من قبل .

ثورة إيطاليا ١٨٣٠ — لذلك ماكادت تتحرك نار الثورة فى فرنسا عام ١٨٣٠ حتى تناول تأثيرها ولايات إيطاليا نظرا لطبيعة موقعها الجغرافى ، وتشبع الكثيرين من أهلها بمبادئ الكاربونارى ، فضلا عن الوعود التى قطعها رجال الثورة فى فرنسا للايطاليين بأن يعاونوهم فى جهادهم للحرية .

وقد كانت بداية الحركة فى الولايات البابوية والدوقيات الشمالية حيث أقام الكاربونارى مركزهم العام منذ فشل الحركة الماضية . وقد أفلح الثوار فى عملهم بادئ الأمر الى حدّ أن تسلطوا على بلاد كثيرة فى هذه الولايات ، إلا أن فرنسا خيبت رجاءهم فيها ، وذلك طوعا للسياسة التى انتهجها اويس فيليب — سياسة استمالة الدول وكسب ودّها حتى تعترف بمركزه الخاص فى فرنسا — ولذلك تركت الايطاليين وحدهم يتلقون ضربات النمسا التى سارعت الى قمع الفتنة بقوّة وعنف أو ردا الثائرين مورد اليأس ، فجمعوا فلولهم وحركوا الثورة مرة أخرى فى الولايات البابوية عام ١٨٣٢ ، فعادت النمسا الى التدخل تعاونها فرنسا التى أحفظها الاخلال بالتوازن الدولى فى إيطاليا — ذلك التوازن الذى تهدّم من جراء انفراد النمسا بالعمل فيها — فقضى الجيشان على الثائرين ، وأقاما محتفظين بمواقعهما الى عام ١٨٣٨ حينما تقرّر انسحابهما معا .

وهكذا توالت الثورات على إيطاليا بغير أن تحقق آمال الوطنيين فيها ، مما يرجع الى سوء النظام وضعف الخطة وعجز الزعامة فى جمعيات الكاربونارى ، واقتصارها على فريق معين من الشعب بحيث لم يتسن للاحرار مقاومة النمسا ذات البأس والسلطان ، فلا عجب اذا تجلى للعيان أن لاسبيل الى الحرية والوحدة الأهلية المنشودة إلا اذا عالج الايطاليون هذه النقائص ، والتجأوا الى وسائل جديدة تضمن لهم النجاح .

الفصل الثالث

ألمانيا

تمهيـــد — كان أمبراطرة ألمانيا من أحفاد شارلمان ضعفاء لاقبل لهم بحكم البلاد والدفاع عنها إزاء غزوات النورمانديين وغيرهم من البرابرة، فأقطعوا الأشراف ضياعا يحكمونها ويدافعون عنها وقت الحاجة، مقابل التمتع بها والاستئثار بخيراتها . ولما اعتلى العرش رجال يحسنون الحكم، حاولوا استرجاع سلطانهم فى البلاد على نحو ما فعل ملوك انجلترا وفرنسا ولكن على غير جدوى، فقد تمسكت الإمارات باستقلالها، واشتغل الأمبراطرة بتحقيق تقاليد الامبراطورية القديمة وهى ضم ايطاليا الى أملاكهم، فلم يظفروا فى النهاية بسلطة ما سواء فى ألمانيا أم فى ايطاليا .

حروب نابليون والتسوية العامة — لهذا بقيت ألمانيا بلادا مقطعة الأوصال حتى تدخل نابليون فى أمرها، فقضى على الدولة الرومانية المقدسة التى أنشأها شارلمان، وأدمج كثيرا من ولايتها المتفرقة بعضها فى بعض حتى أصبحت نحو ٣٩ ولاية بعد أن بلغت نحو ثلثمائه، ثم أنشأ اتحادا من الولايات الغربية أطلق عليه اسم اتحاد الرين وزوّده بحكومة صالحة تسهر على مصالح الشعب .

فلما سقط نابليون وعرضت شؤون ألمانيا على مؤتمر فيينا أظهر الشعب الألمانى الذى أيقظته حروب نابليون والمثل الأعلى لحكومة متحدة منظمة فى أقاليم الرين رغبته فى تكوين اتحاد من الولايات الألمانية لضمان سعادة الشعب وحريته : غير أن أمراء الولايات أبوا أن ينزلوا عن استقلالهم الذى تمتعوا به من قديم، فضلا عن أن النمسا رأت فى تحقيق هذا الاتحاد إضعافا لنفوذها ان لم يكن سبيلا لطردها وولايتها الأجنبية من الجامعة الألمانية . واذ كان الشعور الوطنى لم يبلغ بعد من القوة ما يستطيع التغلب به على هذه الصعاب فقد تقرر إنشاء إتحاد لاقيمة له

اضطرابات عدّة فى أنحاء البلاد : ففى برنسويك طرد الأمير من عرشه ، وفى هس أجبر الأمير على منح ولايته دستورا ، وفى بافاريا ووستفاليا والولايات الجنوبية على وجه عام وقعت حوادث ثورية عديدة ، غير أن هـذه الثورات أخمـدت من غير مشقة ، وكانت نتيجتها تضييق الخناق على البلاد ، وتقييدها بسلاسل أشدّ وأقوى ، فتم لمترنيخ بذلك إنتصار كارلسباد . ولا ريب أن السر فى إخفاق هـذه الحركات هو عدم اشتراك السواد الأعظم من الشعب فيها ، واقتصارها على مجهود فريق معين من الناس دون الباقين .

الفصل الرابع

اسـتقلال البلجيـك

قضى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ بضم البلجيك وأسقفية لييج الى هولندا ، ليتكوّن منها مملكة ذات بأس ، تستطيع ردّ غارات فرنسا التى كانت تعتبر إذ ذاك مصـدر الخطر على سلامة أوربة كلها ، وقد كان العامل الأكبر فى إبراز هذه الفكرة الى عالم الوجود "بت" الوزير الانجليزى الشهير الذى أراد اتقاء الأخطار التى تعرّضت لها مصالح قومه حين استولت فرنسا على تلك البلاد أيام الثورة وحروب نابليون .

غير أن الاختلافات العديدة بين البلدين ، وضعت هذا التحالف فى خطر من بداية الأمر ، فبينما كان الهولنديون من عنصر التيوتون ، يدينون بمذهب كلفن ، ويتكلمون لغة أشبه بالألمانية ، كان البلجيكيون خليطا من العنصر الكلتى والوالونى ، يدينون بالمذهب الكاثوليكى ، ويتكلم بعضهم لغـة تقرب من الهولندية ، والآخرون يتكلمون اللغة الفرنسية ، هذا فضلا عن الفوارق التاريخية والاقتصادية ، فقد كانت هولندا مملكة مسـتقلة منذ أواخر القرن السادس عشر ، ويشتغل أهلها بالتجارة ، ويعتمدون على الموارد الخارجيـة . أما بلجيكا فكانت تخضع لحكم الاسـبان ، ثم

العمل معها لمصلحة العامة . لذلك عوّل الملك فردريك وليم الثالث على أن يعمل مع طائفة من الخبراء وأصحاب الرأى لاصلاح البلاد، فأنشأ مجالس استشارية لحكومات الأقاليم، وقرر إلغاء المكوس الداخلية فى بروسيا نفسها، و بينها و بين الولايات التى تقبل الانضمام اليها فى اتحاد اقتصادى (Zollevrein) على أن يقتصر على جباية ضرائب الوارد على التجارة الخارجية عند الحدود، و يقسم الايراد بين أعضاء الاتحاد . وقد كان هذا الارتباط الاقتصادى الخطوة الأولى فى سبيل الاتحاد فيما بعد .

إبتداء النهضة — نشأ عن اخفاق الآمال فى تحقيق الحرية والاتحاد القومى أن أخذ الشباب المتعلم يرتبط بروابط الاخاء والاتحاد فى أندية أسموها "البرشنشافت" (Burschenschaft) وكان أول أغراضها الاهتمام ببث الدعوة فى أنحاء البلاد، وتدريب الأفراد تدريبا بدنيا ليكونوا خير الأعضاء العاملة فى جسم الأمة، إلا أنه حدث : (أولا) أن أقام الطلبة احتفالا بذكرى قيام لوثر ضد البابا فى مدينة ورتمبرج، فتحوّل الاحتفال الى مظاهرة سياسية عظيمة أساءت الولايات الرجعية وخصوصا النمسا، فأقفلت هذه المجتمعات فى كثير من الولايات؛ (ثانيا) اعتقد أحد الطلبة واسمه "كارل ساند" أن أحد الصحافيين كوتزيبوى (Cotzebue) يتجسس للقيصر، ويحمله برسائله على معاونة مترنيخ فى قتل حرية البلاد، فطعنه بمدية طعنة أودت به، فاتخذ مترنيخ من هذه الحوادث ذريعة لتقييد حرية الشعب بأن أسرع الى عقد مؤتمر فى كرلسباد من أمراء الولايات الألمانية، وحملهم فيه على قبول المراسيم الشهيرة بمراسيم كرلسباد سنة ١٨١٩ وخواها تقييد الصحافة ووضع الجامعات تحت مراقبة الحكومة، ومنع تأليف الجمعيات وعقد الاجتماعات السياسية، هذا فضلا عن تشكيل لجنة مركزية فى مينز للبحث عن الثوار والتنكيل بهم، والايعاز الى الأمراء بطرح فكرة الدستور ظهريا . وقد نفذت هذه السياسة بحذافيرها فى كل الولايات لاسيما فى بروسيا .

حوادث سنة ١٨٣٠ — على أن هذه القوانين الاستثنائية لم تزد النار إلا ضراما، فلما شبت الثورة الفرنسية فى سنة ١٨٣٠، تأثرت بها ألمانيا ووقعت

اضطرابات عدّة فى أنحاء البلاد : ففى برنسويك طرد الأمير من عرشه ، وفى هس أجبر الأمير على منح ولايته دستورا ، وفى بافاريا ووستفاليا والولايات الجنوبية على وجه عام وقعت حوادث ثورية عديدة ، غير أن هـذه الثورات أخمـدت من غير مشقة ، وكانت نتيجتها تضييق الخناق على البلاد ، وتقييدها بسلاسل أشدّ وأقوى ، فتم لمترنيخ بذلك انتصار كارلسباد . ولا ريب أن السر فى إخفاق هـذه الحركات هو عدم اشتراك السواد الأعظم من الشعب فيها ، واقتصارها على مجهود فريق معين من الناس دون الباقين .

الفصل الرابع
اسـتقلال البلجيـك

قضى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ بضم البلجيك وأسقفية لييج الى هولندا ، ليتكوّن منها مملكة ذات بأس ، تستطيع ردّ غارات فرنسا التى كانت تعتبر إذ ذاك مصـدر الخطر على سلامة أوربة كلها ، وقد كان العامل الأكبر فى إبراز هذه الفكرة الى عالم الوجود "بت" الوزير الانجليزى الشهير الذى أراد اتقاء الأخطار التى تعرّضت لها مصالح قومه حين استولت فرنسا على تلك البلاد أيام الثورة وحروب نابليون .

غير أن الاختلافات العديدة بين البلدين ، وضعت هذا التحالف فى خطر من بداية الأمر ، فبينما كان الهولنديون من عنصر التيوتون ، يدينون بمذهب كلفن ، ويتكلمون لغة أشبه بالألمانية ، كان البلجيكيون خليطا من العنصر الكلتى والوالونى ، يدينون بالمذهب الكاثوليكى ، ويتكلم بعضهم لغـة تقرب من الهولندية ، والآخرون يتكلمون اللغة الفرنسية ، هذا فضلا عن الفوارق التاريخية والاقتصادية ، فقد كانت هولندا مملكة مسـتقلة منذ أواخر القرن السادس عشر ، ويشتغل أهلها بالتجارة ، ويعتمدون على الموارد الخارجيـة . أما بلجيكا فكانت تخضع لحكم الاسـبان ، ثم

انتقلت لحكم النمساويين، وكان يشتغل أهلها بالصناعة والزراعة، وهذا يؤدّى بطبيعة الأمر الى اختلاف السياسة الاقتصادية للبلدين .

سـياسة هولنـدا — لو أن هولندا اتبعت سياسة العدل والمساواة التى أصرت عليها الدول حين كوّنت هـذه المملكة الجديدة، لتماسكت أجزاؤها تدريجيا، ولكانت الشركة خيرا وسعادة للفريقين ، إلا أن سياسة وليم أورنج كانت الغنم لهولنـدا والغرم لشريكتها ، وهـذا فى وقت أيقظت فيه الثورة الفرنسـية الشعور الوطنى والوحدة القوميـة فى بلجيكا كما حدث فى غيرها من ممـالك أوربة فمثلا : (١) كان سكان البلجيك يبلغون أربعة ملايين وسكان هولندا لايبلغون ثلاثة ملايين ولكن جعل عدد نوّاب البـلدين فى المجلس النيـابى متساويا؛ (٢) جعلت اللغـة الهولندية اللغة الرسميـة فى البلاد، وجعلت لاهاى مقرّ الحـكم، وأسـندت أغلب الوزارات إلى الهولنديين، كما أسـندت معظم المناصب الكبيرة اليهم؛ (٣) أسـند تفتيش المدارس الكاثوليكية الى مفتشين من البروتستنت، وأفسح المجال لاضطهاد مذهب البلجيكيين؛ (٤) وضعت سـياسة تجارية للبلدين على قاعدة حرية التجارة وهى قاعدة تضر بمصلحة البلجيك؛ (٥) قسمت ديون البلدين مناصفة بينهما رغم أن الديوان التى كانت تتحملها بلجيكا قبل الاتحاد تقل كثيرا عن ديون هولندا . كل هذا أثار ثائر البلجيك وجمع بين الأحزاب المتنافرة من أحرار وكاثوليك، ودعاهم إلى مطالبة الملك بإنشاء إدارة خاصة بهم ولكن على غير جدوى .

الثـورة — فلما قامت الثورة الفرنسية فى يوليه سنة ١٨٣٠ تطاير شررها إلى بلجيكا، فلم تلبث أن شبت الثورة فى بروكسل فى ٥ أغسطس سنة ١٨٣٠ وتبعتها باقى المقاطعات. وقد كان الثوّار يطلبون فى بادئ الأمر انفصال بلجيكا عن هولندا فى الادارة مع بقائها تحت أسرة أورانج، ولكن وليم أبى عليهم هـذا الرجاء، وأنفذ اليهم جيشا لاخضاعهم . فتألفت لجنة سميت « لجنة الدفاع الوطنى » لاتخاذ تدابير المقاومة، واسـتطاعت أن تردّ الجيش الهندى على أعقابه . وحينئذ أجابت هولندا

مطلب الحكومة الذاتيــة ، ولكن لجنة الدفاع أعلنت أن الدم الذى أهرق جعل الاتحاد مستحيلا ، وأن البلاد تعتبر نفسها مستقلة منذ ذلك التاريخ (٤ أكتوبر) ، ثم تقرر تأليف مؤتمر ليضع دستورا للحكومة الجديدة .

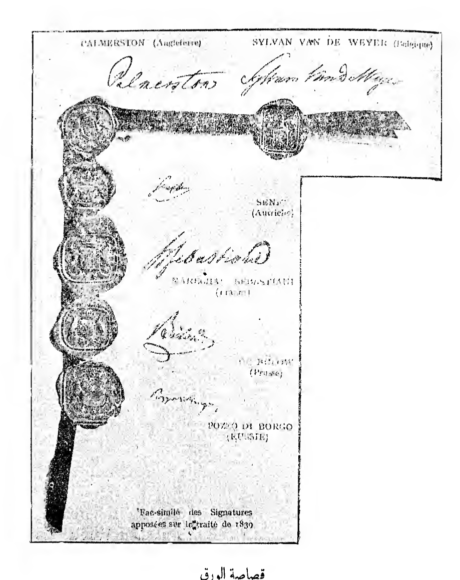
الدســتور — عقــد مؤتمر يمثل الشــعب البلجيكى بعــد ذلك بقليــل (نوفمبر ١٨٣٠) فوافق على استقلال البلاد، وقرر أن تكون حكومتها ملكية دستورية على مثال النظام الانجليزى ، أى أن تكون السلطة العليا للأمة ، وأن تكون الوزارة مســئولة أمام البرلمــان، أما السلطة التشريعية فقــد اقتسمها الملك ومجلسا النوّاب والشيوخ . وقد جعل الانتخاب لهذين المجلسين انتخابا مباشرا لمن يدفع ٢٠ فلورينا من الضرائب على الأقل، وبينما جعل أجل المجلس الأوّل أربع سنوات جعل أجل المجلس الآخر ثمــانى سنوات ولا ينتخب له إلا من يدفع ألفين فرنكا من الضرائب على الأقل . هــذا وقد ضمن الدســتور للشعب حرية العبادة والتعلم كما ضمن حرية الصحافة والخطابة والاجتماع .

موقف الدول — لم يبق إذن لثبات الحالة الجديدة إلا اعتراف الدول بها، وقد كانت اعترفت بالنظام الجديد فى فرنسا سنة ١٨٣٠ أملا فى الابقاء على الخريطة التى وضعت فى سنة ١٨١٥ ، غير أن امتداد روح الثورة الى البلجيك، جعل دول شرق أوربة لا سيما روسيا، تدعو الى التعاون لإيقاف الثورة عند حدودها، إلا أن فرنسا أكدت على لسان مندوبها "تاليران" فى انجلترا، أنهــا لا تقف مكتوفة اليدين إزاء أى تعدّ يقع على البلجيك، وأنها مع ذلك لاترغب إلا فى حيدة هذه البلاد ولا تطمع فى الاستيلاء عليهــا بتاتا . ولمــا كانت انجلترا تخشى أن يجر هــذا التشاذ الى حرب أوربية عامة، فى وقت كانت فيه فى شغل شاغل عن العالم بالانقلاب النيابى الذى وقع فيها حينئذ، فقد قررت بالاتفاق مع فرنسا قبول مبدأ استقلال بلجيكا، ولمــا عرض الأمر على الدول فى المؤتمر الذى عقد فى لندن فى ذلك الحين (٣٠ ديسمبر سنة ١٨٣٠) لم تجد دول شرق أوربة بدا من الاعتراف بما اتفقت عليه فرنسا وانجلترا

من قبل لا سيما أن النمسا كانت موثقة اليدين بالثورة التى قامت فى ايطاليا، والروسيا وبروسيا بالثورة التى قامت فى بولندا .

وقد ظهرت بعد ذلك مسألتان خطيرتان وهما : (أولا) مسألة انتخاب الملك . فقد أراد البلجيكيون أن يقدّموا التاج لأبن لويس فيليب "دوق دى نامور"، ولكن ذلك لم يصادف قبولا عند انجلترا، فانتخبوا البرنس ليوبولد من أسرة ساكس كوبرج على أن يتزوج ابنة لويس فيليب إرضاء لفرنسا؛ (ثانيا) كانت لكسمبرج تابعة لوليم ملك هولندا، ولها مندوبون فى مجلس الاتحاد الألمانى، وكانت انضمت الى البلجيك فى ثورتها ، ولكن مؤتمر لندن قرر فى يناير ١٨٣١ أن تعود لكسمبرج الى هولندا، وأن يدفع البلجيكيون الدين العام مناصفة مع هولندا، إلا أن البرنس ليوبولد أقنع الدول (يونيه ١٨٣١) بأن تبقى له على الدوقية وأن تدفع هولندا دينها كله لا مناصفة مع البلجيك كما تقرر قبلا وحينئذ عمد وليم الى تأييد حقوقه بالقوة، فسير جيشا كبيرا الى البلجيك وكاد يقضى عليها قضاء تاما (٨ أغسطس ١٨٣١) . بيد أن فرنسا أرسلت من لدنها نجدات قوية هزمت الهولنديين، واضطرتهم الى التخلى عن البلاد . وقد كاد يؤدّى تدخل فرنسا الى تهديد السلم فى أوربة، لولا أنها سحبت جنودها على الفور حينما طلب منها ذلك . وفى ٤ مايو سنة ١٨٣٢ أعادت الدول قرارها بشأن استقلال البلجيك وضمان حيادها، ولكنها قررت أن يعود الجزء الأكبر من لكسمبرج لهولندا، فلما أبى وليم قبول المعاهدة تدخلت انجلترا وفرنسا ونزعتا الأراضى البلجيكية التى كانت لا تزال فى يده كأنفرس ، غير أن هولندا لم تعترف نهائيا باستقلال بلجيكا إلا فى سنة ١٨٣٩

بلجيكا عقب الاستقلال — عاد الأحرار والكاثوليك الى الصراع الحزبى والتنازع على السلطة عقب الاستقلال مباشرة ، وقد كان محور النزاع بين الأحزاب مسائل التعليم واللغات وقواعد الانتخاب . وقد نجح الكاثوليك فى جعل التعليم الدينى إجباريا فى المدارس الابتدائية، وجعل اللغة الفلمنكية لغة رسمية، هذا



Fac-similé des Signatures apposées sur le traité de 1839

قصاصة الورق

معاهدة استقلال البلجيك وضمان حيادها

(موقعة بامضاء مندوبى الدول العظمى)

الى جعل الانتخاب قائما على قاعدة الاقتراع العام وهو نظام أدّى بطبيعته الى ضياع معالم الأحزاب القديمة وتقسيم البلجيك إلى حزبين جديدين وهما الكاثوليك والاشتراكيون ، وبفضل هذا الحزب الأخير وضعت قوانين عديدة لتحسين حالة العمال الذين ازدادوا ازديادا كبيرا على أثر التقدّم الاقتصادى العظيم الذى جعل البلجيك من أقوى الأمم الصناعية والتجارية فى أوربا .

الفصل الخامس

الدور الأوّل من المسألة الشرقية — ثورة اليونان

تمهيد — ظهرت المسألة الشرقية فى عالم السياسة الأوربية منذ القرن الخامس عشر، ولكن معناها حينئذ كان مقصورا على اتقاء الخطر الذى داهم أوربة من جراء زحف العثمانيين تحت قيادة محمد الثانى ومن خلفه من السلاطين، وأخصهم سليمان الفاتح . ومنذ بداية القرن الثامن عشر، تغير وجه المسألة ، فلم تصبح مسألة اتقاء الأخطار، وإنما مسألة الإبقاء على الأملاك العثمانية أو توزيعها تبعا لتفاوت الدول فى النزعة والمصلحة . ولا ريب أن هذا الانقلاب السياسى منشؤه ما ألمّ بالعثمانيين من الضعف بسبب تلاشى قوّة السلاطين وابتعادهم عن الأساليب الأوربية الحديثة فى ادارتهم وتنظيم جيوشهم ، فغدت ممتلكاتهم تحت رحمة الأمم الأجنبية، شأن كل الدول التى قامت على حكم الفرد، وعلى أساس القوّة وحدها، منذ ابتداء التاريخ الى الآن .

هذا ويمكن تقسيم الأملاك العثمانية التى انسلخت عنها فى القرن التاسع عشر الى ثلاثة أقسام، طبق العوامل التى أدّت الى هذا الانسلاخ، وهى :

(١) الولايات العثمانية التى كان الدافع الأكبر لها اليقظة القومية والشعور بضرورة الوحدة الأهلية مثل اليونان .

(٢) الولايات التى أستأثر بها حكامها، وعملوا على نزعها من العثمانيين كمصر وألبانيا .

(٣) الولايات التى سلختها النمسا وروسيا تنفيذا للسياسة التى وضعتها هاتان الدولتان لوراثة ملك آل عثمان، منذ بداية القرن الثامن عشر، فكانا بذلك أول من فتح المسألة الشرقية بمعناها السياسى الحديث . وسنبحث الآن فى الدور الأول من المسألة الشرقية فى هذا القرن وهو دور تحرير اليونان .

نظرة عامة فى حالة اليونانيين :

(١) منذ عام ١٤٥٣ استخدم العثمانيون النظام الكنسى لحكم الرعايا المسيحين، فأعطى بطريق القسطنطينية سلطة سياسية فوق سلطته الدينية . وإذ كان المذهب السائد بين الطوائف المسيحية فى تركيا هو المذهب الأرثوذكسى، وفق الكنيسة اليونانية، فقد كان اليونانيون بطبيعة الأمر هم القابضون على ناصية الحكم بين المسيحيين فى أنحاء البلاد .

(٢) لم يقتصر أمر اليونانيين على هذه الميزة بل أوصلتهم خبرتهم وحذقهم الى تولى أكبر الوظائف فى حكومة الدولة، لاسيما وظيفة سكرتير الباب العالى أو ترجمانه وقائد الأسطول، ووظيفة حاكم الأفلاق وحاكم البغدان فقد كانت كلها وقفا عليهم .

(٣) أما حالتهم التجارية فقد بلغت شأوا بعيدا إذ كانت مراكبهم واسطة الاتصال بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول . ولا ريب أن معاهدة كاينرجى التى فتحت موانئ البحر الأسود للتجارة الروسية، ساعدت اليونانيين على بناء المراكب الضخمة وتسليحها فى ظل الراية الروسية، لاسيما وقد اتخذوا ثغر أودسا قاعدة لهم ومركزا لتجارتهم .

(٤) ولم تكن حالة اليونانيين الأدبية أقل تقدما من حالتهم المادية والسياسية، فقد رأى أحدهم وهو المصلح الكبير كوريس (Corais) ١٧٧٤ — ١٨٣٣ أنه لا يكمل الشعور القومى إلا بلغة يمتاز الشعب بها، ولما كانت لغة اليونانيين إذ ذاك خليطا

من اللغات الأجنبية المجاورة، فقد أخذ ينفض الغريب عنها، ويستعيض عنه باليونانى العريق، هذا الى أنه أحيا الآداب الاغريقية القديمة، فأيقظ فى مواطنيه ذكرى تاريخهم القديم — على أن اليونانيين لم يكونوا فى الحقيقة نسلا مباشرا للأقدمين من الاغريق، فالمصريون اليوم أقرب بلا ريب الى المصريين الأقدمين من صلة اليونانيين بالاغريق الغابرين .

(٥) كان الفلاحون منهم يتمتعون بنعمة يغبطهم عليها الكثير من أقرانهم فى الروسيا والنمسا، بل فى انجلترا نفسها، فقد كانوا يتمتعون بخيرات أراضيهم ويحتفظون بملكيتها، واذا كان قد وقع عليهم بعض الحيف فى جباية الضرائب، فقد كان المسلمون يشاركونهم فى ذلك، أضف الى هذا أن المسلمين كانوا يجندون وحدهم دون المسيحيين .

(٦) كان الفلاحون فى قراهم يتمتعون بشبه استقلال داخلى، فيعينون الموظفين والقسيسين من بينهم، وكذلك كانت الجزائر الاغريقية تتمتع بمثل هذا الاستقلال، فلم يكن يربطها بالسلطة العليا إلا دفع جزية صغيرة، وتقديم عدد معين من البحارة للأسطول .

(٧) سلم العثمانيون أمر حراسة الطرق لبوليس أهلى من اليونانيين، لمكافحة العصابات التى كانت منتشرة على طول الطرق لتقطع سبيل التجارة، وبذا خلقت النواة التى نشأت منها جيوش الثورة، كما أن الترخيص للمراكب اليونانية بالتسلح لمقاتلة القرصان فى البحار أوجد أداة الكفاح الفاصلة فى الحرب المقبلة بين اليونانيين والعثمانيين .

يتضح من هذا كله أن اليونانيين لم يكونوا مستعبدين بل كان لهم فى الدولة مركز ممتاز من حيث الثروة والسلطة . وأما الأسباب التى دعتهم الى الخروج على العثمانيين فلم تكن لعسف أو لشدّة نزلت بهم، وانما أيقظ اليسر والرخاء اللذين باتوا فيهما أحلاما واسعة . ولما أعلنت الثورة الفرنسية مبادئ الاتحاد القومى والحرية

الأهلية ، تحرك قلب الشعب اليونانى من جديد، كما حركته عوامل النهضة الأدبية من قبل، فعمل على إعادة مجد الاغريق وارجاع عهد الأمبراطورية البيزنطية .

الثـــــورة — لهذا تأسست فى أوديسا سـنة ١٨١٤ جمعية سرية تسمى جمعيـة الاخوان (Hæcteria Philica) لطرد العثمانيـين من أوربة وإعادة دولة الرومان الشرقية، وسرعان ما انضم اليها كل ذى حيثية ومقام من اليونانيين فى السلطنة العثمانية، وانتخب هبسلنتى الضابط فى الجيش الروسى رئيسا لها . فلما قام على باشا والى يانينا بالثورة على العثمانيين، وأجبر السلطان على استخدام الجزء الأكبر من جيشه لقمع هـذه الفتنة ، رأى هبسلنتى فى متاعب العثمانيين فرصـة لا تعوّض ، فنزل فى الأفلاق يوم ٦ مارس سنة ١٨٢١ ونادى الرعايا المسيحيين بالانتقاض على حكم آل عثمان، كما التمس من القيصر تعضيد الثورة فخابت آماله كلها إذ كان الرومانيون والبلغاريون من سكان مقاطعتى الأفلاق والبغدان يحقـدون على حكامهم اليونانيين فأهملوا الدعوة . أما القيصر فكان يعمل حينئـذ مع مترنيخ على أساس المبـادئ الرجعية، ولذا أعلن سخطه على هبسلنتى والدعوة التى قام بها، وهكذا استطاع جيش السلطان أن يخمد الثورة من غير عناء .

ثـــورة المـــورة — غير أن مركز الحركة انتقل بعد ذلك الى الجنوب فى المورة، مهد اليونانيين الأصليين، فنشبت الثورة هناك بقيادة كولوكترونى وكان الغرض منها استقلال اليونان فقط لا طرد العثمانيين من أوربة كما كان غرض الحركة الأولى، وقد اتخذت الثورة فى هذه المرة شكل مذابح عظيمة، فلم ينج من المسلمين إلا المحصنون فى المدن الكبيرة، فثأر السلطان محمود الثانى لبنى جنسه، وقتل بطريق القسطنطينية وكثيرا من المسيحيين. ولما شرع الثوار فى فتح هذه الحصون، والفتك بأهلها كما فعلوا فى تريبولتزا عاد الأتراك الى الانتقام فى خيوس وغيرها . إلا أن كفة اليونانيين بقيت راجحة، فانه لم يمض عام ١٨٢٢ إلا وكان نفوذ السلطان قد تقلص من شبه الجزيرة، وكان ذلك نتيجة لعاملين : (أولا) انشغال جزء عظيم من الجيش

التركى بمحاربة والى يانينا ؛ (ثانيا) سيادة اليونانيين على البحار فى حرب كانت العمدة فيها على الفواق فى البحر ، وسنرى أن ضياع هذه السيادة إبان الحملة المصرية كان من أعظم أسباب اخفاق اليونانيين . على أن السلطان لم يقعد لهذه الهزيمة بل أوفد درملى باشا فى ربيع سنة ١٨٢٣ ورشيد باشا بعد فراغه من يانينا لسحق الثورة فى تلك البلاد . ولكن هذه الجيوش أخفقت فى مهمتها ، فاستنجد السلطان بمحمد على والى مصر ، على أن يوليه المورة وكريد مقابل مساعدته له .

الحملة المصرية — قامت الحملة عام ١٨٢٥ تحت قيادة إبراهيم باشا يحرسها الأسطول المصرى ، فاحتلت كريد أوّلا ، ثم أنزلت الجنود فى المورة ، وبدأت أعمالها الحربية التى كللت بالنجاح ، فقد استولى إبراهيم باشا على مواقع اليونان الحصينة فى مسولنجى وتريبولتزا وأثينا ، وكادت الثورة تنتهى باخفاق تام لولا أن تدخلت حكومات أوربة مدفوعة بعواطف أهلها الذين كانوا يرون فى الثائرين سلالة أبطال هوميروس وأحفاد بركليس فأمدّوا الثوّار بالمال والرجال (وكان أشدّ المتحمسين لنصرتهم بيرون الشاعر الانجليزى) ولما أخذ إبراهيم باشا ينال النصر تلو النصر ، أشفقوا من أن يقضى على اليونان ، فدفعوا حكوماتهم الى التدخل فى الأمر ، غير أننا سنرى أن المصالح الدولية الخاصة كان لها شأن كبير فى التدخل أيضا .

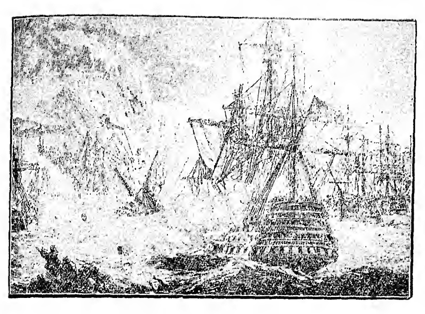
تدخل أوربة — رأت الروسيا وفقا لتعاليم بطرس الأكبر أن تعود الى سياستها القديمة القائمة على تقويض أركان الدولة العثمانية ، فمالت الى مساعدة اليونانيين فى بادئ الأمر ، غير أن النمسا أقنعتها بضرورة التزام الحيدة التامة ، تنفيذا للسياسة الرجعية التى تعاقدتا عليها حتى لا يجر تدخل الروسيا الى أزمة أوربية كبرى قد لا تقف عند حدّ . ولكن انجلترا خرجت على هذا الوفاق الدولى واعترفت بحكومة الثوّار فى مارس سنة ١٨٢٣ على زعم أن حماية التجارة الانجليزية تستلزم الاعتراف بحكومة ذات سيادة فعلية على اليونانيين .

مؤتمر بطرسبرج — إزاء هذه الحالة الجديدة اضطرت الروسيا الى التدخل فى أمر الثورة ، حتى لا تنفرد انجلترا بالانتفاع بأى امتياز أو مركز خاص لها

فى اليونان . ولما كانت الحملة المصرية قد حركت أيضا كل عوامل السخط فى أنحاء الروسيا، فقد اقترح القيصر فى يونيه سنة ١٨٢٤ أن يعقد مؤتمر فى بطرسبرج لحسم النزاع ؛ على أساس تقسيم اليونان وجزرها الى ثلاث ولايات تمنح الحكم الذاتى تحت سيادة السلطان . ولكن النمسا رأت فى هذا التقسيم مجالا لبسط نفوذ الروسيا على الامارات الجديدة، أما بريطانيا فقد خشيت أن يؤدى المؤتمر الى تطبيق المبادئ التى وضعت فى تروباو . وإذ كانت تركيا واليونان قد أعلنتا أنهما لا تتقيدان بقرارات الدول، فلم يصادف المؤتمر نجاحا من أى جانب .

نقولا الأول — وفى سنة ١٨٢٥ تبوأ قيصر جديد وهو نقولا الأول عرش الروسيا ، فخشيت الدول أن يعمل على تنفيذ مبادئ السياسة الروسية القديمة ، باتخاذ مسألة اليونان ذريعة لتمزيق أوصال الدولة العثمانية وتشتيت ملكها . ولذا أسرعت بريطانيا الى إرسال دوق ولنجتن الى بطرسبرج لإقناع الروسيا بالتوسط معا بين الفريقين المتحاربين على أساس استقلال اليونان استقلالا ذاتيا . ولما تم لها الأمر فى اتفاقية أبريل سنة ١٨٢٦ حاولت بريطانيا غل يد الروسيا أكثر مما فعلت، فعرضت على الدول الانضمام الى هذه الاتفاقية فلم تقبل ذلك سوى فرنسا، وفى معاهدة لندرة سنة ١٨٢٧ تعاقدت الدول الثلاث على أن تستقل اليونان بادارة شئونها مع اعترافها بسيادة الدولة، وعلى إجبار الأتراك واليونانيين على عقد هدنة ريثما يتم الاتفاق .

غير أن الباب العالى رفض هذه المعاهدة رفضا باتا مما جعل الحلفاء يسرعون الى محاصرة قوات العثمانيين بواسطة أسطول دولى يقوده "كودرنجتن". ولما كان هذا الحصار يستلزم متاعب جمة فقد تقرر اتخاذ خطة الحزم ضد العثمانيين ، وهى خطة انطوت على دخول الأساطيل المتحدة فى خليج نافارينو لمراقبة الأسطول التركى المصرى الراسى هناك . إلا أنه وقع على الأثر نزاع بين الفريقين أدى الى الاشتباك فى موقعة أسفرت عن تحطيم الأسطول التركى المصرى فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ،



موقعة نافارينو (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧)

فأثارت تلك النكبة غضب السلطان حتى أنه أعلن الجهاد ضدّ الممالك المسيحية وخصوصا الروسيا .

حدث حينئذ أن تولى ولنجتن إدارة السياسة الخارجية فى انجلترا بعد موت كاننج ، فنبذ سياسة سلفه التى أدّت الى إضعاف تركيا ، فى حين أن هذا الاضعاف لم يكن من مصلحة بريطانيا ، وقرر ألا يمضى فى سياسة الارغام التى اتبعت ضدّ العثمانيين . غير أن الروسيا اتخذت من منشور السلطان ذريعة لاعلان الحرب على تركيا فى أبريل سنة ١٨٢٨ ، فوقع ما كانت انجلترا وفرنسا تخشيانه من زمن طويل . لذلك أسرعت الدولتان الى حسم النزاع بأن أرسلت فرنسا جيشا للمورة لاجبار القوّات المصرية على التخلى عنها ، أما انجلترا فقد أوفدت أسطولا للاسكندرية لارغام محمد على على الانسحاب ، ولما تم لهما ماأرادتا ، توسطت الدولتان لعقد الصلح بين تركيا والروسيا ، إلا أن تركيا أبت إلا أن تواصل الحرب ، فقد تمكنت رغم تغيير نظام

الجندية فيها ، واشتغالها بتأليف جيش جديد ، أن تصدّ الروس أمام فارنا وشملا ، ولكن القائد الروسى "ديبتش" استطاع فى سنة ١٨٢٩ ، تطويق المدن المحصنة واختراق جبال البلقان حتى استولى على أدرنة . وحينئذ قرّر الباب العالى قبول الصلح ، مع أن قوات الروسيين كانت قد انتابتها الأمراض ، وأصبحت فى حال لايسمح لها بالتقدّم على القسطنطينية ، فتقرّرت معاهدة أدرنة فى سبتمبر سنة ١٨٢٩ على أن :

(١) تصبح ولايتا الأفلاق والبغدان مستقلتين فى ادارتهما تحت حماية روسيا .

(٢) تتمتع الدول كافة بحرية التجارة داخل البحر الأسود وداخل المضايق .

(٣) يقبل السلطان شروط معاهدة لوندرة بشأن استقلال اليونان استقلالا داخليا على أن تمتدّ حدودها من خليج أرتو الى ڤولا .

غير أن الدول رأت فى مركز اليونان الذى تقرّر على هذه القاعدة ، وسيلة لتدخل الروسيا فى شئونها ، فتقرّرت فى سبتمبر سنة ١٨٣١ أن يكون استقلال اليونان تاما وأن يضمن هذا الاستقلال من يشاء من الدول ، وقد عرض عرش هذه البلاد على ليوبلد أمير ساكس كوبورج فتخلى عنه ، ثم عرض على أتو البافارى فقبله ، وأقام يحكم اليونان الى سنة ١٨٦٤ حين أجبر على النزول عن العرش ، وخلفه جورج الأوّل ثانى أولاد ملك الدانمركة ، وقد بقيت أسرته تحكم اليونان حتى الانقلاب الأخير .

المصادر

أوربة بعد سنة ١٨١٥ ، هازن (Hazen) — كاننج وعصره ، ماريوت (Marriott) اتحاد ألمانيا ، ماليسون (Malleson) — الروسيا ، رامبو (Rambaud) — استقلال اليونان ، أليسون فيليب (Alison Phillip) — اتحاد ايطاليا ، بولتون كنج (Bolton King) — تاريخ أوروبة السياسى ، دبيدور (Debidour) .

الباب الرابع

عهـــد النهـــوض القـــومى

١٨٣٠ — ١٨٤٨

تعتبر ســنة ١٨٣٠ الحدّ الفاصل بين العهد الرجعى الذى بدأ منه مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ ، وعهد النهوض الذى بدأ بثورة يوليه ســنة ١٨٣٠ ، وفيه اســتجمع الأحرار قواهم وأضافوا كثيرا الى صفوفهم ، حتى لم تعــد الحرية مطلب الطبقات المستنيرة فحسب ، بل مطلب السواد الأعظم من الشــعوب التى أفاقت على ضوء الحقائق الواقعة — حقائق اهمــال المصالح القومية والاستطالة على كل شئ عزيز لديهم ، فان الحرية لاقيمة لهــا فى ذاتهــا فى نظر الكثيرين ، ولا تطلب إلا لتؤدّى غاية ، واذا كانت الحرية لم تنتصر فى هذه الفترة فى كل مكان ، فليس ذلك لأنه كان يعوزها تأييد الشعوب ، بل لأنه كانت تنقصها الرؤوس المفكرة المدرّبة التى تستطيع تنظيم القوى والجهود والسير بحكمة نحو تحقيق الغرض الأعلى .

الفصل الأول

فرنسا — ملكية يوليـــه

لويس فيليب

ولى العرش فى السابعــة والخمسين من عمــره . وهو ابن دوق أورليــان الذى عرف إبان الثــورة الكبرى باسم فيليب المساواة لأنه كان من أنصارها والمدافعين عن مبادئهــا وأحد الذين ذهبوا ضحية حكم الارهاب فيها . أما لويس فقــد تشيع

للثورة كما تشيع أبوه ، ودافع عنها فى ڤالمى وجماب ونيروندون ، ثم هاجر من البلاد فرارا من فزع المتطرفين وأشياع الارهاب ، وطفق ينتقل من مكان لآخر بغير أن يحارب ضدّ فرنسا كما فعل غيره من الأشراف ، حتى اذا عقد الصلح الأخير عاد الى



لويس فليب

وطنه ، وأقام ساخطا على ارهاب الملكيين بغير أن يتصل بحزب من الأحزاب فى الظاهر ، ولكنه كان على تمام الوفاق والمودّة مع كبار الأحرار خاصة وأفراد الشعب عامة ، فكثيرا ما كان يسير فى شوارع باريس يحيى بيديه الناس ويحادثهم ويتودّد اليهم حتى أسبغت عليه هذه المزايا عطف الأمة لاسيما الطبقة الوسطى التى أحبته وأعجبت بسجاياه وشمائله .

سياسته — اعتلى لويس فيليب العرش كما رأينا على قاعدة قبوله الحكم الدستورى واعترافه بالدستور كعهد قائم بين الملك والرعية ، فلا تنقض نصوصه بغير أن يعرّض الملك نفسه وعرشه الى السقوط ، إلا أن مصالح لويس الخاصة ورغبته

فى المحافظة على تاجه كانت تقتضى فى نظره التدخل فى شؤون الحكم لتنفيذ غرضين أساسيين وهما مقاومة التغير والانقلاب فى الداخل والاقلاع عن المغامرات السياسية فى الخارج ، على أن هذا التدخل كان تحدّيا صريحا للعهد الدستورى ، فضلا عن أنه كان يخالف مصالح البلاد فى كثير من الأحوال ، ولذلك تعرّضت الملكية الى سخط الشعب ومقاومته لها حتى سقطت فى نهاية الأمر .

الأحــــزاب — وقد واجه الملك فى فاتحة حكمه ثلاثة أحزاب منظمة : (١) أنصار الملكية الشرعيــة الذين كانوا يعتبرون لويس فيليب مغتصبا للعــرش ، ولا يرضيهم على قـلة عددهم وضـعف نفوذهم إلا إسقاط الملكية الجـديدة . (٢) الجمهوريون الذين كانوا يعتبرون ملكية يوليه غير مستندة على قوام شرعى لأنها لم تقم على أساس انتخاب الشـعب . (٣) الملكيون الدستوريون الذين انقسموا فريقين : أحدهمـا يذهب الى أن التغييرات التى أتت بهـا ثورة يوليــه لم تكن إلا مقدّمات جزئية ، وأن الواجب أن يتبع هذه المقدّمات تغيرات أخرى حتى تمشى الأنظمة الحكومية والخطط السياسية مع تطوّرات الرأى العام . أما الفريق الثانى فكان فريق المحافظين الذين كانوا يعتقدون أن عهد الثورة والانقلاب قد انتهى بانتهاء الثورة المـاضية والتغييرات الدسـتورية التى اقترنت بها ، وأن لا مناص لفرنسا اذا أرادت الاحتفاظ بتلك الثمرات من أن تلتزم سياسة السلم فى الداخل والخارج حتى تكتسب ثقة الدول وعطفها .

فوز الملكيين الدستوريين — وقـد رأى فيليب تعزيزا لمصلحته أن ينضم الى جانب رجال الطبقة الوسطى من الملكيين الدستوريين الذين كان يدين لهم بارتقائه العرش ، فعدّل قانون الانتخاب تعديلا يكفل أغلبيتهم فى المجالس التشريعية ، وأعاد تنظيم الجيش على قواعد تجعل للطبقة المتوسطة السيطرة عليه ، وبذلك عوّلت الملكية الجديدة على تعزيز حزب واحد لها ، وأغفلت الأحزاب الأخرى من أنصار الملكية الشرعية القديمة ، وأنصار الجمهورية ، فتعرّضت لمقاومة حزبين لا يستهان بهما ،

حتى اضطرت الى حماية نفسها بوسائل لاتستقيم مع المبادئ التى قامت عليها ، فأخذت تقيد الصحافة والكتابات السياسية بوجه عام ، وتعطى رجال الأمن سلطات استثنائية لمناهضة الملكيين والجمهوريين على السواء خصوصا بعد ثورة فانديه التى قامت بقيادة دوقة برى من الملكيين — واكتشاف تدبير خطير لاغتيال الملك بواسطة نفر من الجمهوريين .

نهوض الاشتراكية — على أن الحركة الجمهورية المعارضة سرعان ماقترنت بحركة اشتراكية كانت قاضية فى النهاية على عرش أسرة أورليان . ذلك أن العسر الاقتصادى الذى نشأ على أثر حروب نابليون ، والانقلاب الصناعى الذى ظهر فى فرنسا فى هذا العهد ترك الملايين من العمال عرضة لأخطار البطالة وانخفاض مستوى الأجور ، من غير أن تعمل حكومة الطبقة المتوسطة شيئا لمعالجتها ، فتمهدت الأفكار لقبول آراء اشتراكية نشرها بعض الكتاب كدواء ناجع لتلك الأدواء الاجتماعية والاقتصادية ، ومن هؤلاء " سنت سيمون " الذى دعا الى الوفاق والاخاء بين العمال وأصحاب الأعمال لمصلحة الجميع بغير أن يضع خطة عملية لتحقيق هذه الأغراض فانصرف العمال الى التمسك بآراء زعيم آخر كان أكثر تقيدا بالواقع وأقرب معالجة لحقائق الأشياء ، وهذا الزعيم الجديد هو لويس بلان (Louis Blanc) الذى بدأ حياته صحافيا ثم عالج مشاكل العمال حتى وضع لحلها برنامجا محدودا فى كتابه الذى سماه تنظيم العمل (Organisation du Travail) وفيه ذهب الى أن لكل انسان الحق فى العمل ، وأن من واجب المجتمع أن يهيئ أسباب العمل للجميع ، وبعبارة أخرى من واجب الحكومة التى تمثل المجتمع أن تدبر المال اللازم لانشاء مصانع أهلية يتولى العمال إدارتها ويقتسمون أرباحها بعد إعادة مايخص الحكومة من رأس المال ، وقد انتشرت هذه الآراء بين العمال انتشارا عظيما ، وتمسكوا بها تمسكا مدهشا حتى أصبحت الحالة تنذر بأن تكون الثورة المقبلة ثورة اجتماعية اقتصادية .

ازدياد المعارضة — على هذا النحو فسدت العلاقة بين الملكية الجديدة وبين شطر كبير من الشعب من ملكيين وجمهوريين واشتراكيين ، ولم تلبث أن

فسدت كذلك بينها وبين الملكيين الدستوريين . ذلك أن الملك رأى عند توليه الحكم أن يعهد بالوزارة الى فريق المتطرفين من الملكيين الدستوريين ، ولكنهم حاولوا أن ينشروا علم الثورة فى أوربا ويحيطوا الملكية بأنظمة تكاد تكون جمهورية ، ولذلك نقلت الوزارة الى شعبة المحافظين أنصار سياسة السلم فى الداخل والخارج ، ولكن تسلط الملك على الحكومة وتدخله فى أعمالها لتنفيذ سياسته الخاصة أدّى الى انقسام الرأى بين زعماء هذه الطائفة : ففريق على رأسه تيير كان يرغب فى أن يتولى الملك العرش بغير أن يحكم ، وفريق آخر على رأسه جيزو كان يذهب الى حدّ اطلاق يد الملك فى انتخاب وزارته دون التقييد برأى المجلس ، وأن يكون له — بصفته رئيس الهيئة التنفيذية الحق فى أن يتدخل فى إدارة الحكم . ولما كانت سياسة جيزو تطابق آراء الملك كل المطابقة ، فقد عهد اليه بتولى رياسة الحكومة إبان الثمان سنوات الأخيرة من عهد الملكية .

وزارة جيزو — كان جيزو يرغب كما كان يرغب الملك فى إيجاد حكومة قوية منظمة ، كما كان يذهب مذهبه فى اعتبار النظام السياسى القائم بالغا حدّ الكمال بحيث لايحتاج الى تعديل ، بل كان يذهب الى أن فرنسا نفسها لاترغب فى حريات أوسع ، وأن الرأى العام لم يتطوّر لدرجة تتطلب توسيع قاعدة الحياة السياسية ، وأن كل ماتتوق اليه البلاد هو السلم فى الداخل والخارج لتستطيع ترقية مرافقها الاقتصادية عامة ، ولذلك بقى الى نهاية الحكم يرفض كل اصلاح فى الداخل ، ويأبى كل تدخل سياسى يؤدّى الى الحرب فى الخارج حتى كانت سنوات حكمه سنوات جمود وعقم فى تاريخ فرنسا .

ومن الغريب أن هذه السياسة كانت تلقى تأييدا فى المجلس ، ولكن الحقيقة هى أن جيزو كان يشترى أصوات النوّاب والناخبين بالمال كما كان يفعل والبول فى انجلترا ، وبذلك أضافت الوزارة الى سوء سياستها ، افساد الحياة المعنوية فى البلاد ، وهدم قواعد الفضيلة التى هى أقوى عماد الحكومات .

المعارضــة — لذلك لاقت سياسة السلم فى الداخل والخارج، وما اقترن بها من الرشوة وافساد الأخلاق ، أشدّ معارضة من الملكيين الشرعيين والجمهوريين والاشتراكيين بل وأنصار تيير . وكانت هذه المعارضة تدور حول السياسة الخارجية التى درجت عليها الوزارة ، كما كانت تدور حول إصــلاح قواعد الانتخاب ، حتى تمتنع وسائل الرشوة التى جعلت قيام هذه الوزارة من المستطاع .

(١) السياسة الخارجية : كانت فرنسا تتوق أبدا الى أن تلعب دورا هاما فى السياســة الخارجية وتقضى على أثار مؤتمر ڤينا ، ولكن لويس فيليب كان يعمل لتأييد السلم حتى فى الظروف التى كان يتعين عليه فيها ألا يتردّد فى قبول الحرب كما وقع إبان الأزمة المصرية عام ١٨٤٠ بل أنه ذهب فى رغبته فى الاحتفاظ بهذا السلم الى حدّ أن عقد مع انجلترا اتفاقا وديا كانت تضحى من أجله كثير من مصالح البلاد ، فلما توترت العلاقات بين انجلترا وفرنسا إبان الأزمة المصرية عمل لويس فيليب بجد وعزم على اعادة هذا الاتفاق ، ولم يتردّد فى الخضوع لانجلترا خضوعا مهينا فى كثير من الشئون ترضية لها كما وقع فى الحادثين المعروفين باسم حق التفتيش وحادث برتشارد .

أما حق التفتيش فيتلخص فى أن انجلترا نجحت فى مؤتمر ڤينا عام ١٨١٥ فى حمل الدول على منع تجارة الرقيق ، ولتحقيق هذا الغرض طلبت الى حكومات أوربا أن تخوّل المراكب الحربية المتجوّلة على شواطئ أفريقيا حق مراقبة وتفتيش المراكب التجارية ، وقد أبت فرنسا فى عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر إجابة هذا الطلب حتى لا تضع سفنها التجارية تحت رحمة الأسطول البريطانى المتفوق فى البحار ، غير أن لويس فيليب أجاب البريطانيين الى مطلبهم بعد توليه العرش مباشرة . ومع أن انجلترا أساءت استخدام هذا الحق فى نظر الفرنسيين فقد وافق جيزو عام ١٨٤١ على عقد اتفاق جديد بتأييد حق التفتيش على شواطئ أفريقيا وفى المحيط الأطلنطى بأ كمله ، ولما رفض مجلس النوّاب المصادقة على هــذا الاتفاق تقرّر حل المجلس وانتخـاب مجلس آخر كان أسلس قيادا من سابقه " يونيه ١٨٤٢ " .

وبعد عامين من هذا الحادث وقعت مسألة برتشارد ومؤداها أن قائد الأسطول الفرنسي في الباسفيك ضم جزيرة تاهيتي الى الأملاك الفرنسية ، إلا أن أحد التجار الانجليز واسمه برتشارد حرض الأهالي على القيام في وجه الفرنسيين والفتك بهم ، ولما قبض عليه ثارت ثائرة الحكومة الانجليزية وصحافتها ، واتخذت المسألة شكلا خطيرا بين البلدين . إلا أن جيزو جرح عاطفة مواطنيه بقبوله الاعتذار عن هذا الحادث ، وتقديم تعويض كاف لانجلترا . ومع أن المعارضة في المجلس اقترحت تأنيبه على تقديم اعتذار لامبرر له ، فقد أنقذته الأغلبية المشتراة بالمال من هذا القرار .

الاصلاح النيابي — على أن خضوع أغلبية المجلس للوزارة في مثل هذه الظروف المهينة بكرامة البلاد دعا المعارضة الى العمل لتوسيع قواعد الانتخاب حتى تقطع سبيل الرشوة وما إليها ، وتنتفع البلاد بخبرة آلاف الفرنسيين الذين يستطيعون القيام بواجباتهم بأمانة واستقلال . وإذ كان جيزو يعارض في هذا الاصلاح كل المعارضة على زعم أن فرنسا لم تنضج بعد لاحداث هذا الانقلاب الخطير ، فقد عوّل أنصار الاصلاح في المجلس على الالتجاء للرأي العام لاقناع الملك بالطرق الشرعية باصلاح الدستور ، ولذلك نظموا في نهاية عام ١٨٤٧ اجتماعات في كافة أنحاء فرنسا لامضاء عرائض الموافقة على هذا الاصلاح . وقد انضم الى الحركة الجمهوريون والاشتراكيون بل ورجال الدين الذين تحولوا الآن عن سياسة استرجاع امتيازاتهم القديمة ، واكتفوا بأن يسعوا لنزع السلطة المدنية المسيطرة عليهم واطلاق حرية التعليم . غير أن جيزو يعاونه لويس فيليب عارض هذه الحركة وضرب على يدها ، فانفجر بركان الثورة في فبراير سنة ١٨٤٨ ، وعبثا حاولت السلطات قمعها ، فإن الحرس الأهلي أبى أن يعتدي على الشعب ، ولذلك اعتزل جيزو الوزارة وأجاب الملك مطالب أنصار الاصلاح .

غير أن الجمهوريين لم يسكنوا لهذه النتيجة ، إذ وجدوا الفرصة التي كانوا يعملون لها منذ أجل طويل ، وقد ساعدتهم الظروف باشتباك بعض مواكب النصر في مناوشة مع الجنود أدّت الى قتل عدد من الأهالي ، فاستخدموا هذه الفرصة لاثارة الشعب

من جديد والمناداة باسم الجمهورية ، وعبثا حاول الملك أن يعيد الأمن الى نصابه فقد عجز تيير الذى عهدت إليه الوزارة كما عجزت الجنود عن إيقاف هذا التيار الجارف ، ولذلك اعتزل لويس العرش وأقام حفيده كونت دى باريس مقامه ، ولما أخذ المجلس يبحث فى هذا التغير الخطير ، فاجأه الشعب بالهجوم وشتت أعضاءه الملكيين ، وأقام على الأثر حكومة مؤقتة اشترك فيها أعضاء جمهوريون واشتراكيون على السواء .

وهكذا تبدّلت الحوادث ، فالجمهوريون حركوا الثورة فى سنة ١٨٣٠ ولكن الملكيين اقتطفوا ثمار عملهم ، وكان الملكيون هم العامل الأكبر فى تحريك الثورة فى سنة ١٨٤٨ ، والجمهوريون هم الذين انتفعوا بها . وهذه الثورة تحقق قول لويس نابليون : "اننا فى فرنسا لا نعمل أصلاحات بل نعمل ثورات" . ففى سنة ١٧٨٩ وفى سنة ١٨٣٠ كما فى سنة ١٨٤٨ لم تكن الحالة تستلزم أكثر من اصلاح الأنظمة الموضوعة ، ولكن عناد وضعف الهيئة الحاكمة وطبيعة الشعب الباريسى السريع التأثر ، حوّلت المطالبة بالاصلاح الى ثورات .

الحكومة المؤقتة — تألفت الحكومة الوقتية من الجمهوريين والاشتراكيين أمثال لامارتين ولويس بلان ولدرو رولان فأعلنوا الجمهورية فى مبدأ الأمر يوم ٢٥ فبراير سنة ١٨٤٨ وقرروا أن تكون الصحافة حرة ، وأن يكون دخول الحرس الأهلى مباحا للفرنسيين جميعا ، وأن ينتخب مجلس لوضع نظام الجمهورية على قاعدة الاقتراع العام ، هذا الى أنهم قرروا أن تفتح فى أنحاء المملكة مصانع أهلية لتحقيق آمال العمال فى مبدأ حق الاشتغال ، وأن تعين لجنة قوامها لويس بلان لتحسين حالة العمال بوجه عام .

غير أن هذه التجارب الاشتراكية لم تكد تبدأ عملها حتى ظهر فشلها ، ولعل الجمهوريين تعمدوا تدبير هذا الفشل للاشتراكية ، حتى لا ينفر أصحاب المصالح من الجمهورية ، ولذلك نراهم بدل افتتاح المصانع كما كان يدعو بلان ، استخدموا العمال فى الأعمال العامّة مقابل فرنكين فى اليوم للعامل ، إن كان هناك ما يعمله ، وإلا

ففرنك ونصف وخفضت بعدها الى فرنك واحد ان كان لا يعمل شيئا . ولما كانت أعمال الحكومة لا تستلزم عددا كبيرا من العمال، فقد اضطرت أن تدفع لهم مرتباتهم من غير أن تتقاضى منهم عملا، فازداد عدد الطالبين من ٦٠٠٠ فى مارس الى ١١٧٠٠٠ فى مايو ، وأصبح الكسل والبطالة ضاربين أطنابهما فى البلاد ، وثقلت ميزانية الحكومة بما يزيد عن سبعة الملايين لدفع نفقات المصانع ! .

على أن فرنسا نجت من هذه الأخطار حينما انعقد المجلس فى مايو ١٨٤٨ ، فانه رغما عما بذله الاشتراكيون من وسائل الضغط للتأثير على الناخبين ، فقد كان خوف السواد الأعظم من الأهالى، وأصحاب الأموال خاصة، من تغلب المبادئ الاشتراكية باعثا لهم على انتخاب الجمهوريين المعتدلين ، من غير الاشتراكيين، فحاول هؤلاء القيام بحركة غرضها ابطال هـذه الانتخابات ، ولكن قضى عليها بمعونة أنصار النظام من كل الطبقات . ولقد أعيـدت الاضطرابات مرة أخرى ، حينما قرر المجلس إلغاء المصانع الأهلية ، ولكنها أخمدت من جديد، وزال الخطر الذى كان يهدد البلاد .

أخذ المجلس يعمل بعد ذلك لانشاء دستور للجمهورية "٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨" فتقـرر فصل السلطات بعضها عن بعض ، على أن توضع السلطة التشريعية فى يد مجلس واحد يتكون من ٧٥٠ عضوا ينتخبون بطريق الاقـتراع العام لمـدة ثلاث سنوات ، وأن توضع القوة التنفيذية فى يد رئيس الجمهورية على أن ينتخب لمـدة أربع سنوات بطريق التصويت العام كذلك .

وكما أن نابليون الأول تقدم لزعامة الثورة الأولى باسم القضاء على كل عوامـل الفوضى والاضطراب، فكذلك تقدم الآن لويس نابليون ابن أخيه « لتثبيت دعائم المجتمع الذى زعزعته الحوادث، واعادة الامن والسلام الى نصابهما » فلما بدأت الانتخابات لرياسة الجمهورية فى ديسمبر سنة ١٨٤٨ نال خمسة ملايين ونصف مليون من الأصوات من بين سبعة ملايين .

أما الجمعية التشريعية فقد تم انتخابها طبق الدستور الجديد فى أوائل العام التالى (مايو ١٨٤٩) وكان ثلثا الأعضاء من الكاثوليك والملكيين وأنصار النظام عامة ، والباقى من الجمهوريين والاشتراكيين ، فتمهد بذلك السبيل لاعادة البلاد الى حالة الطمأنينة والسلام .

الفصل الثانى

إيطاليا

(النهضة الجديدة)

ظهرت عوامل جديدة لتحقيق الوحدة الايطالية على أثر الفشل الذى أصاب الثورات التى قامت بها جمعية الكاربونارى، وأهم هذه العوامل هى :

(أولا) جمعية إيطاليا الفتاة—أنشأها مازينى(Mazzini) ١٨٠٥ – ١٨٨٢ نبى الحرية والوطنية فى إيطاليا ، وقد امتاز منذ صغره بثبات الايمان الوطنى وصفاء القلب، وحدّة العواطف، والقدرة على اجتذاب القلوب . اشترك فى جمعية الكاربونارى، وقاسى فى سبيلها النفى والاغتراب، إلا أنه رأى أن نظامها ومبادئها لا تؤدّى الى تحقيق الآمال القومية، إذ كانت تعوزها القوّة الدافعة التى تحرّك قلب الشعب، فأنشأ جمعية "إيطاليا الفتاة" وجعل شعارها «الله والشعب» فسوّى بذلك بين الايمان الوطنى والايمان الدينى ، وكان لا يقبل فى صفوفها من يزيد سنه عن الأربعين لأن الشباب — كما قال — يكسب الحركة حماسا وقوّة ، ويضاعف انتشار الدين الجديد، دين حرية ووحدة إيطاليا . ولما كان الشباب يعيش بالحركة ، وينمو بالحماس وحرارة الايمان، فقد أشعل مازينى فى قلوب مواطنيه نار الوطنية المقدّسة ، وزوّدهم بقوّة الأمل ، والايمان الثابت بمستقبل البلاد ، والاعتقاد بأن «ايطاليا ملكة العالم ، أرض دانتى ، مركز البابوية ، مهد النهضة

ومبعث النور والحرية ، لن تموت بل ستبعث وتعيد سيرتها الأولى ، فتكون وقد طهرتها الآلام، كذلك من النور يضيء العالم أجمع » ! ولكنه أظهر « أن هذا النور لن ينبعث إلا اذا قدم الايطاليون أرواحهم فداء للوطن ، وتحملوا مرارة النفى والسجن والفاقة ، وتألموا كثيرا ، وتألم ذووهم ومحبوهم فى سبيل الوطن ! » فلم تكن ايطاليا الفتاة فى الحقيقة اذا حزبا ولا جمعية تمثل مذهبا سياسيا ، بل كانت تمثل عقيدة تثبت بالايمان والتقديس ، وتقوم وترتكز على التضحية .



مازينى

ورأى مازينى أن الدعوة لاعتناق عقيدة تخليص الوطن ، والعمل فى سبيل الحرية والوحدة القومية ، قبل أن تحرك جمهور العامة ، فجعل دعوته اليهم تنحصر فى أمور مادية معينة ، بأن بين لهم «أن شقاء العيش وبؤس الحياة التى يقاسونها ، إنما مصدرها

الأجنبى الغاصب ، النمسا ذات القوة والسيطرة على البلاد» و «أن لا سبيل الى تغيير الحالة إلا اذا تغيرت السلطة الحاكمة ، وألقيت مقاليد أمور الأمة الى أبنائها » وكان مازينى يرمى الى إنشاء وحدة أهلية ذات حكومة جمهورية ، "لأن الحرية فى نظره لا تستقيم إلا مع الجمهورية ، ولأنه لا يوجد بين ملوك ايطاليا من يستطيع أن يقود البلاد بغير أن يعرّضها الى حرب أهلية"، وقد أظهرت الحوادث أن زعمه هذا كان على غير أساس . وأما دعوته الى الوحدة القومية فقد تحققت على الرغم من فوارق الميول والتعليم ، والضغائن التى تولدت من انقسام البلاد قرونا طويلة .

وكان مازينى يردّد على الدوام أن لا أمل له فى الوصول الى الوحدة القومية ، أو الجمهورية أو الإصلاح ، إلا اذا طردت النمسا وراء الألب ، لأنها الحائل الأكبر بين ايطاليا وبين سعادتها « وكان يرى أن ذلك الجلاء لا يتم إلا بالحرب» ، لأنها « هى القانون الأبدى بين السيد والمسود الذى يريد أن يكسر الأغلال» . وكانت خطته تنحصر فى استمالة الشعب بأسره الى برنامجه الوطنى أولا ، ثم تبتدئ الحرب غير النظامية «لأنها طريق الحرب الوحيد بين الثوار والجنود النظامية» ولأنها عين الطريق الذى سلكته هولندة وأمريكا والاغريق وغيرهم من قبل . ولكن مازينى تسرع فى إعلان الحرب قبل أن يتم استعداد الشعب ، فلم يكن أسعد حظا من الكاربونارى .

ففى سنة ١٨٣١ تولى شارل ألبرت المعروف بآرائه الحرة عرش بيدمنت ، فدعاه مازينى الى العمل لتحرير ايطاليا ، ولكن شارل رفض أن يشرع فى ذلك بينما كانت الظروف لم تتهيأ بعد لمثل هذه الخطوة الخطيرة ، فدبرت مؤامرة لاغتيال حياته ، وزج اسم مازينى بين المتآمرين ، فكان ذلك مدعاة الى نفور المعتدلين منه ، وفى سنة ١٨٣٤ حاولت عصابة أن تنزل الى سافوى لتحريك الثورة هناك ولكنها فشلت ، ولم تأت بنتيجة سوى زيادة الاضرار بسمعة مازينى حتى اضطر الى الفرار الى انجلترا دون أن تتحقق آماله ، ولكنه أوجد النواة على كل حال ، وخلق العقيدة التى أحيت النفوس الخامدة ، وحركت العزائم الخائرة ، وفتحت العيون التى طال سباتها .

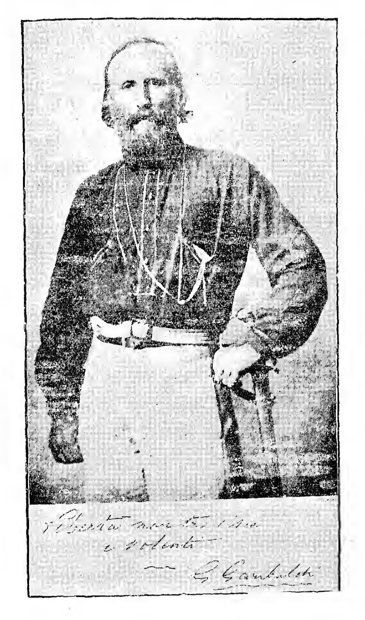
(ثانيـا) حزب العمليين أو جماعة المعتدلين — تألف هذا الحزب من السياسيين ورجال العسكرية والقسيسين وأصحاب الأموال والذين لم يسم خيالهم الى سمـاء مازينى ، أو الذين لم تصل حرارة وطنيتهم الى درجة وطنيته ، وقد كانت خطتهم العمل ضمن دائرة القانون لاصـلاح أغلاط الحكم الحاضر ، ثم الاعتماد على مجهود الايطاليين أنفسهم للتخلص من قبضة النمسا . وكان لسان هذه الجماعة الناطق بآرائهم دازجليو (D'Azeglio) وجيو برتى (Gioberti) الذى كان يرغب فى تأسيس اتحاد من الامارات الايطالية تحت زعامة البابا ، لا زعامة بيدمنت ، كما كان يرغب دازجليو . ومهما قيـل فى تجرّد هـذا الحزب من عقائد التضحية ، التى امتاز بهـا مازينى وأنصاره ، فقد كانت غايته اسعاد ايطاليا وتحريرها ، كما كانت غاية «ايطاليا الفتاة» على الرغم من تشعب طرق الجهاد لبلوغ تلك الغاية . واذا كان مازينى قد أحيا الايطاليين ، فان جماعة العمليين قادوهم الى النجاح والظفـر ، فلكل من الفريقين فضل ونصيب فى النصر النهائى .

حركـة الاصلاح — وقد كانت فاتحة انتصار العمليين أن أخذ البابا بيوس التاسع (١٨٤٦ — ١٨٤٨) بمبادئهم المعتدلة بعض الشيء ، وجعل يعمل للتوفيق بين الكنيسة وأمانى الايطاليين ، فأطلق سراح المعتقلين السياسيين ، وسوّى القسس بالأهالى فى دفع الضرائب ، ورخص بانشاء جيش أهلى ، ثم وافق على إنشاء مجلس استشارى أباح الانتخاب له من غير رجال الدين حتى دهش مترنيخ ، وقال تعليقا على هذه الحوادث : " لقد كنا نتوقع كل شيء ، ما عدا ظهور بابا حرّ والآن وقد ظهر ، فلا حدّ لمـا سنراه فى المستقبل " . والواقع أن تيار الاصلاح غمر كل ايطاليـا ، حتى اضطر دوق تسكانيا أن يجـارى عمل البابا ، كما أن أمير بيـدمنت أطلق الحرية السياسية للأفراد وأنشأ دستورا غدا فيما بعد دستور ايطاليا بأسرها . وأما الأمارات التى قاومت مطالب الاصلاح ، فقد التجأ الشعب فيها الى القوّة حتى أذعن الأمـراء — كما وقع فى نابلى فى ينايرسـنة ١٨٤٨ حين أجبر فرديننـد الثـانى

أن يمنح شعبه الدستور . وأما فى لمبارديا ، حيث كانت العلاقات بين الشعب والحكومة شديدة التوتر ، فقد اتخذت المقاومة شكلا سلبيا ، بأن أضرب الأهالى عن التدخين ليحرموا النمسا من احتكار التبغ ، ولكن المقاومة السلبية لم تلبث أن تحولت الى مقاومة فعلية واسعة النطاق .

حركة الوحدة — ما كادت تصل الأخبار عام ١٨٤٨ بنشوب الثورة فى فرنسا وامتدادها الى النمسا ، وفرار مترنيخ نفسه ، حتى تعززت الآمال فى النصر ، فبدأت ميلان باجبار الحامية النمساوية على الجلاء عنها ، وحذت حذوها البندقية ، ولم تلبث بيدمنت أن زحفت جيوشها على عجل لتأييد الثائرين ، كما أن حكومات تسكانيا ونابلى وروما أوفدت جنودها للمساعدة بتأثير الرأى العام ، فتقدمت الجنود المتحدة ، من موقع الى موقع ، يحدوها النصر حتى تجلت الوحدة الايطالية ماثلة على أفق المستقبل القريب .

إلا أن ضعف القيادة الايطالية وقلة الموارد وسوء النظام ، أدّى الى حرمان الايطاليين من ثمرة النصر ، فقد استطاع رادتزكى (Radetzky) قائد النمسا أن يثبت فى قلاع المنطقة التى يحدّها الأديج من الشرق ، والمانشيو من الغرب ، ولبث يراقب الأمور عن كثب ، وكان الرأى العام قد أخذ ينقسم فى الولايات بين أشياع ملكية بيدمنت ، وأشياع جمهورية مازينى ، كما أن الأحزاب الرجعية — لا سيما فى نابلى أخذت تسترد قواها وتسحب جنودها ، ثم إن البابا الذى فتح طريق الاصلاح تملكه الجزع من أن يفضى الأمر الى ضياع سلطانه القديم ، فأعلن سخطه على الثورة والقائمين بها ، ففت كل هذا الخلاف والانقسام فى عضد الجيش ، وتحين رادتزكى هذه الفرصة لتنظيم صفوفه وامداد قواه بجيوش جديدة من الشمال ، ثم هاجم القوات الايطالية عند كستوزا (Custozza) فى ٢٥ يوليه سنة ١٨٤٨ واضطر شارل ألبرت الى قبول الهدنة . غير أن هذا رأى من العار أن ينسحب من الحرب بعد أن وقف لتحرير الوطن ، فاستأنف القتال ولكن عاوده سوء الحظ فهزم ثانيا



غاريبـــلدي

فى نوفارا (Novara) مارس ١٨٤٩ فنزل عن الملك لابنه فكتور أمانويل ليتفادى تعريض بلاده لشروط قاسية اذا ظل هو على العرش .

سادت السياسة الرجعية على أثر انتصار النمسا ، إلا أن الشعب فى تسكانيا وروما والبندقية قاوم هذه السياسة ، وأعلن الحكم الجمهورى فيها بزعامة جورازى ومازينى ومانين ، ولكن هذه الجمهوريات لم تعمر طويلا ، فقد أعيد النظام القديم فى تسكانيا بمعاونة النمسا ، وتدخل لويس نابليون فى صف البابا — ليكسب ود الحزب الكاثوليكى فى فرنسا وليحول دون احتلال النمسا لرومة — فأرسل حملة أسقطت الجمهورية فى رومة بعد أن دافع عنها مازينى وغاريبلدى دفاعا عظيما ، وخلف فى صحائف حكمها تاريخا زاهرا لا ينسى . وتلا ذلك سقوط البندقية بعد أن جاهدت جهادا هائلا امام الأمراض التى انتابتها ، وقنابل النمساويين التى كانت تصب عليها ، فما انصرم عام ١٨٤٩ إلا وكان الحكم الرجعى القديم سائدا فى كل مكان عدا بيدمنت .

إلا أنه شتان بين الفشل الذى أصاب الايطاليين الآن وبين ما أصابهم سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣٠ ، فمن الألب الى رأس بساروعم ايطاليا نور الحرية ، وتزعزعت السيادة النمساوية من جذورها ، وعقدت الآمال على بيدمنت لتحقيق الغاية العظمى .

الفصل الثالث

ألمانيا

شاهدت السنوات التى تلت ثورة سنة ١٨٣٠ تكوينا عظيما فى الرأى العام ومضاعفة لقوة الحركات السياسية مما يرجع الى العوامل الآتية :

(١) اشتراك الولايات تدريجا عدا النمسا فى الاتحاد الاقتصادى "الزولفرين" بين سنة ١٨١٩ و ١٨٣٦ وازدياد طرق المواصلات ، ووسائل المخابرة ، ومن ثم نشأ رأى عام يتأثر بالحوادث والاضطهادات التى تقع فى أية ولاية على انفراد .

(٢) ظهور أفكار اشتراكية مأخوذة عن لويس بلان غرضها تحسين العمال في ظل حكومات أهلية .

(٣) تحرّش فرنسا بألمانيا ، وازدياد الرغبة في إنشاء حكومة وطنية تتولى الدفاع عنها ، وهذه الرغبة تظهر في الأناشيد العديدة التي تداولتها الألسن حينئذ لا سيما أنشودة الرين (Wach on the Rhiae) .

ثورات سنة ١٨٤٨

الحركة الدستورية — لذلك اشتدّت الرغبة في تغيير النظام الذي فرض على ألمانيا عام ١٨١٥ تغييرا يكفل إسعاد الأفراد وتأييد السلم فلما قامت ثورة سنة ١٨٤٨ في فرنسا تطاير شررها الى ألمانيا حيث اتجهت الحركة من البداية نحو الغاء القوانين التي تقيد الحرية ، وإشراك الشعب في حكم الامارات ، وانشاء اتحاد ألماني عام تمثل فيه أجزاء البلاد بأكملها . وقد تحقق الشطر الأول من هذه الأغراض حين أصدر الديت قرارا بالغاء القوانين الاستثنائية ، كما قررت أكثر الولايات قبول رغبات الرأي العام في الحكم طبق المبادئ الدستورية بحيث لم يقاوم هذه الرغبة سوى بروسيا والنمسا .

بروسيا — ففي بروسيا التي أغفلت الاصلاحات الدستورية منذ هزيمة نابليون ، استأنف الشعب جهاده لدى فردريك وليم الرابع الذي اعتلى عرش البلاد سنة ١٨٤٠ وكان يدين بوجوب التمتع بسلطة لا تحد ولا تسأل إلا أمام الله ، ولذا أخذ يتردّد بين رغباته ورغبات شعبه حتى وفق الى رأي يجمع بين الرغبتين ، وذلك بأن دعا أعضاء مجالس الأقاليم الى الاجتماع في مجلس عام يعقد في برلين من وقت لآخر لابداء الرغبات واستشارة الأعضاء في أمر الضرائب والقوانين . على أن هذا المجلس أنكر على الحكومة تحديد عمله وسلطته ، وجعل ينازعها القوة والنفوذ ، فتقرر أخيرا تعطيل جلساته نهائيا . فلما كان عام ١٨٤٨ تحركت نيران الثورة ، وقام الشعب يطالب

الملك باجابة أمانى البلاد فى الحكم الدستورى، فأسرع الملك حقنا للدماء الى سحب الجند من المدينة وعقد جمعية تأسيسية لوضع دستور واف بحاجة البلاد، ولكن هذه الجمعية أخذت تنازع الملك وحاشيته السلطة بأكملها، فحقد الملك عليها خطة الشدة التى انتهجتها، وأمر بسحق الثورة، وتفريق الأعضاء، على أنه لم يرجع مع هذا الى نظام الحكم القديم، بل منح شعبه دستورا من لدنه يقضى بانشاء مجلسين : أحدهما للأعيان ويعينه الملك، والآخر للنواب وينتخبه الشعب، بطريقة تجعل لأصحاب المصالح المالية السيطرة عليه . وقد كان من حق المجلسين وضع القوانين وفرض الضرائب، كما كان من حق الملك انتخاب الوزارة وإصدار القوانين فى غيبة البرلمان "يناير سنة ١٨٥٠" .

النمسا — أما النمسا فقد اتخذت الحركة فيها شأنا خطيرا لأنها لم تتضمن قلب النظام المطلق الى نظام مقيد فحسب، بل لأنها تضمنت نزعة استقلالية من جانب الولايات المختلفة بحيث تعرضت الامبراطورية الى خطر التفكك والانحلال[1] .

ذلك أنه على الرغم من الكوارث التى أصابت الامبراطورية فى عهد الثورة ونابليون بقى النظام القديم الذى فرض على هذه الولايات قائما لم يتغير، فالنظام الاقطاعى بكل ما يشتمل عليه من تقسيم الطبقات وأعمال السخرة ظل قاعدة الحياة الاجتماعية، كما أن السلطة المطلقة ظلت قاعدة الحياة السياسية، بل أن هذا النظام اشتدت وطأته فى عهد مترنيخ الذى كان يحارب المبادئ الحرة ويعمل جهده لحراسة الامبراطورية من عدوى الثورة، فظل ثلاثين عاما يأبى كل مطالب الأحرار ويحيط البلاد بسياج من الشرطة والرقباء، ويقيد انتشار الكتب وتعاليم الجامعات حتى تبقى النمسا وولاياتها بعيدة عن كل المؤثرات .

---

(١) وكانت النمسا تتكون من أربعة أجناس مختلفة : (أ) الصقالبة الشماليون فى بوهيميا ومورافيا وشمال المجر، والجنوبيون فى المكروات والصرب ودلماتيا . (ب) اللاتينيون فى ترنسلفانيا وبكوفينا والتيرول وتريستا . (ج) والمغول فى سهل المجر الأعظم . (د) والألمان الذين يحتلون ضفتى الطونة الى برسبرج .

غير أنه على الرغم من كل هذا الاحتياط تسربت مبادئ الحرية والقومية فى أركان الامبراطورية ، فان الانقلاب الصناعى الذى حدث فى تلك الأثناء غير معالم الروابط الاجتماعية والاقتصادية ، وضاعف من قوة الطبقة الوسطى والطبقة العاملة وجعلها تتصادم مع النظام الاقطاعى والسياسى السائد فى البلاد ، خصوصا حينما تم بناء السكك الحديدية ، وربطت أطراف البلاد ارتباطا ساعد على تكوين رأى عام ، هذا الى أنه اقترن بهذه الحركة الاقتصادية أخرى فكرية فى أكثر الولايات : ففى النمسا تولت الجامعة نشر دعوة الحرية بين الجماهير كما تولاها فى بوهيميا پلاكى (Pelacky) الذى أحيا ذكريات التاريخ الأهلى وكولار (Kollar) الذى دعا الصقالبة جميعا الى الاتحاد وجمع الكلمة ، وكذلك تولى حركة الإحياء والانتعاش القومى فى المجر كشوط (Kossuth) أول من أصدر صحيفة بلغة البلاد الأهلية ، فأثيرت بذلك الروح القومية فى الولايات كما أثيرت الرغبة فى إعادة حكوماتها الأهلية .

فلما جاءت أنباء الثورة الفرنسية عام ١٨٤٨ تحرّكت عوامل الحرية والقومية فى أنحاء الامبراطورية . ففى المجر اشتدّت المطالبة الاستقلال الداخلى وتعيين وزارة مسئولة ، كما أن بوهيميا قدّمت طلبات مماثلة ، وأصرت على ضرورة اعتبار كل اللغات متساوية ، وفى فيينا قدّم جمهور الطلبة ورجال الصناعة والتجارة ملتمسا بالغاء الرقابة على الصحافة وانشاء مجلس نيابى ، وعززوا مطالبهم بالقوة والعنف حتى انتشر الاضطراب والهياج فى كل مكان ، واضطر مترنيخ الى الفرار الى انجلترا على عجل خصوصا وقد اشتدّت الأزمة بالثورة القائمة فى لمبارديا والبندقية ، وتدخل بيدمنت والولايات الايطالية لمعاونة الثائرين .

ولما كانت الثورة قد فاجأت الحكومة الامبراطورية وأذهلتها عن العمل قرّر الامبراطور ووزراؤه الخضوع لمطالب البلاد عامة ، فمنحوا المجر وبوهيميا حكومات مستقلة ، كما خوّلوا الثائرين فى فيينا حق انشاء حرس أهلى ، وصرحوا بقبول مبدأ الحكم الدستورى على قاعدة التصويت العام مع عقد جمعية تأسيسية لوضع أحكام الدستور . غير أن الحكومة لم تلبث أن قبضت على ناصية الحال حينما تبين أن الولايات

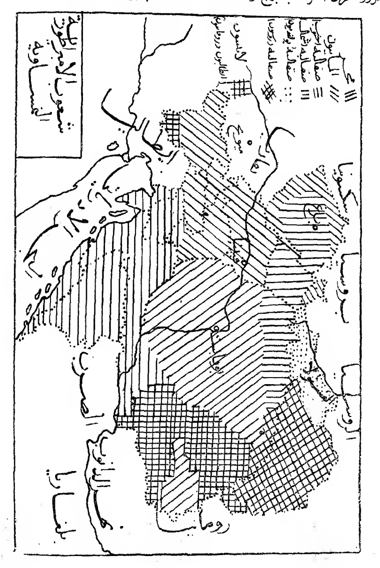
الثائرة منقسمة على نفسها انقساما جنسيا فت فى عضدها جميعا وساعد حكومة الأمبراطور فى التغلب عليها .

ذلك أن صقالبة بوهيميا وجدوا الفرصة سانحة لانشاء جامعة سلافية لمقاومة الألمانيين الذين كانوا يعملون حينئذ لوضع أساس الوحدة الجرمانية ، والمجريين الذين كانوا ينادون باخضاع العناصر السلافية فى المجر وما اليها من المقاطعات ، ولذلك عقدوا مؤتمرا فى منتصف العام لجمع شتات العناصر السلافية المهددة ، بيد أن هذه الحركة اعتبرت حركة انفصالية تمس أهم مصالح الامبراطورية . ولذلك وجه القائد وندشجراز اقمع حركة الثائرين ، فدخل مدينة براج عنوة ، وأعلن حل مؤتمر السلاف و إلغاء كل الامتيازات التى نالتها بوهيميا من قبل .

و بعد شهور قليلة أصيبت فيينا بما أصيبت به براج ، إذ بينما كان المجلس التأسيسى يضع قواعد الدستور — وقد قرر فعلا إلغاء النظام الاقطاعى — كانت العاصمة ميدانا لاضطرابات وقلاقل لا تنقطع ، فخرج الامبراطور وحكومته من المدينة ، وعهد بقمع الثورة الى وندشجراز ، فحاصرها بجيش يبلغ ستين ألف مقاتل ، وجعل يطلق عليها النيران حتى سلمت . وحينئذ أعلن الامبراطور فرنسوا جوزيف الذى اعتلى العرش فى هذه الأثناء بعد اعتزال فرديناند — حل الجمعية التأسيسية و إصدار دستور من لدنه يطبق على الامبراطورية بأكملها « مارس سنة ١٨٤٩ » .

أما المجر فلم يتم إخضاعها بهذه السهولة لأن الامبراطورية ما كانت تواجه فى تلك البلاد مدينة ثائرة بل شعبا يضطرب بالقوة والحياة . و يرجع أمر هذا النزاع الى أن المجريين سلكوا مسلك الأمة الكاملة الاستقلال مذ خولتهم الامبراطورية حق انشاء حكومة ذاتية ، فألفوا جيشا وطنيا ، وأوفدوا من لدنهم سفراء الى الدول ، وطفقوا يضعفون من علاقتهم بالأمبراطورية شيئا فشيئا حتى أحفظوا قلوب النمساويين ، هذا الى أن المجريين أساءوا الى الصقالبة المتصلين بهم ، فأنكروا عليهم نعمة الحكومة الذاتية التى ظفروا بها وجعلوا يعاملونهم معاملة التابع الذليل ، ولما

طال أجل النزاع وأبى المجريون أن يخففوا من غلوائهم ، أعلنت الصرب انضمامها الى الكروات ، وسيرت الولايتان جيشا الى المجر بقيادة (Jelatchitch) تعاونه جيوش وندشجراز ، على أن المجريين نشطوا للقاومة فنكلوا بأعدائهم ، ولم يلبثوا أن قرروا عزل أسرة هابسبرج واعلان الاستقلال فى أبريل سنة ١٨٤٩



غير أنه لما كان القيصر نقولا الأول عدوّا لكل الثورات ،وكان يخشى أن تتأثر بولندا بعدوى الثورة فى المجر،فقد سير لمعاونة الأمبراطور جيشا يبلغ ١٥٠٠٠٠ مقاتل، فاستطاعت الجيوش المتحالفة أن تبطش بالمجريين حتى اضطر كشوط وأتباعه الى الفرار، فتقرر على الأثر تعطيل الديت المجرى ، وإلغاء كافة الحقوق التى حصلت عليها البلاد، فضلا عن فصل الولايات السلافية التابعة لها وانشاء ادارات خاصة بها، وتقسيم ما بقى من المجر الى مقاطعات إدارية .

بهذا تم انتصار النمسا فى كل الولايات ، وخضعت البلاد مرة أخرى لحكم الفزع والارهاب حتى ان الدستور الذى أعلنه الأمبراطور مختارا عام ١٨٤٩ بقى عاطلا ثم ألغى على اعتبار أنه لا يطابق مبادئ الأمبراطورية . على أنه اذا كانت الولايات النمساوية قد فقدت كل أمانيها فى الحرية والقومية فقد استبقت الاصلاحات الاجتماعية التى أقرتها المجالس إبان الثورة بحيث تلاشى النظام الاقطاعى نهائيا من أنحاء الأمبراطورية .

حركة الاتحاد الألمانى — بينما كانت النار تستعر فى كل أنحاء ألمانيا والنمسا لاطلاق الحرية الدستورية فى البلاد، كانت تنمو الى جانبها حركة أخرى غايتها تحقيق الاتحاد القومى، فمنذ بداية الثورة اجتمع عدد من الأحرار فى مدينة هيدلبرج، وقرروا أن يجتمع مؤتمر تمهيدى فى مدينة فرنكفورت للبحث فى أنجع الوسائل للوصول الى هذه الغاية، وشكلوا لجنة من سبعة أعضاء لوضع قواعد العمل .

مؤتمر فرنكفورت — وقد اجتمع عملا بهذا القرار نحو ٥٠٠ من كبار أعضاء المجالس النيابية فى ألمانيا ، وقرروا الشروع فى إجراء انتخابات عامة فى كل الولايات لعقد برلمان عام يتولى تأسيس الاتحاد الأهلى على نظام وطيد ، ولما اجتمع هذا البرلمان — مايو ١٨٤٨ — أعلن بعد مناقشات طويلة اتحاد الولايات الألمانية بأكملها ما عدا النمسا، بحجة اشتراك عناصر كثيرة غير ألمانية فى أمبراطوريتها، وكذلك انتخاب فردريك وليم ملك بروسيا أمبراطورا على أن يكون حكمه دستوريا .

ولكن فردريك أبى قبول هـذا المنصب : (أولا) لأنه جاءه من قبـل نواب الشعب ، لا من قبل الأمراء ، (وثانيا) لأن أمراء سكسونيا وورتمبرج وهنوفر رفضوا أن يعترفوا لأمير مثلهم بالزعامة عليهم ، (وثالثا) لأن النمسا التى شغلتها حوادث الثورة وصرفتها عن البحث فى شـؤون ألمـانيا عادت الى التدخل فى ميدان السياسة الألمـانية ، فاحتجت على قرار إخراج النمسا من الاتحاد الألمـانى ، وعلى اسـناد الأمبراطورية لبروسيا ، ولم تترك مجالا للشك فى عزمها على تأييد احتجاجها بالقوة . ولمـا كانت بروسـيا على غير اسـتعداد لمقابلة القوة بمثلها ، فقـد قرر ملكها رفض المنصب الذى عرض عليه كما قرر استدعاء النواب البروسيين من المجلس على مثـل ما فعلت النمسا وغيرها من الولايات المعارضة للاتحاد ، ولذلك انتقلت البقية الباقية من الأعضاء الى ستتجارت حيث قبض على البعض وشتت شمل الآخرين ، فانفرط عقد البرلمـان فى يونيه سنة ١٨٤٩ دون أن ينجح فى تحقيق المهمة التى تولاها .

حاول ملك بروسيا على أثر هذا الفشل أن يؤلف اتحـادا على قاعدة جديدة ، فاقترح على أمراء الولايات أن ينشئوا اتحادا يديره مجلسان : أحدهمـا تنتخبه الحكومات ، والآخر ينتخبه الشعب على أن تكون الزعامة لملك بروسيا ، ولكن النمسا عرقلت هـذا العمل ، وأوعزت الى الأمراء برفض المشروع ، ثم أخذت تعمـل لاستعادة سلطة «الديت» فجهزت جيشا قويا ، وأنذرت حكومة بروسـيا بالابتعاد عن كل عمل من شأنه تغيير النظام القديم . ولمـا كانت بروسيا على حالة لا تمكنها من مناهضتها ، فقد خضعت لطلبها ، وتم الاتفاق على ذلك فى ألمتز فى نوفمبر سنة ١٨٥٠ ، على أن هـذا الاتفاق لم يكن إلا اتفاقا وقتيا ريثما تعـدّ بروسيا العدّة لتجبر خصمها « بالدم والحديد » على قبول رغبة الشعب فى تحقيق الاتحاد القومى .

الفصل الرابع

محمـــد على الكبير

(الدور الثانى من المسألة الشرقيـــة)

تمهيـــد — قوّضت الثورة الفرنسية وحروبها دعائم النظام القديم فى أوربة ، وفتحت المجال لذوى المقدرة الذين لم تكن تظهر مقدرتهم فى عهد كان الحكم فيه بيد الأشراف وحملة الألقاب : ففى فرنسا تمخضت الثورة عن رجال عظام كانوا غرة فى جبين التاريخ مثــل : ميرابو ودانتون وديمورييه وكارنو ونابليون وغيرهم كثير ؛ وفى أوربة ظهر بلوخر وولنجتن وستين وشارنهرست ، وفى مصر أيضا ظهرت قوّة جديدة وشخصية فذة نتيجة للثورة وحروبها ونعنى بها محمد على .

فمحمد على إذن وليد الحوادث كنابليون سواء بسواء ، وتراه قد عمل مثله على تشييد عرش وطيد الدعائم ، وأمبراطورية رفيعة العماد فى الشرق ، على نحو ما شاد الآخر فى الغرب ، وهو مثله أيضا فى وقوف الدول فى وجهه للقضاء على أحلام كان يخشى أن تهدّد الســلام العام ، ولو كان محمــد على أصر كما أصر نابليون على مقاومة الدول الى النهاية ، لكان مصيره مصير الآخر ، ولكنه انصاع للقوّة القاهرة ، فبقى على عرشه وترك ملكا رفيعا لأحفاده يتوارثونه من بعده .

نشأ محمد على فى قوله من أعمال ألبانيا ، وسافر الى مصر مع الحملات العثمانية التى أوفدت لاخراج الفرنسيين من أملاك السلطان ، وأقام بها مع الجنود الألبانية بعــد جلاء الفرنسيين ، وجعل يراقب الحوادث عن كثب علّه يصيب منها غرضا ، فقد أعقب خروج الفرنسيين فترة من الاضطراب والفوضى التى نشأت عن تنازع الحكم بين العثمانيين من جهة والمماليك من جهة أخرى . فقد حاول العثمانيون أن يستفيدوا من الظروف التى هيأتها لهم حملة نابليون ليحكموا البلاد فعلا لا اسما ، بينما كان

المماليك يحاولون استرداد نفوذهم القديم ، يظاهرهم فى ذلك الانجليزى الذين مافتئوا منذ الحملة الفرنسية يعملون على بسط نفوذهم على البلاد ، ويحاولون الاستيلاء على السواحل ، ولذا جعلوا يشايعون المماليك ليظفروا بالحكم وفى هذا ظفر لهم .

ولقد تحولت الحوادث بسرعة مدهشة ، فقد حاول العثمانيون أن ينصبوا شركا لأعدائهم حتى يفتكوا بهم مرة واحدة ، ولكن نياتهم عرفت ، وأفلح المماليك فى الخلاص بمساعدة الانجليز . وحينئذ اتسعت مسافة الخلف بين الفريقين ، وتحوّل النزاع الى حرب تفصل بين الحزبين . وكان خسرو باشا والى مصر يقود الجنود العثمانية ، بينما كان البرديسى يقود زمام المماليك ، فانتصر البرديسى بمساعدة الانجليز عند بنى سويف ودمنهور سنة ١٨٠٢ ، وعبثا حاول أن يضم الى جانبه محمد على الذى أبى أن يحاز بادئ الأمر الى جانب فريق دون الآخر ، وفضل أن يترك الفريقين يتطاحنان حتى تتهيأ له الفرصة .

ظهور محمد على — فلما انجلى الانجليز عن مصر بعد معاهدة أميان ، أصبح المماليك بلا نصير يحميهم عند الحاجة ، فارتدوا الى الصعيد وتحصنوا فيه ، فاستأنف خسرو الجهاد لسحق قواهم ، ولكن الجنود أبوا السير حتى يعطوا رواتبهم المتأخرة ، ولما حاول خسرو أن يقمع الفتنة ، هزم وفرّ الى دمياط ، وأصبح طاهر باشا وجنوده الأرنؤد مطلق التصرف فى البلاد ، ولكن الانكشاريين نازعوا طاهر باشا الحكم حتى أدّى الأمر الى قتله وتولية زعيمهم أحمد باشا . حينئذ خلف محمد على طاهرا فى قيادة الأرنؤد ، واستدعى زعيمى المماليك البرديسى وإبراهيم بك ، واتفق معهما على طرد الانكشاريين والاستئثار بالحكم . ولما تم لهم الأمر ، أخذوا فى القضاء على كل من يهدّد سطانهم ، فاعتقلوا خسرو ، وقتلوا خلفه الجزائرلى . ولما حضر الألفى الكبير من انجلترا لتنفيذ رغباتها هزموه ، وشتتوا قواته ، حتى أصبح الجو خاليا للشركاء . إلا أن محمد على لم يكن بالرجل الذى يرتضى هذه الشركة ، فجعل يثير الجنود لمطالبة البرديسى برواتبهم المتأخرة (لأنه تظاهر بترك الأمر له فى حكومة

البلاد) فأخذ هـذا يرهق الأهالى بجباية الضرائب ، بينما كان محمد على يتحبب اليهم وينتصر لهم . ولما آنس من الجند والأهالى التألب على المماليك، شرع فى التنكيل بهم، فحاصر البرديسى وإبراهيم وأجبرهما على الفرار . وهكذا تخلص محمـد على من أعدائه واحدا بعـد واحد ، حتى أصبح مطلق التصرف فى الحكم . إلا أنه تريث فى قبول منصب الحاكم حتى تتهيأ له الظروف ، فأعاد خسرو الى مركزه القـديم ، ولما خلفه خورشيد اعترف به كذلك ،ولكن جنود الوالى أتت من الفظائع مااستفز الأهالى، فساروا فى موكب كبير الى منزل محمـد على ، وطلبوا اليـه أن يتولى الحكم بينهم، ثم حاصروا خورشيد حتى وصـل محمد على مرسوم التولية من السلطان فى يوليه سنة ١٨٠٥

مصاعب محمد على — على أن مصاعب محمد على لم تنته عند هذا الحدّ، فقد كان المماليك من أنصار البرديسى والألفى يناوئونه، وانجلترا تساعدهم بالضغط على تركيا لاستدعائه ، والجنود تطالبـه بمرتباتها . أما الرواتب فقد تيسر له دفعها . وأما الاستدعاء فقداستطاع ردّه بحمل الأهالى على المطالبة باستبقائه، وإرساله هدايا نفيسة للبلاط السلطانى. فلم يبق إلا المماليك،ولكن البرديسى مات فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ وتلاه الألفى فى يناير سـنة ١٨٠٧ ، فتوطد عرش محمـد على بعض الشىء، إلا أن مركزه بقى مع ذلك مزعزعا لدى الباب العالى حيث كان أعداؤه يكيدون له سرا، ولكنه قدّم خدمات كثيرة لتركيا فثبت بذلك ملكه فى مصر كما سترى .

(١) حاولت انجلترا فى سنة ١٨٠٧ الاستيلاء على مصر لردّ الغارة التى كانت تخشاها من جديد من قبل نابليون، ولاقامة حكومة من أصدقائها المماليك، فسيرت حملة بقيادة «فريزر» فى مارس سنة ١٨٠٧ ، إلا أن الألفى الذى كانت تعتمد عليه انجلترا فى تحريك الثورة فى الداخل كان قد توفى كما رأينا،فاستطاع محمد على أن ينزل بالانجليز من الهزائم ما اضطرهم الى الجلاء عن أرض مصر فى سبتمبر سـنة ١٨٠٧

(٢) ظهر الوهابيون فى شبه جزيرة العرب كحزب دينى بادئ الأمر ، وكان غرضهم تطهير الدين مما أدخل عليه من البدع على زعمهم ، ولكنهم تحوّلوا بعد ذلك الى حزب سياسى غرضه الاستيلاء على البلاد العربية بأكملها ، فأوفد محمد على لقتالهم ، فنكل بهم وخرب عاصمتهم الدرعية ، وقد كان من نتائج هذه الحوادث أن حسن محمد على علاقته مع تركيا ، كما أنه وطد مركزه نهائيا فى مصر لما تحفز المماليك لمقاتلته إبان هذه الحروب ، فقد أخذ يستدرجهم حتى أوقعهم فى شرك نصبه لهم فى القلعة فى مارس سنة ١٨٠٧ ، ففتك بهم جميعا واستراح من شرهم .

مطامع محمد على — ما كاد محمد على يستقر على عرشه ، حتى جعل يهيئ الوسائل لبناء أمبراطورية واسعة فى الشرق . ولما كان هذا الغرض يستدعى ثروة طائلة ، فقد عوّل على غزو السودان لطرد بقايا المماليك الذين التجأوا اليه ، واستخراج الذهب من أراضيه ، وفتح مورد جديد من الرجال لجيشه وبحريته . وقد نجحت هذه الحملة من الوجهة الحربية ، إلا أنها لم تحقق كل مطامع الباشا ، لأن الذهب لم يوجد ، ولأن تجارة القوافل كانت قليلة ، والجنود السودانيون لم يحققوا الأمل فيهم . ولذا التفت محمد على منذ ذلك الحين الى استثمار موارد مصر ، والانتفاع بخيراتها . فنظم شؤونها الاقتصادية حتى تقوم بما يطلب منها من النفقات ، كما نظم شؤونها الادارية والعلمية حتى تستطيع أن تقوم بالدور الهام الذى كان يعدّه لها .

أخذ محمد على بعد أن تمت له كل معدّاته يعمل لتحقيق غرضه . فما كادت تركيا تستدعيه لحرب اليونان ، حتى أجاب الدعوة ، ولولا تدخل الدول على نحو ما بينا فى الفصل الخاص بثورة اليونان لخرجت مصر من الحرب ظافرة بغنيمة ثمينة .

النزاع مع الباب العالى — على أن محمد على لم يفته الضعف الذى أظهره العثمانيون فى مقاومة اليونانيين ، فعزم على أن يقتطع لنفسه شيئا من أملاكهم ، لا سيما بعد أن خسر فى الحرب اليونانية خسارة فادحة ، ولم يجن شيئا مما كان يطمع فيه ، فتذرّع للحرب بعدّة وسائل ، منها الخلاف بين مصر وأمير عكا على تسليم الفارين

من الجندية من المصريين ، وامتناع ذلك الأمير عن توريد الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول المصرى . فسير الى سوريا جيشا يعززه أسطول كبير، وعقد اللواء لابنه ابراهيم « أكتوبر سنة ١٨٣١ » وسرعان ما سقطت الحصون المنيعة أمامه حتى اذا بلغ «بيلان» تلاقى بخسرو باشا فى معركة أسفرت عن فوز المصريين، ثم سار شمالا الى أن اخترق جبال طوروس، ونزل فى اقليم أطنه، وتحصن بالقرب من قونية، فهاجمه حينئذ رشيد باشا، ولكنه هزم هزيمة مزقت صفوف العثمانيين، وفتحت طريق القسطنطينية أمام المصريين « ديسمبر سنة ١٨٣٢ » .

تدخل الدول — حينئذ استنجد السلطان بالدول ، ولكنها شغلت بمصالحها الخاصة عنه ، فتحوّل الى الروسيا ، وكانت هذه تراقب الفرص للتدخل لنصرة تركيا لأنها كانت تخشى أن يتبوأ محمد على القوى مكان السلطان الضعيف ، فقبلت أن تمده بالمساعدة سريعا ، وأرسلت مورافيف مندوبا للاسكندرية لتهديد محمد على حتى يضطر الى إيقاف الزحف عند كوتاهية ، هذا بينما كانت القوات الروسية البحرية والبرية ترسل تباعا الى البوسفور .

أسرعت الدول حينئذ الى إجبار الباب العالى على قبول طلبات محمد على حتى لاتتعرض لخطر تدخل الروسيا الذى هو أشد وطأة من خطر الوالى، فقبل السلطان بعد تردّد طويل ، وأبرم اتفاقية كوتاهية فى ١٦ مايو على أن يتزل لمحمد على عن سوريا، وأن يولى ابنه ابراهيم على أطنة، فانجلت القوات الروسية عن تركيا على الأثر، ولكن بعد أن أبرمت مع السلطان معاهدة «هنكيار أسكله سى» سنة ١٨٣٣ على أن تتولى الروسيا الدفاع عن تركيا عند الحاجة فى نظير اغلاق البوغازات فى وجه أعداء الروسيا . ولم يكن غرض القيصر من المعاهدة إسقاط الدولة أو تغيير مركزها السياسى، بل كانت غايته أن تبقى الدولة حافظة لمركزها ، ولكن يتولى القيصر حمايتها من الحركات الخارجية أو الداخلية التى ربما تثير الدولة من رقادها ! وبهذه السياسة كان يرغب فى وضع الدولة تحت سيطرة الروسيا بغير فتح ولا إعلان حرب، إلا أن الدول

أخذت تعمل منذ ذلك الحين لالغاء المعاهدة، فالنمسا نسخت هذه الاتفاقية بمعاهدة مع الروسيا مؤدّاها أن تعمل الدولتان معا لحفظ كيان تركيا ومنع محمد على من مدّ نفوذه الى الولايات الأوربية، واذا حصل أى انقلاب فى النظام الحكومى فى القسطنطينية فانهما تعملان معا لوضع النظام الجديد، أما انجلترا وفرنسا فقد أعلنتا أنهما « تمنعان حدوث أى تغيير فى علاقات الدولة العثمانية بدولة أخرى يكون من شأنه التأثير فى سلامتها واستقلالها » .

عودة النزاع — على أن صلح كوتاهية لم يكن فى الواقع إلا هدنة مؤقتة، لأن السلطان لم يسكن لهذه الهزيمة فلما قامت الثورة فى سوريا "مايو سنة ١٨٣٤" على أثر ادخال ابراهيم باشا نظام القرعة العسكرية فيها، فضلا عن تأثير الدسائس التركية، تحفز السلطان للانتقام، فنصحته الدول بالعدول عن هذه المجازفة، وأعلنته الروسيا أن المعاهدة التى بينهما دفاعية محضة، هذا الى أن الثورة أخمدت فى الشام، فعدل السلطان مؤقتا، ولكنه مافتئ يعمل بمساعدة انجلترا على تقوية الأسطول والجيش واثارة الخواطر ضدّ محمد على، فضلا عن استنزافه مالية الحكومة المصرية بطلبات متكررة، فأراد محمد على أن يضع حدّا لهذه الحالة باعلان الاستقلال عام١٨٣٨، حتى لاتتعرض أعماله فى مصر وغيرها للضياع، إلا أن الدول وقفت فى سبيله كى تبقى تركيا كما كانت دعامة السلام فى الشرق. ولذا سافر محمد على الى السودان لاستخراج الذهب، حتى يستغنى — كما قال — عن الجيوش والأصحاب فى معاملة الباب العالى.

وبينما كان متغيبا فى السودان، حشد السلطان جنوده على حدود سوريا ليغسل الاهانة التى لحقت به من أعمال محمد على، ويقضى على خطر كان يهدّد الخلافة ذاتها، فأعادت الدول نصحها بالعدول عن أعمال العداء، — إلا مندوب انجلترا فانه لم يبد رأيا قاطعا — فتشجع الباب العالى لاعلان الحرب خصوصا وقد أدرك أن الدول لاتسمح على كل حال بالقضاء على العثمانيين. أما محمد على فقد أمر ابراهيم بالبقاء داخل الحدود حتى يهاجم، وأعلن على الملأ أن لارغبة له فى الحرب، حتى يكتسب عطف الدول

ولكن الدول لم تنجح فى ردّ جنود السلطان بعد أن زحفت بقيادة حافظ باشا داخل الحدود، فاتخذ ابراهيم خطة الدفاع فى بادئ الأمر، ولكنه لم يلبث أن طارد العثمانيين الى «نصيبين» حيث جرت موقعة بين الفريقين دحر فيها العثمانيون "٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩" . وقد تلت هذه الهزيمة نكبة أخرى لا تقل عنها شأنا فقد توفى السلطان محمود الثانى قبل وصول أنباء المعركة ، وتولى بعده السلطان عبد المجيد ولم يبلغ السادسة عشرة من عمره، وأصبحت الدولة فى يد رجال السراى، خسرو باشا وغيره فتحرّك الأسطول العثمانى بقيادة فوزى باشا الى الاسكندرية حيث سلم الى محمد على نكاية فى أولئك الرجال .

موقف الدول — ولقد ساء الدول، لا سيما انجلترا، هذا النصر، فقد كانت تخشى أن يؤدّى انحلال تركيا الى زعزعة السلم فى أوربة، وتعريض طرق الهند البرية الى مخاطر عظمى باستيلاء محمد على عليها، هذا فضلا عن الخطر الذى ينشأ عن تدخل الروسيا . أما فرنسا فكانت تعطف على رغبات محمد على نظرا للعلاقات الودّية التى كانت تربط البلدين، ولأنها كانت تؤمل أن يكون امتداد نفوذ الباشا مقرونا بامتداد نفوذها فى الشرق ، وأن يحول ذلك النفوذ بين انجلترا والروسيا وبين مطامعهما فى الشرق . غير أن فرنسا كانت تخشى كانجلترا الخطر الذى تتعرّض اليه مصالحهما اذا تدخلت الروسيا بحكم المعاهدة التى تربطها بتركيا ، ولذا جعلت تعمل باتفاق تام مع انجلترا فى بداية الأمر . فلما أعلنت الروسيا رغبتها فى التخلى عن العمل بانفراد، حينما شعرت باجماع الدول على معارضتها ، واشتركت فعلا فى التوقيع على المذكرة التى أعلنت بها الدول رغبتها فى التدخل بين السلطان وتابعه "يوليه سنة ١٨٣٩" ، زال خطر الروسيا وانفتح المجال لانشقاق الدول بعضها على بعض ، لا سيما انجلترا وفرنسا ، فى مسألة تحديد الشروط التى تحسم النزاع القائم بين التابع والمتبوع .

وذلك أن فرنسا كانت ترغب فى إعطاء محمد على حق الوراثة فى حكم الولايات التى كان يحكمها ماعدا أطنه وكريد وبلاد العرب ، بينما كانت انجلترا ترغب فى ارجاعه

الى حدود مصر وحدها مهما كلفها ذلك من الجهد . وحاولت الروسيا أن تستخدم هذا الخلاف لمصلحتها ، فأعلنت قبولها لمشروع انجلترا واستعدادها لتنفيذه بوسائل قهرية لا بصفتها الخاصة ولكن بصفتها نائبة عن الدول ، غير أن انجلترا أبت التخلى عن صداقة فرنسا ،فقررت إضافة ولاية عكا لأملاك محمد على ،على أن تشترك فرنسا فى قهره اذا رفض ، ولكن فرنسا أصرت على مطالبها الأولى ، فأسرعت انجلترا الى الاقتراب من الروسيا ، وتقرر بينهما ألا تنفرد الروسيا بالعمل بل تشترك معها باقى الدول ، فاضطربت لذلك فرنسا وأعلن تيير وجوب مساعدة مصر صونا لمصلحة فرنسا وشرفها، فاستدعاه الملك للوزارة ليوهم الدول بتنفيذ سياسته .

إزاء هذا الموقف ، عادت انجلترا اتباعا لمشورة النمسا فعرضت على فرنسا جعل مصر وراثة فى أسرة محمد على واعطائه النصف الجنوبى من الشام طول حياته . ولكن تيير رفض هذين الاقتراحين لاعتقاده أن اتفاق الدول على العمل ليس محتمل الوقوع ، وأن الباشا يستطيع المقاومة على كل حال، وأن الأزمة يمكن أن تسوى بين محمد على والسلطان رأسا قبل أن تتدخل الدول . لذلك حاول تيير أن يوفق بين الفريقين، ولكن بالمرستون أسرع بالتدخل خوفا من ضياع الفرصة ، وقد جاء إلحاح تركيا بحل المسألة سريعا، وقيام ثورة من جديد فى سوريا مؤيدا لسياسة بالمرستون ، فتم الاتفاق بينه وبين روسيا وبروسيا والنمسا فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ على أن يرغم محمد على على قبول مصر وراثة فى أسرته ، وعكا طول حياته ،وأن تكون مصر مرتبطة بتركيا بقيود ، مثل دفع جزية وتحديد الجيش والأسطول الخ ، فاذا لم يقبل هذه الشروط بعد عشرة أيام تنتزع منه عكا ، واذا أصر على عصيانه ، يعطى ولاية مصر فقط ، واذا لم يخضع فى مدّة عشرة أيام أخرى عادت الدول الى النظر فى الأمر .

فلما أعلنت هذه الشروط ، اشتدّ الهياج فى فرنسا ضدّ الدول التى تألبت عليها، وقام لويس فيليب يهدّد الدول باطلاق عنان الثورة، ومن وزرائه تيير يتخذ المعدّات

لخوض غمار الحرب ، ولكن انجلترا كانت تعلم أن لويس لا يرضى دخول حرب قد تقوّض عرشه ، وأن فرنسا لا تستطيع أن تقف أمام دول أوربة بأجمعها على كل حال ، ولذا أسرع بالمرستون بتنفيذ الخطة التى أقرتها الدول ، فبدأ المفاوضات عاجلا مع محمد على ، على أساس الشروط المتقدمة ، وأمر الأسطول البريطانى بالاشتراك مع بعض مراكب نمساوية بقطع المواصلات بين مصر وسوريا ، كما أوفد مندوبين الى سوريا لبث بذور الثورة .

محمد على والدول — إلا أن محمد على رفض أن يقبل الشروط رفضا باتا أوّلا وثانية وثالثة ، وجعل يتخذ المعدّات البرية والبحرية لمقاومة الدول ، فنشبت الحرب على أثر ذلك ، وتحملت انجلترا النصيب الأعظم منها ، فتحركت الثورة فى سوريا ، وحمات الباب العالى على عزل محمد على ، واستولت بالاشتراك مع حلفائها على سواحل سوريا ، فارتدّت القوّات المصرية عن معاقلها ، وأخذ دبيب الضعف يدب فى أجزائها . وحينئذ انكمشت فرنسا ، وعزل تيير وأقيمت وزارة معتدلة برياسة جيزو ، فصدق حدس انجلترا فى ضعف لويس فيليب ، وازدادت رغبة الحلفاء فى إخضاع محمد على .

لكن نابيير ، من ضباط الأسطول المحاصر للاسكندرية ، رأى أن إخضاع محمد على لا يتم بواسطة الأسطول وحده ، فأخذ على نفسه فتح المفاوضات مع محمد على على قاعدة بقاء مصر وراثة فى أسرته ، واعادة الأسطول العثمانى لتركيا ، ولما كان محمد على قد قطع الرجاء من مساعدة فرنسا فقد قبل الشروط ، وأخذ يفاوض الدول على هذا الأساس ، ولما حاولت تركيا أن تعرقل هذا المسعى أرغمت على قبول الشروط ، وإصدار فرمان بتولية محمد على عرش مصر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ إلا أنها احتفظت بحق اختيار والى مصر من أسرة محمد على ، واستيلاء السلطان على ربع دخل مصر الخ . فرفض محمد على قبول هذه القيود ، وألحت الدول بتعديل الفرمان ، فأذعن الباب العالى لهذه الرغبة وتقرر أن تكون الوراثة لأكبر أفراد الأسرة ،

وأن تحدد الجزية بمقدار ٤٠٠٠٠ جنيه و يكون للباشا حق منح الرتب العسكرية الخ

وعلى أثر هذا الاتفاق، أعلن انتهاء الأزمة الشرقية وحل التحالف، واشتركت الدول الخمس فى إصدار قرار باقفال البوغازات فى وجه السفن الحربية، و باحترام سلامة المملكة العثمانيـــة .

المصـــادر

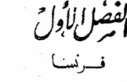
يضاف الى المصادر المذكورة فى الباب المـاضى كتاب «حياة مازينى» تأليف بولتن كنج، وكتاب «تاريخ مصر السياسى» تأليف الأستاذ محمد رفعت .

الباب الخامس

عهـــد انتصـار الحـــرية

١٨٤٨ — ١٨٧٨

فى سنة ١٨١٥ نشأت السياسة الرجعية التى اقترنت طويلا باسم مترنيخ وظهرت الى جانبها قوة جديدة لم يشهدها العالم من قبل ، وهى قوة الشـعوب ، فتنازعت القوتان السلطة إبان هذا العهد ، وخرجت السلطة الرجعية منتصرة فى أول دور من أدوار النزاع — اذا استثنينا سقوط الأسرة الملكية القديمة فى فرنسا ، وتحرير البلجيك واستقلال اليونان . وفى العهد التالى اشـتدّ ساعد الأحرار ، وتقوت صـفوفهم ، وانتقلت مبادؤهم من الخاصة الى العامة ، حتى اذا كان عام ١٨٤٨ صار النزاع واسع النطاق بعيد المدى ، إلا أن السلطات الرجعية احتفظت بمركزها القديم لأن النهضة الجديدة رزئت بالانقسام ، وتبديد المجهود الوطنى فى وجه العدو المشترك . وأما فى هذه المرحلة الأخيرة ، فقـد تهذبت الحركة ، وتوحدت المجهودات ، وتقاربت الوسيلة والغاية ، وانضمت الصفوف تحت لواء واحد ، قادها فى كثير من البلاد الى الحرّية والوحدة القومية المنشودتين منذ أجيال طويلة .



فـــرنسا

الجمهورية الثانية والأمبراطورية الثانية

لويس نابليون — ولد عام ١٨٠٨ وكان أبوه لويس بونابرت ملك هولندا فى عهد نابليون ، وأمه هورتنس بوهارنيه ، وقد أصبح منذ وفاة الدوق ريشستادت

ابن نابليون سنة ١٨٣٢ ، الوارث للعرش الامبراطورى ، فأخذ يهتم بالشؤون الفرنسية عله يجد فيها وسيلة للوصول الى غرضه ، فلما استحكم الخلاف بين الملك وشعبه منذ عام ١٨٤٠ حاول لويس أن يستفز الجيش والشعب للأخذ بناصره ، واستعان بما نشره عن أغراض نابليون فى كتابه « المبادئ النابليونية » من الرغبة فى السلام والاصلاح ليستميل اليه عامة البلاد ، غير أن الشعب لم يكن قد تهيأ بعد لهذا الانقلاب ، فقبض عليه ، وسجن فى هام ولكنه فر الى انجلترا سنة ١٨٤٦ ، ولما نشبت الثورة فى فرنسا سنة ١٨٤٨ ، رأى لويس فيها فرصة جديدة لتحقيق أمله ، فعاد الى بلاده ، وأخذ يستخدم اسمه ، والمبادئ التى كان ينادى بها عمه ، حتى انتخبته خمس مقاطعات للمجلس الجديد ، ولما بدأ الانتخاب لرآسة الجمهورية ، رشح نفسه لها فنال أغلبية عظمى على نحو ما بينا .



نابليون الثالث

سياسة لويس نابليون — كان لويس نابليون يعتقد أن العناية الإلهية أرسلته الى فرنسا لانقاذها، فوطد العزم على الاستئثار بالسلطة، ولما كان الدستور ينص على أن تبقى له رئاسة الجمهورية أربع سنوات فقط، وكان لابد من اجماع ثلاثة أرباع المجلس لاحداث أى تغير فى الدستور، فقد كان بعيدا أن ينال لويس غرضه بالطرق الدستورية، ولذا عمد الى استخدام وسائل أخرى لتحقيق الغرض المنشود .

اتفق لويس بادئ الأمر مع الملكيين من أعضاء المجلس[1] لارهاق الجمهوريين والضرب على يدهم، واخفات صوتهم، وقد أتيحت له الفرصة حين أصبحت مسألة الجمهورية الرومانية موضع النزاع بين الأحزاب، وذلك أن الكاثوليك والملكيين، وافقوا على التدخل لانتزاع رومة من يد مازينى وإرجاعها للبابا وصد النمسا عنها، فى حين أن الجمهوريين احتجوا على مقاومة حرية الشعب الايطالى ونظموا مظاهرات عديدة لارغام المجلس على الخضوع لرأيهم، فأسرعت الحكومة باتفاق الملكيين الى القبض على كثير من الأعضاء الجمهوريين وتشتيت حزبهم، فانحصر النزاع فى المجلس بعد ذلك بين لويس والملكيين، وهؤلاء لم يتأخروا عن القيام بدور ملائم كل الملاءمة لأغراض لويس، فقد انتهزوا فرصة استئثارهم بالسلطة فى المجلس ووضعوا قانونا للتعليم يقضى بنقله الى يد رجال الدين «مارس سنة ١٨٥٠» هذا الى تقييد الصحافة، ووقف المجتمعات، والضرب على أيدى العمال، وحرمان ثلاثة ملايين منهم من حق الانتخاب « ٣١ مايو سنة ١٨٥٠ » . جرى هذا بينما كان لويس يطوف الأقاليم ويتودد الى الشعب والعمال، فتحولت القلوب اليه، واقتربت الفرصة التى كان يرقبها منذ أجل طويل .

فوز نابليون — عرض لويس على المجلس أولا إيقاف قانون ٣١ مايو، باسم الدفاع عن حقوق الشعب، فلما رفضت رغبته، أعان حل المجلس فى ٢ ديسمبر

(١) اجتمع المجلس التشريعى طبق الدستور الجديد يوم ١٣ مايو سنة ١٨٤٩ وكان ثلثا الأعضاء من الملكيين والكاثوليك وأنصار النظام عامة والباقى من الجمهوريين والاشتراكيين كما بينا قبلا .

سنة ١٨٥١ على زعم أن الجمهورية فى خطر، وكان قد احتاط للطوارئ، فقبض فى الليلة السابقة على زعماء الجمعية، وفرّق الجند فى أنحاء المدينة لقمع الفتنة والاضطراب، وأمر باعتقال كل من يجرؤ على العمل لغير مصلحته، وقتل منهم من قتل ونفى الآخرين الى أملاك فرنسا. ولما حاول بعض أعضاء المجلس الاجتماع لتقرير عزل لويس ومحاكمته، شتتهم الجند فاستصرخوا الشعب لنصرتهم، فأقيمت المتاريس وأعدت المقاومة كالمعتاد، ولكن الجيوش تغلبت عليها، وما انقضى يوم ٥ ديسمبر إلا وكان نابليون قابضا على ناصية الحال فى باريس والأقاليم.

ولما استقر الأمر لنابليون واختفت عوامل المقاومة كما استقرت لنابليون الأوّل من قبل، عرض لويس على البلاد دستورا يماثل دستور القنصلية «١٤ يناير سنة ١٨٥٢» وبه تقرّر أن ينتخب رئيس الجمهورية لعشر سنين، وتكون الوزارة مسئولة أمامه، ويعاونه مجلس ينتخبه الرئيس لتحضير القوانين، ومجلس تشريعى ينتخبه الشعب بالاقتراع العام لمناقشة الضرائب والقوانين، ومجلس شيوخ يعينه الرئيس للمصادقة على القوانين والاشراف على النظام الدستورى[1]. وقد وافق الشعب على هذا الدستور بأغلبية عظمى، وأصبح لويس حاكما مطلقا، ولم يبق إلا الاسم ليكون أمبراطورا، وهذا الاسم لم تتردّد المجالس التشريعية فى قبوله واعلانه، فوافق الشعب عليه كما وافق على الدستور من قبل «٢ ديسمبر سنة ١٨٥٢».

حكومة الأمبراطور نابليون الثالث — أعلن نابليون خطة حكومته بعبارة صريحة فقال: " إن اسم نابليون وحده ينطوى على خطة كاملة، فالامبراطورية تعمل للسلم فى الخارج (L'Empire c'est la paix) كما أنها تعمل للاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والخلقى فى الداخل فأنا كعمى الأمبراطور الأكبر لدينا

(١) لتكملة قواعد الدستور أصدر نابليون قانونا للصحافة (فبراير سنة ١٨٥٢) يعطى الادارة الحق فى تعطيلها كلما شاءت كما أعطى للحكومة حق فتح اعتمادات مالية استثنائية عند تأجيل انعقاد المجلس التشريعى (٢٠ ديسمبر سنة ١٨٥٢).

مشروعات واســعة النطاق ، نريد أن نحوّل الشعب الى ميــدان الفضــيلة والدين والرخاء، ففى هذه البلاد، بلاد الإيمان والاعتقاد، قليل من يعمل بأصول الدين ، وفى بلاد الخصب التى لا مثيل لها فى العالم قليل من يحصل أود حياته إلا بعد جهد جهيد، نريد أن نرقى الزراعة وننشئ الطرق، ونبنى المرافئ، ونطهر الأنهار، ونشق الترع، ونمدّ خطوط السكك الحديدية ، ونستثمر الأراضى الواسعة المقابلة لشواطئنا «الجزائر» ، ونرقى المواصلات بيننا و بين العالم ولا سيما أمريكا " .

الدور الأوّل للامبراطورية (١٨٥٢—١٨٦٠) — نفذ نابليون كثيرا من الأغراض التى أعلنها . فأعاد السلم والطمأنينة للبـلاد، وأنشأ نظاما لنشر التعليم، وأسس المصرف العقارى لتحسين شئون الزراعة، وعمـل كذلك على اصلاح مساكن العمال فى المدن والأقاليم،ومساعدة العجزة والفقراء، وتشجيع نقابات العمال، هذا الى أنه وضع نظاما لاصلاح بلاد الجزائر، ونظم شوارع باريس، ومدّ خطوط السكك الحديدية فى أنحاء فرنسا ،وشيد الطرق والترع والموانئ،وشجع الزراعة والصناعة والتجارة؛غير أن هذه الاصلاحات أثقلت عاتق الميزانية الفرنسية الى حدّ أن بلغ دين فرنسا فى نهاية حكم نابليون نحو ٢٤٠ مليونا من الجنيهات. ومن جهة أخرى حاول نابليون زيادة الرخاء فى البلاد عامة فاتفق مع انجلترا فى يناير ١٨٦٠ على تخفيض ضرائبها الجمركية على صادرات فرنسا الزراعية فى نظير تخفيضها للمصنوعات الانجليزية، إلا أن هذا النظام أضر بالصناعة الفرنسية ووضع هذه القوة العظمى فى صف المعارضة.

وأما سياسته الخارجية التى تنطوى على السلم — كما قال — فكانت لا تستقيم بتاتا مع أمبراطورية من طراز نابليون الأوّل، ولا تلائم أمة حربية تتوق الى العظمة والمجد، فوطد العزم على أن يعيد لفرنسا مركزها القديم بين الأمم، وأن يغسل الاهانة والعار اللذين لحقاها فى واترلو .

حرب القرم — لهذا دخل نابليون فى حرب القرم، وفقا للتقاليد الفرنسية القديمـة التى كانت تأبى على الروســيا اغتيال أملاك السلطان ، والسيطرة على

البوغازات ، غير أن الشعب الفرنسى لم يغتبط بحرب ضدّ الروسيا — الحليفة الطبعية لفرنسا — وكان يرجو أن يوجه مجهود فرنسا ضدّ بريطانيا عدوتها القديمة ، فاضطر نابليون الى عقد الصلح قبل الوصول الى نتيجة حاسمة .

المسألة الايطالية — صمم نابليون أيضا على نصرة الايطاليين إرضاء لشعور الأحرار فى فرنسا ، غير أن هـذا التدخل كان من شأنه أن يثير معارضـة الملكيين والكاثوليك الذين كانوا يرغبون صيانة أملاك البابا وأملاك البوربون فى نابلى ، ولذا اختط لنفسه طريقا وسطا فى شئون ايطاليا . فاتفق على أن يساعد بيدمنت فى ضم الممتلكات النمساوية فى شمال ايطاليـا ، مقابل تنازلها لفرنسا عن سافوى ونيس ، كما اتفق على تكوين اتحاد من الإمارات المستقلة فى ايطاليا تحت زعامة البابا . إلا أنه ما كادت تبدأ الحرب عام ١٨٥٩ حتى تبين نابليون أن الشعور القومى فى ايطاليا ، يندفع بشدّة نحو انشاء وحدة قومية صحيحة بزعامة بيدمنت ، وهذا ما أراد أن يتوقاه من بادئ الأمر ، فعمد الى الانسحاب من الحرب بعد أن نجحت نجاحا عظيما ضدّ النمساويين ، وبذا أحفظ قلوب الأحرار الفرنسيين لأنه تخلى عن مساعدة الايطاليين فى أحرج المواقف ، كما أغضب المحافظين الكاثوليـك ، لأنه فتح باب الثـورة التى انتهكت حرمة أملاك البابا ، وضمت وسط ايطاليا وجنوبها الى بيدمنت ، حتى غدت ايطاليا الموحدة خطرا على فرنسا .

الدور الثـانى (١٨٦٠ — ١٨٦٨) — أراد لويس حينئذ أن يسترد عطف الأحرار على مثال ما فعله نابليون الأوّل فى القانون الاضافى بعـد عودته من ألبـا ، فأعلن فى ٢٤ نوفمبر سـنة ١٨٦٠ فك القيود البرلمـانية قليـلا ، بأن خوّل لمجلس الشيوخ والمجلس التشريعى بعض حقوق دستورية كحق مناقشة الوزراء ، ونشر محاضر الجلسات ، هـذا الى أنه تخلى عن حق فتح اعتمادات مالية استثنائية من غير مصادقة المجلسين التشريعين ، وأمر بالعفو عن المسجونين والمنفيين منهم خارج البلاد . غير أن هذا كله لم يجذب قلوب الأحرار الذين ساءهم تعثر الحكومة فى سياستها كما ساءهم تضييقها على أغلى مبادئ الحرية فى البلاد .

حملة المكسيك — حاول الأمبراطور أيضا أن يكسب ودّ المحافظين والكاثوليك من جديد ، فعوّل على فتح بلاد المكسيك، لحماية الرعايا الكاثوليك ، واستغلال مناجم الذهب ، واعادة شأن الأمبراطورية التى كانت لفرنسا فى العالم الجديد . ولكن نابليون لم يقدّر صعوبة المواصلات، ولا الصعوبات السياسية التى تواجه هذا الغرض، فتذرّع ببعض الاضطرابات التى وقعت فى تلك البلاد ضدّ الأجانب لارسال حملته المشئومة، عام ١٨٦١، وما كادت تنجح بعض النجاح حتى أعلن انتخاب الأرشيدوق مكسمليان شقيق الأمبراطور فرنسوا جوزيف أمبراطورا عليها . غير أن الولايات المتحدة التى شغلتها حروبها الأهلية ، عادت فتدخلت لتطبيق مبدأ منرو، واضطرت الجنود الفرنسية الى الجلاء تاركة وراءها البرنس مكسمليان من غير جنود تحميه ، فأعدمه الأهالى . وهكذا فشل لويس فى ارضاء الشعب، ولطخ الشرف الفرنسى بالعار، وأثقل الميزانية بالديون .

بروسيا — على أن الحادث الذى زعزع عرش نابليون نشأ من جراء تعرّضه لشؤون ألمانيا ، فان بروسيا التى فشلت منذ سنة ١٨١٥ فى تكوين اتحاد قومى نظرا لمعارضة النمسا، صممت الآن على تحقيق غرضها «بالدم والحديد» على يد بسمارك الذى مهد السبيل لتحقيق هذا الغرض باتفاق عقده مع الروسيا للدفاع عن مصالحهما المتضامنة، فضلا عن اتفاق آخر عقده مع نابليون الثالث عام ١٨٦٥ على أن يلتزم الحيدة اذا نشبت الحرب مع النمسا، مقابل استيلائه على بلجيكا أو لكسمبرج أو جزء من أراضى الرين، ولما تم لبسمارك الأمر على هذه الصورة، التمس الأسباب لاعلان الحرب على النمسا. فلم تلبث أن سحقت قوّاتها فى سادوا وأجبرت على الخروج من ميدان المنافسة فى ألمانيا ، والاعتراف باتحاد يجمع ولايات شمال ألمانيا تحت زعامة بروسيا. وكان نابليون يظن أن الحرب سيطول أجلها فيستطيع أن يتدخل بين المتحاربين، ويبرم صلحا يرضاه، ويخرج بالغنيمة التى كان يطمع فيها، ولكن انتهاء الحرب بهذه السرعة حرمه من مطامعه ، ومهد الطريق لهدم سياسة فرنسا منذ

القرون الوسطى : سياسة القضاء على تأسيس وحدة قومية فى ألمانيا ، فلا عجب اذا أجمع الناس على أن فرنسا هى التى هزمت فى سادوا .

الدور الثالث (١٨٦٨ — ١٨٧٠) — كانت نتيجة هذا الفشل المتعاقب فى السياسة الخارجية ، أن ارتفعت الأصوات من كل جانب ، بوجوب استئثار الشعب بالحكم ، حتى تأمن فرنسا الأخطار الكبار التى أخذت تهددها من كل جانب . وقامت الى جانب هذه الحركة حركة أخرى مصدرها الاشتراكيون الذين فقدوا الثقة بالأمبراطورية لترقية حالهم ، كما فقدت الثقة بها لاعزاز شأن فرنسا . وهذا يرجع الى أن الاصلاحات الاقتصادية التى قام بها نابليون انتفع بها كبار الماليين فقط . وأما طبقة العمال فقد بقيت على حالها القديم ، فاعتنقت نظريات شيوع ملكية الثروة العامة التى نشرها بينهم كارل ماركس (Karl Marx) الاشتراكى الألمانى وجعلت تعمل لتحقيقها بكل الوسائل .

تلقاء هذه المعارضة من جانب الشعب بأسره ، أعلن الأمبراطور عام ١٨٦٨ الغاء قيود الصحافة وهى قيود الترخيص لها بالظهور وتوقيع العقوبات عليها وحق توقيف الادارة لها ، هذا الى اعادة حرية الاجتماعات ، عدا الاجتماعات السياسية التى تحتم أن يكون لها ترخيص خاص فى غير أوقات الانتخابات . على أن هذه الامتيازات ضاعفت النشاط السياسى فى البلاد حتى اضطر الامبراطور الى الاستمرار فى سياسة الخضوع لارادة البلاد ، فقرر عام ١٨٦٩ عودة الحكم البرلمانى وإشراك الأمة فى حكومة البلاد اشراكا فعليا ، وقد صادق الشعب على هذا النظام الجديد عام ١٨٧٠ ، فتحولت الأمبراطورية الى حكومة دستورية برلمانية لا يتمتع فيها الأمبراطور بغير السلطة الاسميـــة .

ولا ريب أن هذه السلطة الباقية كان مآلها الى الزوال ان لم يعمل الأمبراطور لتثبيت دعائم العرش ، ولذا قبل الحرب التى جرته اليها ألمانيا سنة ١٨٧٠ على أمل الانتصار ، فلما وصلت باريس أخبار هزيمة سيدان ، قطع آخر خيط يربط الشعب

بالأمبراطورية ، فسقطت على الأثر ولم يتحرك رجل واحد لانقاذها ، وأعلنت الجمهورية للرة الثالثة فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠

الجمهورية الثالثة — فى ظل هذا النظام الجديد تألفت « حكومة الدفاع الوطنى » بزعامة تروشو (Trochu) وجول ففر (Jules Favre) وغمبتا (Gambetta) وأخذت تستجمع قوى الشعب للقاومة ، فلما تقدم الألمانيون الى العاصمة ، فر غمبتا الى «تور» لتنظيم المجهود الوطنى ، بيد أن باريس لم تستطع المقاومة طويلا إزاء تفرغ الجيش الألمانى لمحاصرتها ، فسقطت فى ٢٨ يناير سنة ١٨٧١ وتبين حينئذ عبث المقاومة ، فعقدت هدنة فى ١٢ فبراير لانتخاب مجلس وطنى ينظر فى شروط الصلح . وهذا المجلس أعلن انتخاب تيير رئيسا للحكومة ، وعلى يده أبرم الصلح فى فرنكفورت فى ١٠ مايو سنة ١٨٧١

على أن قبول شروط الصلح المهينة القاسية ، حرك كل عوامل الثورة فى باريس ، حتى اضطرت حكومة تيير الى الارتداد لفرساى ، وتألف على أثرها مجلس الكومون فأصبح الموقف عظيم التناقض ، فبينما كانت الراية الألمانية ترفرف فوق «سنت دنيس» كانت راية الجمهورية تخفق فوق فرساى ، وراية الثورة فوق باريس ، فقرر تيير محاصرة المدينة ، وفى هذا الحصار الذى امتد الى ستة أسابيع كابدت باريس من الخسارة الفادحة والرزايا العظيمة مالم تكابده فى الحصار الأول ، ولما نجح الجمهوريون أخيرا فى دخول المدينة قتلوا عددا كبيرا من الثوار ، واعتقلوا ما لا يقل عن عشرة آلاف ، فهدأت الحالة بعض الشىء ، إلا أن الجمهورية لم تستقر إلا بعد أربع سنوات ، بفضل مجهود تيير الذى أعاد الثقة فى مركز البلاد المالى والسياسى ، وأعاد تنظيم قواها الحربية ، وثبت قدم الجمهورية الثالثة .

حينئذ أخذت البلاد تنظم شؤونها فى ظل النظام الجديد ، وقد كانت الظروف ملائمة له من كل الوجوه ، فان نابليون الثالث مات فى انجلترا سنة ١٨٧٣ ، وتبعه بعد ست سنوات ولده البرنس أمبريال وكان بين أنصار الملكية القديمة وأنصار

ملكية أسرة أورليان عداء مستحكم الحلقات، فأصبح النظام الجديد مقبولا لدى كل الأحزاب، وتم الاتفاق نهائيا على دستور للجمهورية سنة ١٨٧٥، وبه تقرر: (أولا) أن ينتخب الرئيس لمدّة سبع سنوات بواسطة المجلسين التشريعيين مجتمعين، ويساعده فى عمله وزراء مسئولون أمام المجالس التشريعية، وهكذا نزل الفرنسيون أخيرا عن مبدأ فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية واحتذوا النظام الانجليزى، (ثانيا) تتكوّن الهيئة التشريعية من مجلس الشيوخ، ويتألف من ٣٠٠ عضو ينتخبون لمدّة تسع سنوات بواسطة انتخاب مزدوج « على درجتين »، وأما مجلس النوّاب فينتخب لمدّة أربع سنوات بالتصويت العام .

وقد نجح هذا الدستور أكثر من أى نظام آخر شاهدته البلاد فى غضون القرن التاسع عشر، وفى ظله انتعشت فرنسا فى الداخل ونالت مركزا ممتازا فى الخارج .

الفصل الثانى

نجاح الوحدة الايطالية

لم يكن الفشل الذى أصاب ايطاليا سنة ١٨٤٨ إلا فشلا مؤقتا، فانه على الرغم من عودة الأحكام الرجعية الى شدّتها الأولى، وعودة نفوذ النمسا الى عهده القديم، فان ايطاليا لم تعد تسكن للهزيمة، وتقعد للذلة، وباتت آمالها معقودة على بيدمنت بعد أن تخلى الأمراء عن نصرتها .

نهضة بيدمنت — كانت بيدمنت عند موضع الظن بها، فقد أخذ ملكها فكتور إمانويل الثانى يدأب على تأييد الحكم الدستورى، وإنعاش البلاد، واصلاح حالها، وتنمية ثروتها، وتعزيز جيشها لتستطيع القيام بالمهمة المرجوّة منها، وكان يعاونه فى عمله وزيره « كافور » وهو رجل سياسى ثابت الإيمان بالمبادئ

الدستورية، شديد الرغبة فى العمل بها « لأنه — كما قال — يستطيع أى أبله أو أحمق أن يحكم البلاد بواسطة الأحكام العرفية، ولكن السياسى الصحيح هو الذى يحكم البلاد بالطرق الدستورية » . وكان يجمع الى صدق الوطنية عقلا راجحا ونظرا بعيدا وخبرة بالأمور وشجاعة نادرة وصبرا طويلا . وبينما تراه يهزأ بالنظريات ويأخذ مكانه على الصخر، اذا به رجل ذو آمال لا تقل عن آمال أشدّ المتحمسين لوحدة إيطاليا، ولا يتردّد فى سبيل تحقيقها عن تخطى حدود السياسة والتقاليد .

كافور (١٨١٠ — ١٨٦١) — ولد كافور سنة ١٨١٠ من إحدى أسرات الأشراف العريقة فى بيدمنت، فنشأ نشأة حربيـة ، جريا على عادة أبنـاء



كافور

الأشراف، ثم التحق بخدمة الجيش كضابط فى المدفعية، إلا أنه اتهم بمشايعة الحركات الدستورية، فتخلى عن مركزه فى الحكومة، واشتغل طويلا فى مزارعه ، وتنقل فى ممالك أوربة يدرس العلوم الاقتصادية والسياسية . ولما ألغى قانون المطبوعات فى بلده، وبدأت سياسة الاصلاح ، عاد واشتغل بالصحافة فأسس جريدة البعث (Risorgimento) وأيد فيها الاصلاح والدستور، وعالج شؤون البلاد بحكمة، فاستدعى الى الاشتراك فى الوزارة سنة ١٨٥٠، ولم يلبث أن تسلم الرئاسة سنة ١٨٥٢ فأخذ يمهد الطريق لطرد النمسا من ايطاليا، وتحقيق آمال البلاد فى الوحدة أو الاتحاد كيفما كانت الرغبة[١] وذلك بملافاة الأغلاط التى ارتكبت سنة ١٨٤٨ أغلاط الاعتماد على قوى الشعب غير المنظمة، ومواجهة العدو والقوات مهددة بالانقسام على نفسها والموارد ضعيفة لا تكفل النجاح، بل وطد العزم على تنمية الموارد الحربية والمالية قبل كل شيء، والاستعانة بدول خارجية لتنفيذ أغراضها .

سياسة كافور — (أولا) بدأ كافور يعمل لترقية الصناعة والزراعة، وفتح أسواق جديدة للتجارة ، وفرض ضرائب على ممتلكات الكنيسة ، وانتزاع أملاك الأديرة ، فلما توافرت لديه الأموال عنى بالجيش ومعداته حتى أصبح يبلغ ٩٠٠٠٠ جندى على أحدث وأتم نظام .

---

(١) لم يحاول كافور مطلقا كما يحاول غيره من السياسيين تربية الرأى العام على مبدأ خاص أو فكرة معينة ، بل كان يعمل طبقا لرغبات الرأى العام كيفما كانت ، وأما الرجل الذى قام بهذه التربية فى هذه الفترة فهو مانين بطل البندقية الذى أنشأ «الجمعية الوطنية» ليعين طريق العمل الناجح ، ويغرس مبدأ الوحدة القومية بزعامة بيدمنت ، حتى لا تعود البلاد مرة أخرى الى الانخذال والانقسام فى وجه الأعداء بين أشياع الجمهورية وأشياع الملكية كما وقع سنة ١٨٤٨ — وقد كان مانين جمهوريا ، ولكنه حبا فى السلم انضم الى جانب الملكيين على شرط أن تكون خطتهم الوحدة لا الاتحاد . ففى سنة ١٨٤٨ قامت حركة الملكيين على قاعدة الاتحاد بين الأمارات ولكن ظهور بيدمنت كزعيمة لايطاليا جعل الوحدة التى نادى بها مازينى أمرا لامناص منه الآن . وكان مانين ينكر على الشعب اندفاعه فى تيار العواطف واعراضه عن الحقائق الجوهرية التى أدت الى هزيمة ٤٨ فدعاهم الآن الى «قليل من الشعر والموسيقى والأناشيد الحماسية وكثير من العمل» .

(ثانيـا) شارك الدول العظمى فى حرب القرم ،وحارب الى جانبها ، وانتصر معها فى مواقع عدّة . فغسل بذلك عار نوفارا وضمن صداقة انجلترا وفرنسا ، وجلس بجانب منـدوبى الدول فى مؤتمر الصلح ، فتسنى له إيصال صـوت ايطاليا الى آذان الدول الكبرى مباشرة ، ومواجهة مندوب النمسا مواجهة الند للند ، فجعل لبيدمنت مركزا ممتازا أصبحت معه محط آمال الايطاليين .

(ثالثـا) ساعد كافور فرنسا فى الحرب وفى مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٨٥٦ وحرك مطامع نابليون وعطفه القديم على ايطاليا ، فأصبح يعلق آمالا كبارا على مساعدته . إلا أنه وقع حادث كاد يقضى على آماله ، وهو اعتداء ايطالى يسمى «اورسينى» على نابليون ، ولكن هـذا الحادث أتى بما لم يكن يتوقعه كافور ، إذ كتب اليـه نابليون يطلب مقابلتـه سرًّا فى حمامات بلومبير (Plombière) فى ٢٠ يوليه سـنة ١٨٥٨ لعقد محالفة بينهما تعين شروط التدخل ضدّ النمسا . و يعزى هذا السلوك الى تعلق الامبراطور بإيطاليا منذ نشأته ، ورغبتـه فى الأخذ بناصر الأمم التى تطلب حريتها ابتغاء المجد والشهرة ، وميله الى بسط نفوذ فرنسا فى ايطاليا وصدّ نفوذ النمسا ، هذا فضلا عن رغبته فى توسيع ممتلكات فرنسا والقضاء على آثار قرارات مؤتمر فيينا التى كانت وصمة عار فى جبين أسرته ، غير أنه مع ذلك لم تبلغ به الرغبة فى خدمة ايطاليا الى حدّ العمل لاتمام وحدتها ، كى لاتتعرض مصالح بلاده ومصالح البابا للاخطار ، فلما قابل كافور فى بلومبير تعهد بالاشتراك معـه فى حرب ضدّ النمسا ، على أن تكون هى البادئة بالعدوان ، حتى لايكون هناك مجال لتدخل أوربة . وعند انتصار الحليفتين تنفذ الشروط الآتية :

(١) تضم لمبارديا والبندقية الى بيدمنت ؛

(٢) تبقى الولايات الوسطى وولايات الجنوب وأملاك البابا مستقلة ؛

(٣) يكوّن اتحاد ايطالى من كل الولايات تحت زعامة البابا ؛

(٤) تضم سافوى ونيس الى فرنسـا ويزوّج ابن عم الامبراطور ببنت ملك بيدمنت .

الحرب مع النمسا — لم يبق أمام كافور بعد ذلك إلا إيغار صدر النمسا حتى تعلن الحرب على بيدمنت ، فأوعز الى الصحف بالطعن فى الحكومة النمساوية وفتح اكتتابات لتعزيز الجيش ، وصرح بلسان ملكه فى البرلمان بأنه « لا يستطيع أن يسمع أنين الألم المنبعث من أنحاء ايطاليا دون أن يتحرك له » فأثار كل هذا حنق النمسا الى حدّ أن أرسلت انذارًا تطلب فيه تسريح الجيش ونزع سلاحه فى ثلاثة أيام ، فلما أهمل كافور هذا الطلب ، زحفت الجيوش النمساوية الى أراضى بيدمنت فى أبريل سنة ١٨٥٩ وتقدّمت فرنسا الى مساعدة حليفتها ، فتوالت الهزائم على النمسا فى ماجنتا (Magenta) فى ٤ يونيه وسولفرينو (Solferino) فى ٢٤ يونيه ؛ إلا أنه بعد هذه المعركة الأخيرة ، تحوّل الامبراطور عن الحرب ، وقابل أمبراطور النمسا فى فلافرنكا (Villafranca) وهناك اتفق الاثنان على الهدنة والصلح دون استشارة بيدمنت . وهذه هى الشروط التى اتفقا عليها والتى عرفت فيما بعد بصلح زيورخ سنة ١٨٥٩ :

تنزل النمسا عن لمبارديا الى بيدمنت ؛ تتحد ايطاليا تحت رئاسة البابا ؛ تكون البندقية جزءا من الاتحاد الايطالى مع بقائها تحت سيادة النمسا ؛ يعاد الحكام الأصليون الى دوقيات الوسط وتسكانيا « وكان الشعب قد طردهم منها وأعلن انضمامه الى بيدمنت » .

وأما الأسباب التى دعت الامبراطور الى الوقوف بالحرب عند هذا الحدّ ، ونقض محالفته مع بيدمنت فترجع الى اعلان الولايات الوسطى انضمامه الى بيدمنت على أثر نشوب الحرب مما هدّد فرنسا بظهور وحدة قوية الى جانبها ؛ هذا الى استنجاد النمسا ببروسيا وانجلترا ؛ واستنكار الرأى العام الفرنسى — لاسيما الحزب الكاثوليكى — إضعاف سلطة البابا .

أما كافور فقد أغضبه هذا الاتفاق ، ونصح للملك بمواصلة الحرب ، إلا أن فكتور أمانويل لم يعمل بهذا الرأى ، فاعتزل كافور الوزارة على الأثر .

وحدة إيطاليا الشمالية — لم تحصل بيدمنت من هذا الصلح على ما كانت تؤمل فيه، إذ بقيت البندقية للنمسا، كما بقيت الولايات الأخرى على ما كانت عليه من التفرق. إلا أن الشعب الثائر في الولايات الوسطى «مودينا — بارما — تسكانيا — ورومانا» أبى الخضوع لأحكام المعاهدة، وقرر الانضمام الى بيدمنت، وكان كافور قد ذهبت عنه سورة غضبه فعاد الى الوزارة، وجعل يعمل لاجابة رغبة الولايات، فتقدم بنيس وسافوى الى لويس نابليون بعد أن حرم منها إبان النزاع الأخير، على ألا يعارض فى ضم الولايات الوسطى، فأجابه هذا الى رغبته بشرط أن يوافق أهل الولايات على هذا الضم، ولما كانت النمسا لا تستطيع التدخل بعد أن أعلنت انجلترا وفرنسا أنهما تعارضان فى ارغام الأهالى على قبول حكامهم الأولين، فقد قام كافور باستفتاء الجهات الثائرة فى شأن الحكومة التى يريدونها، فكانت الأغلبية فى جانب الانضمام الى بيدمنت، فقبل فكتور مشيئتهم، ووافقت الدول على ذلك فى ابريل سنة ١٨٦٠

حركة غاريبلدى — لم يبق أمام كافور سوى ضم مملكة نابلى وأملاك البابا «لاسيما رومة» والبندقية. أما رومة والبندقية فكان دون الوصول اليهما مصاعب جمة، ولكن نابلى الثائرة دواما على حكامها كانت قريبة المنال، فرأى كافور أنه اذا كانت السياسة تأبى عليه انتزاعها بطريق الحرب، فان فى وسع المتطوعين القيام بهذه المهمة، ولذلك أوفد غاريبلدى للعمل[1].

وغاريبلدى هذا بطل من أبطال إيطاليا العظام، وشخصية فذة ملؤها الجرأة والاقدام، تربى فى حجر الجمعية التى أنشأها مازينى، وتغذى بمبادئها، ودافع عن سياستها فى رومة وغيرها، ثم تحوّل الى حزب الملكيين الذين كانوا يرغبون فى بعث إيطاليا على يد بيدمنت، فاشترك فى حروبها مع النمسا، ولما تحركت الثورة فى نابلى من جديد، تحرك غاريبلدى لنصرتها، وأمده الملك وكافور بالمال والسلاح سرا،

(١) انظر صورة غاريبلدى (صفحة ١٣٠) وقد كتب تحتها بيده عبارة معناها "ما استعصت الحرية على من وطد العزم على نيلها".

فخرج فى مايو سنة ١٨٦٠ بألف من المتطوعين ذوى القمصان الحمراء ، ونزل بهم فى جزيرة صقلية ، وسرعان ماهزم جيش نابلى هزيمة منكرة ، وأقام من لديه عمالا يحكمونها ، ثم أخذ يتأهب لغزو نابلى على أن يتبعها برومة والبندقية ، فنزل على شاطئ نابلى من غير كبير مقاومة ، وسار شمالا حتى دخل العاصمة دخول المنتصر الظافر ، فلم تبق إلا الحصون الشمالية حتى تصبح البلاد بأسرها فى قبضته .

تدخل كافور — فى هذه الأثناء كان كافور يراقب نجاح غاريبلدى بفرح عظيم ، إلا أنه خشى أن يندفع فى عمله اندفاعا يؤدّى الى تدخل الدول فى مصلحة نابلى والبابا ، كما أنه خشى أن يعمل على تأسيس جمهورية بتأثير مازينى وأشياعه الذين كانوا يؤازرونه فى حركته ، فانتهز فرصة غضب البابا على بيدمنت لاستيلائها على مقاطعة رومانا واعلانه الجهاد الدينى عليها ، وتعبئته الجيوش للانتقام منها ، فتقدّم الملك بجيشه ، وشتت الجنود البابوية فى موقعة كاستلفيداردو (Castlefedardo) ثم احتل أملاك البابا عدا رومة . وحينئذ أعلن السكان رغبتهم فى الانضمام الى بيدمنت ، وكان ذلك فى نوفمبر سنة ١٨٦٠

تقدّمت جيوش الملك بعد ذلك الى الجنوب لمعاونة غاريبلدى ، فتغلبا معا على مقاومة الحصون التى لم تكن قد سلمت بعد ثم دخلا نابلى جنبا لجنب ، وطلبا موافقة الأهالى فكانت الأغلبية فى جانب الانضمام الى بيدمنت ، فخضع غاريبلدى لحكم مليكه ، وفى ١٨ فبراير سنة ١٨٦١ اجتمع المجلس النيابى الجديد فى تورين ، وكانت كل إيطاليا عدا رومة والبندقية ممثلة فيه ، فاستبدل اسم مملكة سردينيا «بيدمنت» بمملكة إيطاليا ، ونودى بفكتور أمانويل ملكا عليها .

مات كافور على أثر هذه الحوادث « يوليه سنة ١٨٦١ » ففقدت البلاد بفقده قوة لا تعوّض ، إذ لا شك أن إيطاليا مدينة له بوجودها ، لإخلاصه وجرأته ، مع صبره واعتداله وطول أناته ، واذا قيل إن مازينى كان روح الوحدة الإيطالية ، وغاريبلدى ساعدها ، فقد كان كافور بلا ريب رأسها المفكر .

اتمام الوحدة — كان لابد لاتمام الوحدة الإيطالية من ضم البندقية ورومة . أما الأولى فقد نالتها إيطاليا جزاء مساعدتها لبروسيا فى حربها ضد النمسا[(١)] سنة ١٨٦٦ ، وأما الأخرى فكان يحول دونها أمران :

(أولا) رغبة البابا فى استبقاء سلطته الدنيوية فى رومة ، حتى تحول — كما قال — بين المدنية والثورة ، كما حالت من قبل بينها وبين الاسلام » .

(ثانيا) احتلال الجنود الفرنسية لرومة منذ القضاء على جمهورية مازينى ، وتشدّد نابليون فى البقاء فيها ، والدفاع عنها لاكتساب مودة الكاثوليك .

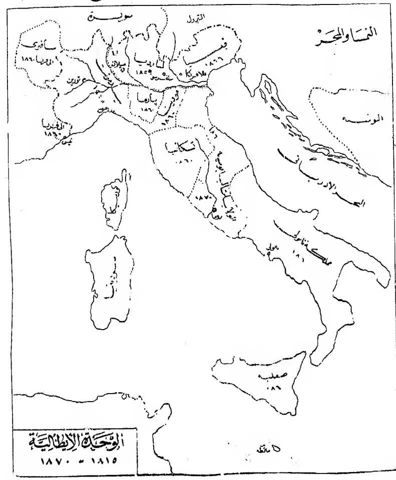
على أن كافور ومن خلفه من الوزراء شعروا ، كما كان يشعر كل رجال ايطاليا ، أن لا وحدة ولا اتحاد فى ايطاليا إلا اذا كانت رومة عاصمة لها ، فعرضوا حسم النزاع على مبدأ « كنيسة حرة فى مملكة حرة » ولكن البابا رفض هذا الحل .



فكتور أمانويل

(١) أنظر الفصل التالى .

حينئذ صمم غاريبلدى على أن يتخطى حدود السياسة الدقيقة وينتزع المدينـة من يد البابا كما انتزع نابلى من يد ملكها . ولكن جنود الملك حالت بينه وبين بغيته حتى لا تسوء العلاقات مع فرنسا ، وأخذ فكتور على عاتقه مفاوضة نابليون فى الأمر ، فقر الرأى على انسحاب الحامية الفرنسية فى سبتمبر ١٨٦٤ على أن يبقى البابا مستقلا فى عاصمـة ملكه ، إلا أن غاريبلدى حاول مع ذلك الاغارة على رومة من جديد ، فعادت جيوش فرنسا وشتتت قواته واحتلت المدينة مرة أخرى ، على أن نشوب حرب السبعين اضطر فرنسا الى استدعاء جنودها على عجل ، فسارع الايطاليون حينئذ



بالزحف الى رومة ودخولها فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ ، وبذلك تم العمل المجيد الذى من أجله كرست ايطاليا حياتها "كما قال الملك فى حفلة افتتاح البرلمان الأول فى رومة" . وليست هذه الخاتمة إلا ثمرة الإخلاص والإيمان ، ونتيجة الجهاد الطويل ، والمخاطرة الهائلة ، والجرأة المنقطعة النظير[1] .

على أن ايطاليا لم يهدأ حالها من ذلك الحين لأن الحكم البرلمانى لا يثمر فى يوم واحد ، ولو أن «أسوأ المساكن كما قال كافور خير من عدمها» . وبينما البلاد تتعثر فى سبيل الحكم الذاتى ، أخذت تكابد من جهة أخرى اضطرابا اجتماعيا واقتصاديا خطيرا ، من جراء ما قاسته أجيالا طويلة من سوء الحكم . ثم إن الحكومة الجديدة استلزمت نفقات باهظة لتقوم بحاجيات أمة متحضرة فى قارة أوربية ، وهذا فى بلاد لم تبلغ الثروة فيها بعد مبلغا كبيرا ، ولكن هذه المتاعب لا تقاس الى جانب مشكلة الكنيسة والحكومة ، فان سجين الفاتيكان أبى طويلا أن يرضخ للحقيقة الواقعة ، وينزل عن سلطته المدنية ، على أن هذا النزاع قد انحل أخيرا باعتراف حكومة ايطاليا باستقلال الفاتيكان ، فأمكن بذلك التوفيق بين عظمة الدين ومجد الوطن .

الفصل الثالث

نجاح الاتحاد الألمانى

فى سنة ١٨٦١ توفى الملك فردريك وليم الرابع وخلفه على عرش البلاد أخوه ولهلم الأول ، فاستدعى الكونت أوتوفون بسمارك لتسلم مقاليد الأعمال ، والى هذين الرجلين ومعهما فون رون وزير الحربية ومولتكى قائد الجيش يعزى تأسيس الأمبراطورية الألمانية الحديثة .

---

(١) اذا كانت الوحدة الايطالية قد تمت عام ١٨٧٠ فقد بقى عدد كبير من الايطاليين خارج حدودها ، وقد كانوا يسكنون الترنتينو والتيرول واستريا وتريستا وقد أطلق عليها اسم : (Italie Irridenta) أى ايطاليا التى لم تضم ، وقد بقيت هذه البلاد عقبة فى تحسين العلاقات بين ايطاليا والنمسا حتى الحرب العظمى

نشأة بسمارك — ولد فى سنة ١٨١٥ من أسرة نبيلة فى مقاطعة برندنبرج، وتربى فى جامعتى جوتنجن و برلين، ثم التحق بخدمة الحكومة، ولكنه اعتزلها لادارة مزارعه فى بوميرانيا حتى انتخب عضوا فى مجلس الولاية ثم عضوا فى برلمان برلين سنة ١٨٤٨، وفيهما ظهر مظهر العامل القدير على توطيد نفوذ الملكية، فأعادته حكومة الملك لخدمتها، على أن يكون مندوبا عنها فى الديت الألمانى الذى كان محور العداء القاتل الذى كانت تضمره النمسا لبروسيا، وبعد سنوات قليلة تقلد منصب السفارة فى بطرسبرج، ثم فى باريس فوقف على كثير من مبادئ السياسة الدولية ودرس أخلاق الأفراد الذين احتك بهم فيما بعد .



بسمارك

سياسته — تقلد بسمارك منصب الحكم وكانت خطة العمل مهيأة أمامه ، وهى خطة تنطوى على اجبار النمسا وفرنسا على التخلى عن موقفهما العدائى حيال اتحاد ألمانيا ، لا رغبة منه فى تحقيق آمال قومية فحسب ، بل رغبة فى تحقيق أحلام فوردريك الأكبر فى مدّ نفوذ بروسيا على كل ألمانيا . إلا أنه رأى أن هذا الأمر لا يتم ، ولا يجب أن يتم ، بقوة الشعب الألمانى ، بل بقوة الجيش البروسى حتى يضمن الزعامة لبروسيا ، فأنشأ يتخذ الوسائل لاعداد ذلك الجيش بأن عرض على البرلمان البروسى اعتماد النفقات اللازمة ، ولكنه لاقى معارضة قوية من جانب الأحرار ، فسارع الى اصدار الاعتمادات المالية بأوامر ملكية « لأن المسألة الألمانية — كما قال — لا تحل بمناقشات برلمانية ، بل تحل بقوة الدم والحديد » . ولما تم له أمر إعداد الجيش أخذ يناوئ النمسا فى شئون شتى ، حتى حملها أخيرا على قبول الحرب .

الدم والحديد — مشكلة شلسويج هلشتين (Sçhleswig Holstein) كانت المسألة التى اتخذها بسمارك ذريعة لاعلان الحرب على النمسا هى مسألة شلسويج هلشتين . ذلك أن فردريك السابع ملك الدانيمرك كان يحكم هاتين المقاطعتين الألمانيتين منذ سنة ١٨٦٣ بصفته الخاصة ، على أن تبقيا ضمن الاتحاد الألمانى ، فلما توفى الملك من غير ذرية ، انقطعت الصلة التى كانت تربط الولايتين بالدانيمرك ، إلا أنها حاولت مع ذلك أن تضمهما نهائيا اليها ، فاعترض على ذلك الديت الألمانى كما اعترض بسمارك طمعا فى الاستيلاء عليهما لأهمية موقعهما البحرى ، وأقنع النمسا بالتدخل معه فى شأن المقاطعتين ، باسم اجبار الدانيمرك على احترام المعاهدات التى وقعت عليها ، فزحفت الجنود النمساوية البروسية الى شلسويج ثم جتلانده فى أبريل سنة ١٨٦٤ وأجبرت الدانيمرك على التخلى عن الإمارتين للنمسا وبروسيا ، وحينئذ قررت الحليفتان فى معاهدة جستين (Gastein) التى أبرمت فى أغسطس سنة ١٨٦٥ على أن تحكما المقاطعتين معا بشرط أن تتولى بروسيا ادارة شلسويج والنمسا مقاطعة هلشتين .

الحرب مع النمسا — بيد أن هذه المعاهدة لم تكن إلا اتفاقا وقتيا ريثما يتم بسمارك معدّاته، فيتخذ من هذا الاتفاق ذريعة لمحاربة النمسا فاتفق أوّلا مع نابليون الثالث فى بياريتز على أن تلتزم فرنسا الحياد اذا ما وقعت الحرب بين بروسيا والنمسا، وذلك مقابل الحصول على باجيكا أو لكسمبرج أو بعض ولايات الرين، ثم اتفق مع الايطاليين على أن ينضموا الى جانبه ليستطيعوا طرد النمساويين من بلادهم نهائيا . ولما كان قد اتفق مع الروسيا من قبل عند نشوب الثورة البولندية اتفاقا وديا أساسه تبادل المعاونة، فقد أمن بسمارك جانب الدول، وأخذ بعد ذلك يناوئ النمسا متخذا مسألة شلسويج هولشتين وسيلة لحملها على الحرب، فاتهمها بالعمل لنقض الاتفاقية المعقودة بينهما وذلك بتعضيدها الأمير المطالب بعرش الولايتين، ثم سير جنوده الى هولشتين فاحتلتها وضمتها لأملاكها



فون مولتكى

على ما فى ذلك من الافتيات على حقوق النمسا والديت،ولذلك تعاونت هذه المصالح المتضامنة على خوض غمار الحرب ضد بروسيا التى لم تكن تعوزها المعدّات الحربية الحديثة التى هيأها لها ڤون رون (Von Roon) وزير الحربية،ولا تنقصها الشجاعة والحنكة التى امتاز بها قائدها الكبير ڤون ملتكى (Von Moltke) فأسرعت الى احتلال سكسونيا وهانوفر وهس، ثم تقدّمت الى بوهيميا لمقابلة الجيوش النمساوية المعسكرة فيها ، فالتقى الجمعان عند سادوه (Sadwa) فى يوم ٢ يوليه سنة ١٨٦٦ وهناك دارت بين الفريقين موقعة من أكبر المواقع شأنا فى التاريخ، انتصر فيها البروسيون انتصارا حاسما .

فوز بروسيا — زحفت الجنود البروسية على ڤيينا بعد انتصارها فى سادوه، إلا أن بسمارك رأى أن يوقف سير الحرب، لأن إذلال النمسا ودخول ڤيينا يجعل إعادة الصداقة فيما بعد من أصعب الأمور، مع أنه كان فى احتياج لإعادة هذه الصداقة ليضمن حيدة النمسا فى حربه التى كان لا بد منها لإرغام فرنسا على قبول الاتحاد الألمانى، كذلك رأى بسمارك أن ايطاليا التى برّت بوعدها فى محاربة النمسا قد خذلت وأن ذلك الخذلان قد يتعدّى الى غزو بلادها اذا طالت الحرب، هذا الى أن أخبار سادوه وقعت موقعا شديدا فى فرنسا ، لأن الفرصة التى كان ينتظرها نابليون الثالث من اشتباك المملكتين فى حرب طويلة تهيئ له الفرصة لوقوفه حكما بينهما قد ضاعت ، فاذا طال أمد الحرب، عادت هذه الفرصة ، ولذلك قرّر بسمارك التعجيل بمفاوضة النمسا فى شأن الصلح ، وكانت النهاية ابرام معاهدة "براغ" فى ٢ أغسطس سنة ١٨٦٦ ، وبها ضمت هانوفر وبعض أجزاء بافاريا، وكذلك هس ودرمستات وشلسويج هلشتين ومدينة فرنكفورت الى أملاك بروسيا، هذا فضلا عن أن النمسا اعترفت بانشاء اتحاد يشمل كل الامارات الكائنة شمال نهر المين تحت زعامة بروسيا ، وأما الامارات التى فى جنوب هذا النهر فقد

تكوّن منها " اتحاد جنوبى ألمـانيا " على أن يبقى مستقلا عن بروسيا . وأخيرا تقرّر أن تنزل النمسا عن مدينة البندقية لايطاليا مكافأة لها على دخول الحرب [1] .

وهكذا انتهى الدور الأوّل من السياسة التى اتبعها بسمارك بطرد النمسا من الاتحاد الألمـانى ، وإنشاء اتحادين أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب . ولا ريب أن هذا التقسيم يعزى الى تردّد امارات الجنوب فى الانضمام الى الشمال ، كما يعزى الى تدخل نابليون الثـالث فى التسوية الأخيرة ليحول دون وقوع كارثة وطنيـة كبرى ، وهى قيام دولة ألمـانية عظيمة على حدود فرنسا .

سياسة بسمارك بعد سادوه :

(أوّلا) أخذ بسمارك يعمل على ربط الولايات الجنوبية والشمالية برباط المصلحة المتبادلة ، وقد تم هذا بالاستفادة من غلطات فرنسا ، وذلك أن نابليون الثالث طالب بسمارك بعـد موقعة سادوه بتنفيذ اتفاقية بيارتز التى قضت بأن تستولى فرنسا على البلجيك أو بعض أراضى الضفة الغربيـة للرين ، فأخذ بسمارك يسوّف فى الأمر حتى تم صلح براغ مع النمسا ، وحينئذ أعلن أنه لا يملك النزول عن قيد شبر واحد من الأراضى الألمانية ، ثم نشر فى أوربة الوثائق التى تبودلت بين الحكومتين فى هذا

(١) أخذت النمسا تعمل بعد حوادث سنة ١٨٥٩ و ١٨٦٦ لتنظيم شئون الأمبراطورية حتى تعوّض خسائرها الخارجية باستثمار مواردها الداخلية ، ففى سنة ١٨٦٠ قرر الأمبراطور العدول عن سياسة العنف والمقاومة ، وأصـدر مرسوما يقضى بأن ترسل كل الولايات نوّابا عنها الى برلمـان يعقد فى ڤينا ، ولكن المجريين رفضوا التخلى عن شخصيتهم ، وأبوا ارسال مندوبين الى هذا البرلمـان ، واستأنفوا خطة المقاومة السلبية لاخضاع الحكومة الأمبراطورية لارادتهم ، وأعلنوا على لسان ديك (Deak) الاصرار على التمتع بالاستقلال فى كل الشؤون الداخلية . فارضاء لهـذه الرغبات التى لا تقبل المساومة ، وضع النظام الثنائى سـنة ١٨٦٧ ، وبه انفصلت المجروما يتبعها عن النمسا فى شؤونها الداخليـة ، وأما السياسة الخارجية ، وأمور الحرب والمـالية فتشرف عليها لجنة من مندوبى الدولتين ، وهذا النظام يشوّهه حرمان برلمـان الأمتين من مراقبة أهم المصالح العامة ، كما يشوّهه اغفال مطامع الجنسيات الأخرى ومنافساتها العـديدة وسنرى تأثير سوء هذا النظام فى حوادث الحرب الكبرى .

الشأن، فأثارت سخط الرأى العام الأوربى، واستفزت الولايات الألمانية الجنوبية حتى عجلت بابرام تحالف حربى مع بروسيا ، فضلا عن تشكيل مجلس يتولى أمر توحيد المكوس فى جميع أنحاء ألمانيا[1] .

(ثانيا) كانت سياسة فرنسا منذ عهد ريشيليو قائمة على مقاومة تأسيس وحدة ألمانيا قوية الى جانبها ، فلما فاجأتها موقعة سادوه وأصبح اتحاد ألمانيا قاب قوسين، قام الشعب الفرنسى وعلى رأسه تيير وأعان أن هذه الموقعة تعتبر نكبة وطنية عظمى، وأنه يتعين على الحكومة بعد أن خدعت الى هذا الحد أن توقف مطامع بروسيا بأن تتدخل وتمنع الاتحاد المقبل بكل ما تستطيعه من قوة، فأذعن نابليون وتوسط فى الصلح بين بروسيا والنمسا، ونجح فى تأجيل اتحاد الولايات جميعا كما أسلفنا . ولكن نشأ عن هذا التدخل أن ازداد بسمارك يقينا بأن لا سبيل الى تحقيق أغراضه إلا بحرب أخرى مع فرنسا، فأخذ يعدّ العدة لها ويتلمس طرقا شتى لاجبار فرنسا على خوض غمارها، كما أجبر النمسا من قبل، ولكن فرنسا نفسها لم تكن راغبة عنها، فسارت الى حتفها بظلفها، وذلك أن نابليون رأى أن لاقبل له بتوطيد دعائم الأمبراطورية فى البلاد، بغير أن ينعشها بشئ من الانتصارات التى كانت تتوق اليها – وكانت زوجته "يوجينى" أكبر من حمله على السير فى هذا الطريق الوعر – فلم يتردد طويلا فى خوض غمار الحرب التى كان يتوق اليها بسمارك .

أما الخطة التى اتخذها بسمارك ازاء فرنسا فتتلخص فيما يلى :

(أولا) دخول الحرب سريعا حتى لاتستطيع النمسا أن تثأر لنفسها بالاشتراك مع فرنسا .

(١) حاولت فرنسا بعد أن فشلت فى الاستيلاء على البلجيك وولايات الرين، أن تستولى على لكسمبرج (وكان يحكمها ملك هولندا على أن تحميها جيوش بروسيا وتبقى تابعة للاتحاد الألمانى) ، فعرض نابليون على ملك هولندا أن يشتريها منه، وكاد هذا أن يوافق على البيع لولا أن بسمارك اعترض على الأمر . ولما كانت كل من فرنسا وبروسيا على غير استعداد لحرب إذ ذاك ، فقد قبلتا وساطة الدول (معاهدة لندن سنة ١٨٦٧) وبها تقرر أن تكون لكسمبرج منطقة حياد وأن تنسحب منها فرنسا وبروسيا على السواء .

(ثانيا) إجبار فرنسا على البدء باعلان الحرب حتى تستطيع بروسيا أن تشرك الولايات الألمانية الجنوبية معها باسم الدفاع عن كيان البلاد .

(ثالثا) حمل الروسيا على التزام الحيدة ، بل دخول الحرب فى صف بروسيا اذا انضمت النمسا الى فرنسا ، وقد تم له ذلك فى مقابل تعهده بمساعدتها لالغاء حيدة البحر الأسود التى تقررت فى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦

أما نابليون الثالث ، فقد عمل من جهته على إشراك النمسا وايطاليا معه فى الحرب ، ولكن النمسا لم تجمع الرأى على دخول أى حرب ضدّ بروسيا ، فى حين أن ايطاليا التى أغضبتها مؤازرة نابليون الثالث للبابا فى كثير من أدوار وحدتها ، لم تعده بشئ سوى بقائها على الحياد فى هذه الأزمة .

مسألة اسبانيا — بينما كانت هذه المفاوضات سائرة فى طريقها ، كان بسمارك يلتمس الفرص لحمل فرنسا على اعلان الحرب ، ولم يلبث أن وجد هذه الفرصة فى مسألة لا تهم فرنسا فى الحقيقة ولا تهم ألمانيا مباشرة ، وذلك أن النزاع الطويل الذى قام فى اسبانيا بين الأسرة المالكة وأنصار الحرية انتهى سنة ١٨٦٩ بثورة قام بها المارشال " بريما " واشترك فيها الجيش والسواد الأعظم من الأمة ، فاضطرت الملكة " إيزابلا " الى أن تفرّ الى فرنسا ، وأعلن الثوار انهم انتخبوا للعرش الأمير " ليو بولد " من أفراد أسرة " هوهنزلرن نجمرنجن " ، وقد قبل الأمير هذا العرش بشرط موافقة مجلس الكورتيز الاسبانى والملك ولهلم رئيس الأسرة .

على أن الخبر وقع موقعا شديدا فى فرنسا لأن اعتلاء أمير بروسى عرش اسبانيا من شأنه توحيد سياسة الدولتين الاسبانية والبروسية ، وقلب التوازن الدولى فى أوربة ، ولهذا تلقى بندتى (Benedetti) سفير فرنسا فى بروسيا أمرا بأن يسرع لمقابلة الملك ولهلم فى مدينة أمز (Ems) حيث كان الملك يستشفى بمياهها ، ويفاوضه فى الأمر .

برقية أمز — ولما كان ملك بروسيا يرغب فى السلم ، فقد أعلن أن لا علاقة لحكومته بهذا الموضوع مطلقا ، وأنه لم يأذن لليو بولد بقبول العرش ، وأنه قد دعا هذا الأمير باعلان التخلى عنه . وقد كاد الأمر ينتهى عند هذا الحدّ لولا أن أنصار الحرب فى باريس أرغموا الكونت جرامون (Gramont) وزير الخارجية على أن يطلب من بروسيا أن نتعهد بألا توافق فى المستقبل على ترشيح هذا الأمير ، فرفض ملك بروسيا هذا المطلب الماس بكرامته بغير أن يخرج عن حدود المجاملات الرسمية . بيد أنه لما أرسلت تفاصيل هذه المقابلة برقيا الى بسمارك ، رأى أن الفرصة التى كان ينتظرها قد حانت ، فنشر نص الرسالة البرقية التى وصلته من الملك ، فى صورة مقتضبة ، بحيث أصبحت تشعر الأمة الفرنسية بأن سفيرها قد أهين عند مقابلته ملك بروسيا . والواقع أنه ما كادت هذه الرسالة تنشر فى فرنسا حتى التهبت الحماسة الوطنية وارتفعت الأصوات باعلان الحرب ، وكان فى وسع الحكومة الفرنسية اذا كانت ترغب فى السلم أن تكذب هذا البلاغ ، ولكنها كانت ترغب فى الحرب كما كان يرغب بسمارك ، فسارعت الى إعلان الحرب فى ١٩ يوليه سنة ١٨٧٠

موقف الدول — اهتمت انجلترا فى هذه الحرب بالاحتفاظ بسلامة البلجيك ، فطلبت الى فرنسا وبروسيا أن تقدما ضمانا بذلك ، ولما تم لها الأمر لزمت جانب الحياد كما لزمته النمسا وروسيا والدانيمرك وايطاليا ، واقتصر النزاع على فرنسا وألمانيا وحدهما . وقد كانت ألمانيا كاملة العدّة والعدد ، حسنة التدريب والقيادة ، يرأس جيشها " ملتكى " بطل سادوه الذى لم يترك شيئا للظروف ، فقد هيأ المعدّات ، ورسم الخطط التى يسير عليها من قبل ، بينما كان ينقص الجيش الفرنسى كل المعدّات اللازمة للقتال وتنقصه الخبرة والتدريب وحسن القيادة ، فلما تلاقى الجيشان هزم الأخير هزيمة لا مثيل لها فى التاريخ الحديث .

الحـــرب وأدوارها ــ بدأت الحـرب بمناوشة عنـد سار بروكن (Sarbrucken) تفوّق فيهـا الفرنسـيون ، ثم توالت الهزائم عليهـم فى ويسنبرج (Weissenberg) وورث (Worth) واضطر الفرنسيون الى الانسحاب من الالزاس واللورين فى ٤ أغسطس . وقد كانت خطة القيادة الفرنسـية حينئذ أن ترتد الجيوش الى شالون ، إلا أن بازين قائد الجيش الأيمن هزم فى طريقه هزائم متلاحقة اضطرمعها الى الانزواء فى " متز " حيث أسرع الألمـانيون بتطويقها . أما باقى الجيش الفرنسى الذى كان يقوده مكمهون (McMahon) فقد أسرع بالسير الى باريس لحمايتها، ولكن الأمبراطور نابليون أمر هذا القائد بأن يعود لرفع الحصار عن بازين ، غيرأنه نكب فى عودته هذه بأعظم الأخطار ، إذ اكتنفه البروسيون فى سيدان وأنزلوا بجيشه البالغ ١٣٠,٠٠٠ رجل هزيمة فادحة ، وأرغموا الأمبراطور ومعه ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ رجل على التسليم فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٠ ،

وعلى أثر هـذه الهزيمة انفجرت الثورة فى باريس ، وأعلنت الجمهورية الثالثـة فى ٤ سبتمبر ، وتألفت حكومة الدفاع الوطنى وعلى رأسها تروشو ، ووزير حربيتها جول ففر ووزير داخليتها غمبتا . ولمـا كانت هذه الحكومة قد صممت على الدفاع ، زحف الجيش الألمـانى الى باريس وبدأ حصارها فى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٠ بنحو ٢٤٠٠٠٠ مقاتل ، فانتقل فريق من هيئة الحكومة الى مدينة تور برياسة كرميه وبعده غمبتا ، واتخذوها مركزا لإعداد الجيوش وتنظيم الخطط لرفع الحصـار عن باريس وطرد الألمـان من فرنسا . وقد كان فى وسع هـذه الحكومة أن تقاوم الألمـانيين مقاومة عنيفة لولا أن تول واستراسبورج سقطا فى ٢٨ سبتمبر ، وفى يوم ٢٧ أكتوبر سلم بازين وجيشه البالغ نحو ستة آلاف ضابط و ١٧٠,٠٠٠ جندى ، وبذا تفرّغ الألمـانيون لحصـار باريس ، حتى أخفقت كل مقـاومة فى داخلها وخارجها ، واضطرت المدينـة الى التسليم فى ٢٨ يناير سنة ١٨٧١ ، ولم يلبث أن تقرّر الصلح فى فرنكفورت فى ١٠ مايو على أن تستولى ألمـانيا على متزواستراسبورج

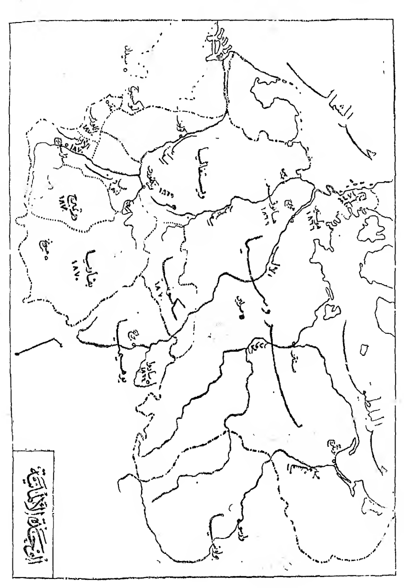
مع الالزاس واللورين، وأن تدفع فرنسا غرامة حربية عظمى تبلغ ٥ آلاف مليون فرنك، وأن يبقى جزء من أرض فرنسا محتلا حتى تنفذ هذه الشروط .

تتويج الأمبراطور — على أن أعظم ثمرة نالهـا بسمارك بجهاده الطويل، هي إتمام الاتحاد القومي الذي من أجله خاض غمار هذه الحروب المتوالية، فانه بعد أن انتصر هـذا الانتصار الحاسم على فرنسا، خابر الولايات الجنوبيـة في الانضمام نهائيا الى اتحاد الشمال حتى تؤسس دولة ألمـانية قوية تفكل الدفاع عن البلاد واسعاد أهلها، وقد تمت الموافقة على انشاء هـذا الاتحاد، وتوج الملك "ولهـلم" أمبراطورا لألمـانيا في قصر فرساي في ١٨ يناير سنة ١٨٧١



الامبراطور ولهلم الأوّل

الدســـتور الأمبراطورى — وفى ١٦ أبريل سنة ١٨٧١ أعلن دستور الأمبراطورية الجديدة، ومؤداه أن يكون الأمبراطور والمستشار الأمبراطورى على رأس الهيئة التنفيذية ، وأن تتألف الهيئة التشريعية من مجلس يمثل حكومات الولايات



بندزرات (Bundesrat)، وآخر يمثل الشعب الريشستاغ (Reichstag) وينتخب بالتصويت العام لمدّة خمس سنوات . وقد تقرّر أن تقتصر الحكومة الرئيسية على النظر فيما يهم الصالح العام، وتستبقى الولايات حتى الإشراف على كل شؤونها الداخلية على خلاف ما وقع فى ايطاليا .

على أنه بالرغم من كل هذه المظاهر، فان السلطة الفعلية لا سيما فى الشؤون الحربية والسياسية بقيت فى يد الأمبراطور وأعوانه، وهذا ما كان يعمل له بسمارك . فالاتحاد فى نظره لم يكن مجرد اندماج بروسيا فى هيئة تمثل باقى الولايات بل سيطرة بروسيا على الجميع .

ولما كانت السلطة العليا فى البلاد قد وضعت فى يد طبقة معينة فقد انصرف الشعب الألمانى من ذلك الحين، إلى الأعمال الاقتصادية والفكرية، لا إلى الأعمال السياسية، ومع هذا فالسلطة العليا أخذت قسطها الوافر فى تلك الميادين أيضا، فأضافت كثيرا إلى ثبات مركزها . على أننا يجب ألا نفهم أن الحكومة الرئيسية كانت تملى ارادتها دائما على كل ألمانيا، فكثيرا ما كانت تتأثر بقوة الرأى العام والهيئات العديدة المنظمة . ومهما يكن من أمر هذا النظام، فقد نجحت ألمانيا فى ظله نجاحا باهرا بحيث أصبح من المتعذر أن تنعدم سلطة القيصر إلا اذا تبين للشعب أنها أصبحت أداة للشر أكثر منها للخير كما سنرى .

الفصل الرابع

حرب القرم ونشأة دول البلقان

الدور الثالث من المسألة الشرقية

أوّلا — حرب القرم :

أوصد باب المسألة الشرقية سنوات عديدة، ثم فتح مرة أخرى على مصراعيه حين عادت الروسيا الى استئناف سياستها القائمة على تقسيم أملاك العثمانيين أو وضعها

حماية تحت حمايتها ، فانه لما ارتقى السلطان عبد المجيد عرش العثمانيين عام ١٨٣٩ وأخذ فى إصلاح شؤون الدولة بمعاونة وزيره رشيد باشا ، خشيت الروسيا أن تنتعش تركيا وتدفع شر المغيرين عليها ، فاقترحت على انجلترا عام ١٨٥٣ أن نتعاونا على حل المسألة الشرقية نهائيا على أساس تقسيم الأملاك العثمانية بين الدول وجعل مصر نصيب انجلترا فى تلك الصفقة . غير أن انجلترا كانت ترى حينئذ أن سلامتها فى الهند مرتبطة بسلامة تركيا التى كانت تقف سدّا منيعا دون أعدائها فلم تذعن لهذا الاقتراح . لذلك عمدت الروسيا الى التذرّع بوسائل أخرى لتنفيذ مآربها . وحدث أن الباب العالى سلم مفاتيح البقاع المقدّسة فى فلسطين للكاثوليك ترضية لفرنسا ، فأسرعت الروسيا لايفاد رسولها "منشيكوف" للاعتراض على هذا القرار ، على زعم أن لها وحدها حق حماية المسيحية فى تركيا ، بحكم المعاهدات المعقودة بين الدولتين ، لاسيما معاهدة "كينارجى" . ولذلك قبلت فرنسا النزول عن شيء من حقوقها للروسيا حتى يحسم النزاع . ولكن الروسيا عزّزت مطلبها الأول بمطلب جديد وهو حق حماية الطوائف المسيحية الأرثوذكسية التى تسكن أنحاء الدولة ، أى حق التنازل لها عن رعاية الجزء الأعظم من سكان الأمبراطورية العثمانية ، فرفض الباب العالى هذا الطلب الذى لا يتفق وسلامة تركيا ، فأجابت الروسيا باحتلال الأفلاق والبغدان فى يونيه عام ١٨٥٣

ولما كان هذا التعدّى يهدّد مصالح الدول لا سيما انجلترا وفرنسا ، فقد عقد مؤتمر فى ڤيينا لحسم النزاع القائم بين الدولتين ، وهناك وضعت مذكرة ترك فيها أمر حماية المسيحيين غامضا ، بحيث تستطيع كل من الروسيا وتركيا تفسيرها طبقا لمصلحتها . ولكن تركيا أصرّت على ألا توضع حقوقها فى موضع الشك ، وقد عززتها انجلترا وفرنسا معا فى هذا الرأى . ولما أعلنت الروسيا تمسكها بغرضها الأول ، أسرعت تركيا باعلان الحرب فى أكتوبر عام ١٨٥٣ ، وتقدّمت الأساطيل الانجليزية الفرنسية الى مياه الدردنيل لارهاب الروسيا ، بينما كانت الدول تستأنف العمل لحل الخلاف .

وقد كاد مسعاها يكلل بالنجاح لولا أن جاء حادث قضى على كل آمال السلم .

ذلك أن أسطولا روسيا فاجأ أسطولا عثمانيا فى مياه البحر الأسود فى ميناء "سينوب" فى أواخر نوفمبر عام ١٨٥٣ فقضى عليه قضاء اضطر أساطيل فرنسا وانجلترا الى الظهور فى مياه البحر الأسود ومنع الأساطيل الروسية من الخروج من موانيها . فأثار هذا الحادث حنق الروسيين وجعلهم يأبون أية مفاوضة ترمى الى السلم بعد أن وجهت اليهم تلك الاهانة البالغة ، لذلك وجّه الأمبراطور نابليون والملكة فيكتوريا بلاغا نهائيا للروسيا يدعوانها الى احترام سلامة الأمبراطورية العثمانية والانسحاب من الأراضى التركية مع الاعتراف باستقلال السلطان المطلق فى علاقاته مع الرعايا المسيحيين ، ولما أبى القيصر أن يجيب على هذا البلاغ ، أسرعت فرنسا وانجلترا بالتحالف مع تركيا فى مارس سنة ١٨٥٤ ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين .

الحرب — بدأ الحلفاء بالاشتراك مع القوات العثمانية فى طرد الروسيين المغيرين على الأقاليم الشمالية "الأفلاق والبغدان"، فاضطرت الروسيا الى الجلاء عن هذه المنطقة لغرضين كبيرين : (أولا) أن تنزع من النمسا كل رغبة فى الانضمام الى الحلفاء لما كانت مصلحتها لا تتفق مع بقاء الروسيا فى تلك الأقاليم ، (وثانيا) أن تستدرج الحلفاء الى الأراضى الروسية فتنزل بهم ما نزل بجيوش نابليون عام ١٨١٢ ، إلا أن الحلفاء لم يرغبوا فى الاستهداف لهذا الخطر خصوصا بعد أن جنحت النمسا الى الحياد ، فنقلوا أعمالهم الحربية بعد ذلك الى شبه جزيرة القرم تجاه ثغر سباستبول .

وجهت الروسيا قواها حينئذ لحماية هذا الحصن ، غير أن الحلفاء اضطروا القوات الروسية الى التراجع فى موقعة "ألما" فى سبتمبر سنة ١٨٥٤ ، وقاموا بعد ذلك يحاصرون ذلك الموقع المنيع ، ولو كانوا هاجموه من بداية الأمر لسقط فى أيديهم ، ولكنهم تريثوا فى الأمر طويلا ، بينما كانت الروسيا تضاعف جهودها فى تحصينه ، حتى أنها

سدّت مدخله البحرى لكى يصبح الميناء فى مأمن من خطر المدافع البحرية . وهكذا طال النضال بين الفريقين ، واشتبك الخصوم فى مواقع عدّة "كبلكلافا" و"انكرمان" دون الوصول الى غايتهم حتى اضطروا الى تمضية شتاء عام ١٨٥٤ فى مواقعهم، متعرّضين لأشدّ ما يكون من البرد القارس .

لذلك حاول الحلفاء عبثا أن يضموا النمسا الى جانبهم، ولكنها كانت قد احتلت الأفلاق والبغدان بالاتفاق مع تركيا، بعد جلاء الروسيين عنها ، وتعهدت بالدفاع عن المقاطعتين اذا ما أعيد الزحف عليهما ، وبذا أصبحت ولا مصلحة لها فى الاشتراك فى حرب لاتعنيها ، هذا الى أن النمسا كانت تبغى ألا تشترك فى الحرب إلا بالاتفاق مع باقى الولايات الألمانية ، فى حين أن هذه الولايات كانت شديدة الرغبة فى نصرة الروسيا وخذلان فرنسا ، ولذا شلت يد النمسا عن مساعدة الحلفاء ، وعززت رغبتها فى البقاء على الحياد . غير أن ولاية بيدمنت الايطالية تقدّمت فى هذا المأزق لمساعدة انجلترا وفرنسا ، رغبة منها فى اكتساب صداقتهما لحل المسألة الايطالية لمصلحتها ، وأبرمت معهما معاهدة فى ٢٦ يناير عام ١٨٥٥ على أن ترسل الى القرم خمسة عشر ألف جندى .

فى تلك الأثناء، توفى نقولا الأوّل قيصر الروسيا وولى الأمر بعده اسكندر الثانى فازداد الأمل فى عقد الصلح ، وبدأت فى فيينا مفاوضات ذات شأن للوصول الى هذا الغرض ، ولكن الحلفاء أصروا على تجريد البحر الأسود من المواقع الحربية ، واعتباره منطقة حياد ، فى حين أن الروسيا كانت تأبى قبول هذا الشرط الذى يهدّد كل مطامعها فى الشرق ، ولذلك استؤنفت الحرب الضروس التى أبلى فيه الفريقان أشدّ البلاء ، الى أن سقط حصن سباستبول يوم ١٠ سبتمبر عام ١٨٥٥ ، بعد أن كلف المهاجمين والمدافعين ثمنا غاليا ، على أن الروسيين فازوا بعد ذلك فوزا كبيرا فى آسيا حيث احتلوا قارص فى نوفمبر عام ١٨٥٥

تهيأت الأحوال حينذاك الى إبرام الصلح ، إلا أن انجلترا رأت أن تمضى فى الحرب الى أن تنتصر على الروسيا نصرا حاسما يعزز دعائم السلم ، فى حين أن فرنسا ملّت الحرب التى كلفتها ثمنا غاليا ، وكانت لا تبغى المضى فيها يثقل كاهلها بعبء جديد ، إلا اذا أثيرت الشعوب المستعبدة ضدّ حكوماتها لا سيما فى الروسيا والنمسا حتى يشتدّ أزر الحلفاء . ولما كانت انجلترا لا ترغب فى زعزعة أركان السلم فى أوربا ، فقد قبلت رأى حليفتها فى الصلح . وقد عززت النمسا دعوة السلم تفاديا مما ينتج عن اقتراح فرنسا من الاضطراب والفوضى فى بلادها ، فعادت بعد تردّدها الطويل الى اعلان رغبتها فى الانضمام الى الحلفاء ، اذا رفضت الروسيا قبول شروط الصلح التى تفرض عليها .

ولما كان استمرار الحرب قد أصبح يهدّد الروسيا بنكبات عظمى ، فقد سارعت الى الخضوع لرغبة خصومها ، وفى ٢٥ فبراير سنة ١٨٥٦ عقد مؤتمر الصلح فى باريس ووافق على القواعد الآتية : (١) احترام سلامة أملاك تركيا واستقلالها ؛ (٢) قبول مبدأ تحكيم الدول فى حالة وقوع خلاف بين تركيا وبين إحداها ؛ (٣) تتعهد تركيا بتحسين حالة المسيحيين العثمانيين بغير أن تتدخل أية دولة فى شئونها الداخلية ؛ (٤) تغلق تركيا البوغازات فى وجه المراكب الحربية غير العثمانية ؛ (٥) إعلان حياد البحر الأسود ؛ (٦) حرية الملاحة فى نهر الطونة ؛ (٧) تعديل الحدود الروسية العثمانية على أن تعاد أفواه نهر الطونة الى حيازة تركيا ؛ (٨) رفع الحماية الروسية عن ولايتى الأفلاق والبغدان ، ووضعهما تحت حماية الدول .

على أن هذه القواعد قد تغيرت بأكملها فى الفترة التى تلت معاهدة باريس ، ومن ثم نشأ الرأى القائل أن حرب القرم لم تأت بفائدة ، وأن كل مجهود الحلفاء قد ذهب عبثا ، غير أن هذا زعم باطل . نعم إن الحرب أعطت تركيا فرصة لا نظير لها لتنظيم شؤونها فأضاعت تلك الفرصة ، ولكنها أعطت شعوب البلقان زمنا كافيا لاشتداد ساعدها ، حتى اذا جاء الوقت المناسب ، انحلت المسألة الشرقية حلا مرضيا على

بقاعدة احترام القوميات ، ولو كان ترك الأمر للروسيا من قبل ، لبسطت نفوذها على هذه الشعوب قبل إتمام نضجها ولأضحت خطرا عظيما يهدد أوربا بأسرها .

ثانيا — نشأة دول البلقان :

(ا) الصـــرب — كان يقطن بلاد البلقان وقت أن غزاها الترك عدة شعوب مسيحية ، تختلف بعضها عن بعض فى اللغـة والزى والعادات والأخلاق، فالصربيون فى الشمال الغربى ، والألبانيون فى الغرب ، واليونان فى الجنوب وفى الجزر وعلى بعض السـواحل ، والبلغار فى الوسط ، على جانبى جبال البلقان ، والرومانيون فى شمال نهر الطونة . فلما تولى الترك الأمر فيهم لم يلجأوا لغير القوة فى حكمهم ، ولم يعنوا بالوسائل السلمية التى تربطهم بالشعوب ، كما يفعل غيرهم فى حكم الأمم الغربية عنهم فلما ضعفت قوة الأتراك ، وأشربت هذه الشعوب مبادئ الوطنية الحديثة ، انسلخت عن الدولة تدريجا ، وكانت الصرب أول من سلك هذا الطريق . قام أهلها تحت زعامة "قره جورج" سنة ١٨٠٤ وقاتلوا الأتراك قتالا عنيفا ليضطروهم الى دفع عادية الجنود الانكشارية ، والابقاء على امتيازاتهـم المحلية ، غير أن الشقاق دب بينهـم ، وتخلت الروسيا عن معاونتهم ، فاسترد الأتراك سلطتهم ، واضطروا "قره جورج" الى الفرار الى الأراضى النمساوية ، على أن هـذا الجهاد لم يلبث أن استؤنف بزعامة "ميلوش" وهو رجل لا يقل صـلابة عن سلفه ، ويفوقه فى أساليب السـياسة ، فلم تمض سنتان حتى غدا سيدا مطلقا فى البـلاد ، إلا أنه أفسد هـذا النصر بقتله "قره جورج" فتوالدت الضغائن بين الأسرتين ، وتلطخت صحائف التاريخ الصربى بآثار الجريمة زمنا طويلا .

اعترف السلطان مع هذا بميلوش أميرا للصرب فى سنة ١٨٣٠ ، ومع أن البلاد كانت تتوق حينئذ الى الحكم الدستورى ، فان سليقة مليوش الأوتوقراطية أبت عليه إلا معارضة هذه الرغبة العامة ، فلما اضطر أخيرا الى إشراك الشعب معه فى الحكم ، تخلى عن مركزه عام ١٨٣٩ ، وتولى الامارة بعده "اسكندر قوره جرجوفيتش" بن قوره

جورج الزعيم الأول ، وقد كانت سياسته تتعارض مع سياسة الروسيا التى كانت موضع إعجاب الصربيين ، ولذا أرغم على اعتزال مركزه عام ١٨٥٨ وأعيد ميلوش الى سابق عهده بالزعامة، ولكنه لم يلبث أن توفى، فورث الزعامة من بعده ابنه ميخائيل، وفى عهده تقدّم الحكم الدستورى، ونظمت شؤون البلاد، ووسعت دائرة استقلالها[1]، على أن هذا الأمير ما لبث أن قتل من يد خصم من مزاحميه، فخلفه ابنه ميلان، وفى عهده سنّ دستور للبلاد عام ١٨٦٩ تأيد فيه مبدأ إشراك الشعب فى الحكم ونظام المسئولية الوزارية، وعلى يده أبرمت معاهدة برلين التى تقرر فيها استقلال الصرب استقلالا تاما عام ١٨٧٨

(ب) رومانيا — تتكون هذه المملكة من مقاطعتى الأفلاق والبغدان اللتين آلتا الى سلطان العثمانيين فى نهاية القرن الخامس عشر، وبقيتا تتمتعان بالاستقلال الداخلى فى ظل أمرائهما على أن يدفعا للباب العالى جزية سنوية . إلا أنه فى سنة ١٧١٦ وضع حكم البلاد فى يد أميرين يونانيين يوليهما الباب العالى من لدنه ، وقد كانت الغاية الكبرى لهؤلاء الأمراء فى الحكم جمع المال وارهاق الرعايا ورشوة الكبراء من الموظفين العثمانيين ، حتى أصبح تبديل الأمراء أمرا عاديا تلقاء ما يعدّونه من العطايا . وترى آثار هذا العهد ظاهرة فى ضم ولايتين من ملحقات هذه الولايات للروسيا إلا وهما بكوفينا سنة ١٧٧٥ وبسرابيا سنة ١٨١٢ ، كما ترى فى الدسائس الأجنبية التى لم تنقطع من جانب الروسيا خاصة، لفصم العلاقات التى تربط الولايات بتركيا، كخطوة أولى فى سبيل ضمها اليها . على أن تدخل الدول عام ١٨٥٤ فى شؤون تركيا باسم الدفاع عن مصالحها، ونزع النفوذ الأجنبى منها ، أعاد سلطة العثمانيين الى هاتين الولايتين ، إلا أن الامتيازات العديدة التى نالتها الولايتان من تركيا بضغط الروسيين، وانبعاث الروح القومية فى البلاد كما انبعثت فى غيرها من ولايات

(١) فى عام ١٨٦٢ اشتبك الجند الأتراك مع الأهالى فى نزاع اضطر معه الباب العالى الى هدم الحى العثمانى فى بلغراد ، وتحطيم بعض الحصون التركية ولكنه أجبر أخيرا على سحب جنوده نهائيا من صربيا عام ١٨٦٧

أوربة ، قوّت الأمل فى اتحاد الولايتين واستقلالها، وقد وجدا عضدا لتحقيق هـذا الغرض فى الروسيا وفرنسا بينما عارضت انجلترا وتركيا والنمسا هذا الاتحاد حتى لا ينزع الأهالى الى الاستقلال والخروج عن ملك العثمانيين . ولحسم هـذه الأزمة وضعت الدول حلا وسطا ، فتقررت عام ١٨٥٨ أن يكون لكل ولاية حاكم ينتخبه نواب الشعب، ويوافق عليه السلطان، وأن يكون لكل ولاية مجلس نيابى ، وأن يكون للولايتين لجنة منتخبة لوضع القوانين التى تمس الصالح العام ، فلما بدأت الانتخابات أجمعت الولايتان على شخص واحد وهو "اسكندر كوزا" فكان هذا الانتخاب الخطوة الأولى فى سبيل الاتحاد . والواقع أنه لم يمض عام ١٨٦١ حتى ضم المجلسان، وسميت الامارة الجديدة باسم رومانيا وعاصمتها بخارست ، وقد وافق السلطان كما وافقت الدول على ما تم ، على أن يبقى حق السلطان فى الجزية والسيادة .

حينئذ أصلح كوزا حال رومانيا فشيد الجامعات، وفصم علاقة الكنيسة الرومانية بالكنيسة الاغريقية ، وألغى نظام الإقطاع ، ومنح الزراع ملكية ما يزرعونه من الأراضى ، ولكنه أثار غضب الأشراف ورجال الدين باغتصابه أملاكهم كما أثار غضب العامة بفساد أخلاقه ، واحتقاره للمبادئ الدستورية ، ونزعته الى الحكم الفردى ، تحت غطاء المظاهر البرلمانية . لذلك أجبر الأمير على النزول عن العرش عام ١٨٦٦ وأقيم مكانه شارل الأوّل من أسرة هوهنزلرن، وفى عهده تحوّلت رومانيا من إيالة عثمانية شديدة الانحطاط الى مملكة أوربية ذات بأس وقوة، فقد نظمت الجيوش وأصلحت المالية وعززت المبادئ الدستورية وتحوّلت رومانيا الى حصن هام من حصون المدنية الأوربية .

(ج) بلغاريا والبوسنه والهرسك — اتخذت الروح الوطنية التى دبت فى بلغاريا شكلا دينيا غايته فى بادئ الأمر انفصال كنيستها عن الكنيسة الاغريقية، ولما كان العثمانيون قد اتخذوا مذ استيقظت الشعوب البلقانية مبدأ التفريق بين هذه

الشعوب ، فقد ساعدوا على إنشاء كنيسة بلغارية قائمة بذاتها ، ومستقلة عما عداها إلا أن البلغاريين تحوّلوا سريعا عن الغرض الدينى الى الغرض السياسى ، فأخذوا يقومون بالثورات فى وجه العثمانيين ، معتمدين على معونة الروسيا التى كانت لا تفتأ منذ معاهدة باريس تعمل لهدم ما بنته الدول ، وقد انفسح المجال لتعزيز سياستها بالانقلاب العظيم الذى نشأ تدريجا فى السياسة الأوربية حيال تركيا ، فالنمسا ولت وجهها شطر المشرق لتعوّض من أملاك العثمانيين ما خسرته فى ألمانيا سنة ١٨٦٦ ، بينما نرى بريطانيا تتخلى تدريجا عن سياستها القديمة القائمة على احترام سلامة أملاك السلطان حين أظهرت التجارب صعوبة الاصلاح فى تركيا ، وعجزها عن الدفاع عن المصالح البريطانية فى أرضها ، لا سيما بعد أن تحوّلت التجارة الى طريق القنال المار فى الأراضى المصرية العثمانية .

تشجعت الروسيا والأمم البلقانية حينئذ على المضى فى مجهودها ضدّ العثمانيين . ولذلك تحرّكت الثورة بادئ الأمر فى البوسنه والهرسك عام ١٨٧٥ ، فأسرعت الدول الى مطالبة الباب العالى بتنفيذ عدّة إصلاحات وضعها «اندراسى» وزير النمسا لاعادة السلم الى نصابه ، غير أن الثوّار لم يرتضوا هـذه التسوية وصمموا على إعادة الكرة ، وقد كانت الظروف كلها فى مصاحتهم ، ففى هذا الوقت ، بدأت أعمال حزب تركيا الفتاة التى أدّت الى خلع السلطان عبد العزيز فى ٣٠ يوليه سنة ١٨٧٦ وقتله بعـد ذلك ، وقيام مراد الخامس ، وخلعـه كذلك فى ٣١ أغسطس ، ثم ارتقاء السلطان عبد الحميد العرش . انتهز الثوار هـذه الفرص وأعلنوا من جديد الحرب على تركيا ، وقد شاركهم البلغاريون فالصربيون وسكان الجبل الأسود ، فتحوّلت الحرب الى مذابح دموية عظيمة بين العثمانيين والثـوّار ، ممـا أحفظ الروسيا التى صممت على منازلة العثمانيين ، والانتصار للشعوب البلقانية .

لذلك عمدت الدول الى حسم النزاع فى مؤتمر عقد لذلك الغرض سنة ١٨٧٧ ، إلا أن الأتراك تمسكوا بمبدأ عدم التدخل فى شؤونهم ، ارتكانا على مساعدة انجلترا اذا أفضت المسألة الى حرب ، غير أن ذلك لم يكن ، لأن دزرائيلى "لورد بيكنزفيلد" الذى كان على

رأس الحكومة الانجليزية وقتئذ ، لم يجرؤ على مساعدة العثمانيين بعـد أن شاع خبر المذابح الأخيرة ، وبعد أن طلب غلادستون رئيس الأحرار خروج الأتراك من أوربة .

لذلك أعلنت الروسيا الحـرب على تركيا فى أبريل سـنة ١٨٧٧ ، وانضمت رومانيا اليها ، واقتفت الصرب والجبل الأسـود أثرهما ، فعبر الحلفاء نهر الطونة ، وحاصروا حصن " بلفنـا " فدافع عنه قائده البطل عثمان باشا دفاعا مشهودا لمدّة خمسة شهور كان فيها الجيش الروسى يقوم عبثا بالكرة بعد الكرة ، فلما سقط الحصن فى أيديهم ، توغل الحلفاء فى الزحف حتى اقتربوا من القسطنطينية فى يناير ١٨٧٨ ، وحينئذ طلب السلطان الصلح ، وأوعزت انجلترا الى أسطولها بالدخول فى البوغازات تهديدا للروسيين اذا هم لم يكفوا عن الهجوم على الأستانة ، ولذلك أسرعوا الى عقد معاهدة سان استفانو " مارس سنة ١٨٧٨ " وبها تقرر أن تنال رومانيا والصرب والجبل الأسود استقلالها ، وأن تمنح البوسنه والهرسك وبلغاريا استقلالا إداريا ، على أن تمتدّ حدود هذه الأخيرة من البحر الأسود الى بحر إيجه فتشغل إقليم الروملى ومقدونيا ، علاوة على بلادها الأصلية ، وأن تأخذ الروسيا باطوم وأرزن وقارص .

مؤتمر برلين — غير أن أغلب ممالك البلقان عارضت فى هذا التقسيم الذى يجعل الشعوب السلافية تتفوّق تفوّقا عظيما فى البلقان ، كما أن الدول العظمى خشيت من اشتداد نفوذ الروسيا وازدياد الخطر على تركيا التى تركت من غير حدود قوية تحميها ، لذلك ألحت بعرض المعاهدة على مؤتمر يعقد فى برلين ، وقد اجتمع ذلك المؤتمر برياسة بسمارك سنة ١٨٧٨ وقرر ما يأتى :

(١) تبقى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ نافذة فيما يختص بدولية البوغازات ونهر الطونة ، وقبول مبدأ التحكيم قبل الالتجاء الى القوّة ، وكذلك مبدأ احترام استقلال وسلامة تركيا ، وتمتعها بكل امتيازات القانون الأوربى العام الذى يتمتع به سواها [١] .

(١) يلاحظ أن هـذا القرار لم ينص على حياد البحر الأسود لأن الروسيا أسرعت إبان الأزمة الأوربية عام ١٨٧٠ وأعلنت عدم تقيدها بهذا النص ، وقد وافقت الدول على ذلك فى مؤتمر عقد بلندرا فى فبراير عام ١٨٧١

(٢) الموافقة على استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود .

(٣) إرجاع مقدونيا الى سلطة تركيا .

(٤) جعل بلغاريا الحقيقية إمارة مستقلة استقلالا داخليا تدفع الجزية للسلطان ، أما الروملى الشرقى وهو الجزء الجنوبى من بلغاريا ، فيحكمه وال مسيحى يوافق السلطان على تعيينه .

(٥) تتولى النمسا إدارة البوسنه والهرسك ، وتعسكر جنودها فى سنجق نوفى بازار ، وتسترد الروسيا من رومانيا بساربيا التى أخذت منها فى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ ، نظير إعطائها دو بروجا ، وكذلك تأخذ قارص و باطوم ، أما انجلترا فقد تعهدت للترك بأن تحفظ لها ممتلكاتها فى آسيا ، على أن تأخذ جزيرة قبرص لنفسها ، وأعطيت تساليا وأبيروس لليونان ، وبهذا خسرت الدولة العثمانية خسارة كبرى .

مؤتمر برلين



تيودورى باشا شوالوف بسمارك اندراسى بيكنزفيلد جرتشاكوف

الفصل الخامس

المسألة الشرقية — الدور الأخير

تحطمت عروش الملكية المطلقة فى أنحاء أوربة فى القرن التاسع عشر، وأخذت الأمم تودع عهد المظالم والفوضى، وتستقبل عهدا جديدا حافلا بالسعادة والرخاء، إلا أن الأمبراطورية العثمانية بقيت تتدهور تدهورا هائلا سريعا كما رأينا، فتولد القلق والذعر والخجل بين طبقات الأمة، وتوطدت العزائم على اقتفاء أثر الأمم الأخرى فى سبيل الاصلاح، حتى تنبعث البلاد بعثا جديدا، وتسترد مكانتها بين أمم الأرض .

كيف بدأت النهضة — ففى عهد السلطان المصلح محمود الثانى صدر "خط شريف جلخانة" سنة ١٨٠٨ وبه تقرر إعادة تنظيم الحكومة على أساس يضمن إصلاح شئون الدولة، وفى عهد السلطان عبد المجيد، أعلنت خطة جديدة للاصلاح فى سنة ١٨٣٩، وفى عام ١٨٥٦ صدر "الخط الهمايونى" الذى أعان المساواة بين كافة طبقات الأمة، غير أن هذه المرسومات لم تؤدّ الفائدة المرجوة منها، فلما كان عهد السلطان عبد الحميد الثانى، تقدّم حزب تركيا الفتاة بزعامة مدحت باشا، وانتزع عهدا بتأسيس مجلس نيابى يسهر على مصالح الأمة، ويقضى على جرائم الفوضى والفساد التى شلت حركة الرقى فى البلاد، وأعجزتها عن الأخذ بأسباب الرقى والاصلاح .

غير أن عبدالحميد كان ثابت الاعتقاد فى الحكم المطلق، شديد الرغبة فى مناوأة المجهود الوطنى، والقضاء على مدحت « ذلك المجرم الذى أضل الناس وساقهم فى طريق الغواية» ! فما كادت الروسيا تعلن الحرب على تركيا سنة ١٨٧٨، حتى انتهز السلطان فرصة الاضطراب الناشئ عن ذلك الصراع وأسرع الى حل البرلمان

ونفى مدحت باشا وتفريق أنصاره ، وإغلاق أبواب "ضوله باغجة" التى كانت يجتمع فيها النواب ، وقد ظلت مغلقة الى اليوم الذى أعيد فيه الدستور سنة ١٩٠٨

سياسة عبد الحميد — وقد كانت هذه الفترة الطويلة حافلة بأنواع الضغط المميت والاضطهاد القاتل الذى قلما رآه العالم ، فقد كان السلطان فى جزع دائم من الحنث بعهده ، فتذرّع بالقسوة والاضطهاد ليزيل شبح المخاوف عن نفسه ، وملأ الحكومة بأشخاص لاخلاق لهم ، بل ولا مبدأ ، ولاعهد ، ولا دين . ضالتهم الوحيدة الإثراء وجمع المال بأى طريق كان . "هذا هو العهد (كما قال أحد الأتراك) الذى كان فيه المال والثروة غرض الحياة الأعلى . وما كان ذلك الغرض يستدعى سوى أن يتبرأ الانسان من قومه ، ويتجرّد من شخصيته ، ويضحى ابنه وأمه وأخته وأصحابه وذمته ، وكل العواطف الوطنية والمبادئ البشرية"! ولكى تبقى تركيا فى عزلة عن العالم وتقلباته ، حرم السلطان على الناس السفر الى الخارج ، وشدّد الرقابة على الصحف والمطبوعات ، وأقام على حياة الناس عيونا ورقباء ، ونزع حرمة المنازل ، حتى غدت الحياة حلما هائلا فظيعا لايحتمل . فلما أرغم السلطان سنة ١٩٠٨ على ردّ الدستور ، أجاب بأن "تلك هى الأمنية التى كان يعمل لها طول حياته"! والواقع أنه لولا البؤس الذى خلفه بين رعاياه ، وكأس المذلة التى أدارها على كل طبقة وجنس ، لما اتخذت الحركة حينئذ تلك القوة الدافعة التى جرفت كل شىء أمامها .

السلطان والدول — حاول السلطان خلال هذه الفترة إنقاذ البلاد ، كما حاول مدحت من قبل ، غير أنه أبى الاعتماد على مجهود الأمة الوطنى ، وانصرف الى تكوين جامعة إسلامية كبرى . إلا أن عملا واسع النطاق كهذا ، كان يقتضى تنظيما لا قبل له به . فعاد الى سياسة التهديد والاستعطاف ، سياسة الاحتجاج يعقبها الخضوع والاستسلام ، كما فعل مع انجلترا فى شأن احتلال مصر سنة ١٨٨٢ ، ومع الروسيا

فى مسألة ضم الروملى الشرقى الى بلغاريا سـنة ١٨٨٥ ، ومع الدول جميعا فى مسألة المراقبة المالية على تركيا سنة ١٨٦٠ ، والمراقبة الادارية على مقدونيا سنة ١٩٠٣ ، مما جرح قلب كل وطنى تركى ، وأظهر العثمانيين فى مظهر الشعب الساقط القاصر، الذى لا قدرة له على إدارة شؤونه ، ولا درء الأذى والاهانة عن نفسه .

على أن الدول التى انتدبت للمراقبة وهى الروسيا والنمسا ما كانت ترغب حقيقة فى تعمير البلاد التركية كما كانت تدعى ، بل جعلت تبذر بذور الفوضى والشقاق من جديد ، حتى ترغم باقى الدول على الرضى بتقسيم تركيا والتخلص من مشاكلها . ولكن انجلترا أصرّت على الاكتفاء بتشديد المراقبة على شئون الدولة سنة ١٩٠٥ ، اجتنابا لأزمة أوربية كبرى ، فعوّلت النمسا على أن تعمل بانفراد من ذلك الحين ، وأخذت تستخدم سلطانها باعتبارها عضوا فى المراقبة الثنائية ، لبسط نفوذها على كل الأراضى التى تصلها ببحر الأرخبيل ، وقد حصلت فعلا على امتياز سكة حديدية تمرّ بنوفى بازار ، فانفتح باب المسألة الشرقية فجأة على مصراعيه ، واقتربت الروسيا من انجلترا ، والنمسا من ألمانيا ، وأصبحت حياة تركيا فى الميزان .

حينئذ فوجئ العالم بأخبار ثورة واسعة النطاق "يوليه سـنة ١٩٠٨" بهرت الأبصار وقطعت على ذوى المطامع حبل الأمانى والآمال .

جمعية الاتحاد والترقى — وذلك أنه حين أوقف عمل الدستور سنة ١٨٧٨ تفرّق أشياعه وأنصاره فى أوربة ، ثم أخذ هؤلاء المهاجرون يقتربون بعضهم من بعض ، الى أن أتيحت لهم فرصة الاجتماع سـنة ١٨٩١ فى جنيف ، فوضعوا نواة الجمعية التى سميت فيما بعد "بجمعية الاتحاد والترقى" . ولما جاءت الأنباء بتدخل الدول فى شئون تركيا ، تأكدوا اقتراب خطر داهم على الوطن ، فتقرّر فى مؤتمر حافل عقد بباريس فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ وجوب ابتداء العمل لقلب الحكومة التى جلبت على البلاد نكبات لا حدّ لها ، وتقرّر أن تكون مقدونيا مركز الحركة ، لبعدها عن عيون الأستانة ، ولاشتداد الضنك فيها على الأهالى والجنود معا .

ثورة سنة ١٩٠٨ — ولم يمض إلا القليل حتى أخذ أعضاء الجمعية ينشرون الدعوة سرا بين رجال الجيش ، فانضم أغلبهم اليها ، ولذلك تحدد يوم ٣ يوليه سنة ١٩٠٨ لاعلان الثورة على يد أركان الحركة ، أمثال نيازى بك وأنور بك ، وصلاح بك ، أولئك « الفدائيون » الذين حملوا أرواحهم فى أيديهم ، وخرجوا الى البلاد لهدم كيان الظلم ومحو آثاره ، فانزعج القصر السلطانى ، وأمر شريف باشا بأن يسير من متروفتزا ، ويسحق الثورة فى مهدها ، ولكن هذا القائد بوغت فى الطريق وشتت شمل جنوده ، فأرسلت على الأثر حملة جديدة من الأناضول بغير نتيجة تذكر ، فقد سقطت فى الأسبوع الثالث من يوليه موناستير وسلانيك وكوسوفيا فى يد الثائرين ، وانضم رجال الفيلقين الثانى والثالث وجنود الأناضول الى الحركة .

فوز الثورة — حينئذ أنذرت الحكومة الحميدية بالزحف على العاصمة إن لم يعلن الدستور ، فأسقط فى يد السلطان ، وقرر قبول مطالب الأمة بلا تردد . وهكذا سقطت حكومة الظلم كما يسقط بيت من الورق ، فأفاق الناس كأنما كانوا فى حلم مروع ، وأطلقوا العنان للسرة والابتهاج الوطنى العظيم . وقد قوبل نبأ نجاح الثورة على ذلك الوجه — أى دون إراقة كثير من الدماء ، بالاعجاب العظيم فى أنحاء العالم ، ولكن الدول ذات المطامع أخذت تحسب ألف حساب للنهضة المنتظرة على يد الشبان الأتراك .

الدول وتركيا الدستورية — ما كاد الاتحاديون يبدأون بتنظيم الحكومة حتى هبت العاصفة الدولية ، فان دول أوربة التى كانت تترقب الفرص لتمزيق أوصال السلطنة العثمانية ، هالها أن تستجمع الدولة قوتها وتتأهب لردكيد الطامعين فيها ، فعجلت بالعمل قبل أن يتم ذلك التأهب ، فبلغاريا أعلنت استقلالها ، والنمسا قررت ضم مقاطعتى البوسنه والهرسك اليها ، وكريت أعلنت انضمامها الى اليونان ، فلم يمض خريف سنة ١٩٠٨ إلا وقد فقدت تركيا جزءا عظيما من أملاكها ، وهكذا

وجد الاتحاديون فى مأزق حرج ، فقد كان أساس دعوتهم ضدّ العهد القديم انقاذ الأمبراطورية من الخطر، فلما انتزعت أملاك عثمانيـة فى فاتحة عهدهم ، ضعف نفوذهم وشجعت العناصر الرجعيـة على القيام فى وجههم ، لحاربهم الاتحاديون بشدّة وصرامة ، وعزلوا سلطانهم ، وولوا مكانه أخاه الأمير محمـد رشاد باسم السـلطان محمد الخامس ، فثبتوا فى النهاية دعائم الحكم الجديد ، إلا أنهم لم يقووا مع ذلك على خوض غمـار حرب طاحنة لاسـترجاع ما فقدوا ، فاعترفوا بالتغييرات التى حدثت بعد قليل .

الحرب الايطالية — ولما كان هـذا الاعتراف قد مزق معاهدة برلين ، فقد رأت الدول نفسها فى حل من تنفيذ رغباتها حيال تركيا ، وكانت ايطاليا أسبقهن الى العمل ، ففى ٢٦ سبتمبر سـنة ١٩١١ أنزلت جنودها على سواحل طرابلس ، و بدأت أعمالها الحربية للاستيلاء على هذه الولاية بحجة عدم استتباب الأمن فيها ، فنازلها العرب والأتراك منازلة هى مضرب الأمثال فى الشجاعة وقوة البأس والثبات ، غير أنهم أرغموا على النزول عن هـذه الولاية فى معاهدة لوزان سنة ١٩١٢ ، لأنهم كانوا على أبواب حرب جديدة تنذر بتمزيق سلطنة آل عثمان .

الحرب البلقانية (الحلف المقدّس) — هال دول البلقان كما هال غيرها نهضة تركيا ، فتناست الأحقاد وضغائن القرون الطويلة ، وألفت حلفا « مقدّسا » لتحرير قومها من ربقـة العثمانيين ، وما جاء خريف عام ١٩١٢ حتى كان البلقان بأسره شعلة من نار .

فوجئ العثمانيون بالحرب ولم يكتمل تنظيم جيوشهم بعـد ، فكانت الهزيمـة ساحقة فى كل ميادين القتال — عدا خط شطلجة على أبواب القسطنطينية ذاتها . ففى الميدان الغربى هزم الأتراك فى كومانوفو فى ٢٣ أكتوبر ، واستولى الصربيون على أسكوب وموناستير ، بينما كانت جنود الجبل الأسود ، تعززها جنود الصرب ، قد زحفت على سنجق نوفى بازار ومنها الى ألبانيا فسقطت دورازو فى نوفمبر .

أما فى تراقيا حيث كانت قوات العثمانيين الكبرى محتشدة تعززها قلاع قرق كليسه وأدرنه ولولو برغاس، فقد زحف البلغار من الشمال والغرب على أدرنه وقرق كليسه، ثم طوّقوا أدرنه وأخذوا قرق كليسه عنوة فى ٢٤ أكتوبر، فارتد الأتراك الى لولو برغاس، حيث ناضلوا خمسة أيام متوالية ثم انسحبوا الى خطوط شطالجة .

أما فى الميدان الثالث — ميدان اليونان — فقد كانت الهزيمة تامة أيضا ، فان اليونانيين انضموا الى جنود الصرب، وطوّقوا يانينا، واستولوا على سالونيك فى نوفمبر، بينما كان الأسطول اليونانى يستولى على جزر الأرخبيل الواحدة بعد الأخرى ، وفى فبراير سنة ١٩١٣ سقطت أدرنه ويانينا بعد دفاع مجيد . حينئذ قرر المؤتمر المنعقد فى لوندرة لتسوية النزاع القائم فى البلقان أن تتزل تركيا عن الأراضى الواقعة غرب الخط الممتدّ من ميديا على البحر الأسود، الى إينوس على بحر إيجة — بالرغم من تصريح انجلترا فى أوّل الحرب بأنها لن تسمح بتغيير خريطة البلقان لتوقعها إذ ذاك انتصار الأتراك .

الشقاق بين المتحالفين — غير أن فوز الحلفاء أكثر مما كانوا يأملون، أوقع الخلف بينهم على تقسيم الأملاك التى ارتد عنها العثمانيون، ولما اتسعت مسافة هذا الخلف، انقضت بلغاريا على حليفاتها، فقامت رومانيا ضدّها، وأنزلت الهزيمة بجنودها . واستجمع العثمانيون قواهم فى تلك الأثناء واسترجعوا أراضيهم فى شرق ووسط تراقية بما فيه أدرنه، بقيادة أنور بك، فخلص هذا الانتصار شرف العثمانيين المثلوم، كما خلصته استماتتهم فى الدفاع عن خطوط شطالجة من قبل .

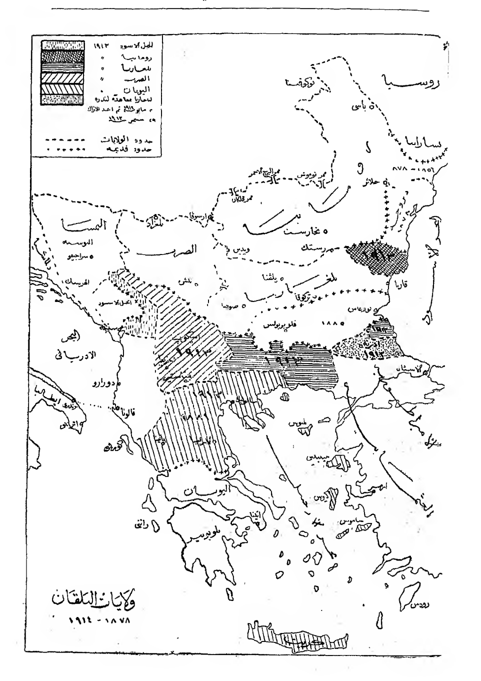
عقد الصلح — وفى معاهدة بوخارست (١٠ أغسطس سنة ١٩١٣) استولت تركيا على شمال ووسط مقدونيا، فأصبحت حدودها متاخمة لحدود اليونان . ثم تقرر أن تكون ألبانيا مملكة مستقلة حتى لا تصل الصرب الى البحر الادرياتيكى . وأما بلغاريا فلم تستول إلا على جزء صغير من مقدونيا بما فيه ميناء دده أغاج ولاجوس على بحر إيجه، وتخلت عن شرق تراقية ووسطها لتركيا، كما تخلت

عن سلستريا فى دوبروجا الى رومانيا ، فكانت بذلك أقــل ممــالك البلقان حظا .
أما اليونان فقد وصلت حدودها شمالا الى نهاية أبيروس ، وشرقا الى تراقيا بمــا فيها
سلانيك وقوله .

تركيا بعد حرب البلقان — على أن انخذال العثمانيين فى هذه الحرب ،
أضاف الى صفهم أعظم قوة حربية فى أوربا ألا وهى ألمــانيا ، فان نفوذ الألمــانيين
كان قد ظهر فى تركيا منذ ســنة ١٨٨٨ ، واشتدّ هذا النفوذ فى سنة ١٨٩٩ على أثر
منح الألمــانيين امتياز سكة حديد بغداد ، فلما تطوّرت الحوادث فى البلقان بعــد
سنة ١٩٠٣ ، أصبحت هــذه المصالح فى خطر . وكانت هزيمة الأتراك فى حرب
البلقان واتساع أملاك الصرب أكبر مايدعو لاشــتداد هــذا الخطر ، لذلك وقف
الألمــان والنمساويون منذ ذلك الحين فى صف تركيا لأن سلامة مصالحهم أصبحت
مرتبطة بسلامتها . أما الأتراك فقد قرّروا أيضا أن ينضموا الى دولتى الوسط لأن
احتلال الأنجليز لمصر ، ومطامع فرنسا فى سوريا ، والروسيا فى القسطنطينية ، جعل
مصالحها مطابقة تماما لمصالحهما .

المصــادر

يضاف الى مصــادر الأبواب المتقدمة — كتاب (Bonapartism) تأليف
(Fisher) ، وتاريخ عصرنا (١٨٨٥ — ١٩١١) تأليف (Gooch) — محاضرات
الأستاذ (Faic Marcks) — عن ألمــانيا (كمبردج سنة ١٩٠٢) — « كافور »
تأليف (Pietro orsi) — محاضرات (بولتن كنج) عن إتمــام الوحدة الايطاليــة
(كمبردج ســنة ١٩٠٢) — المسألة الشرقية للأستاذ ماريوت (Marriot) —
ومحاضرات أميل ريخ (Emil Reich) — عن النمسا (كمبردج سنة ١٩٠٢) .


ولايات البلقان
١٨٧٨ - ١٩١٤
روسيا
بسارابيا
الصرب
بلغاريا
البوسنة
اليونان
البحر الادرياتي
بلوبونيز

الباب السادس

انجلترا – إرلندا

الفصل الأول

انجلترا

اصطلح المؤرخون على اعتبار انجلترا وحدة قائمة بذاتها إبان القرن التاسع عشر، لأنها لم تتأثر إلا قليلا بالعوامل التي حركت أوربة في هذا العهد، ولم تشترك في السياسة الأوربية إلا بقدر ما كانت تسمح لها مصالحها، اذكان جل اهتمامها منصرفا الى المشاكل التي ولدها نظامها الاقتصادي الجديد، والامبراطورية الواسعة التي أنشأتها فيما وراء البحار .

السياسة الخارجية – يلاحظ باديء الأمر أن سياسة انجلترا الخارجية سارت وفق سياستها التقليدية ، وهي مراعاة مصالحها الخاصة دون أن تندفع في تيار العواطف والنظريات ، فلقد قضت على سياسة التحالف الأوربي التي وضعها مترنيخ في تروباو ، وتدخلت في مسألة اليونان حتى ظفرت باستقلالها، وظاهرت البلجيك ضد بيت أورانج، والولايات الايطالية ضد حكامها الظالمين.

ومن جهة أخرى اتبعت انجلترا في هذا القرن سياسة الاحتفاظ بأملاك تركيا حتى لاتضعف أمام الدب الروسي الذي كان يحاول اختراق الأملاك العثمانية وتهديد الأملاك البريطانية في آسيا، والتسلط على طرق التجارة وخطوط المواصلات الهامة في البحر الأبيض . لذلك نراها تظاهر تركيا ضد محمد على إبان الأزمة التي وقعت

سنة ١٨٤٠ ونراها فى سنة ١٨٥٤ تدخل حرب القرم بالاتفاق مع فرنسا لتوطيد سلامة تركيا ، والقضاء على الأحلام العريضة التى كان يتوق لتحقيقها الروسيون .

غير أن انجلترا عدّلت سياستها حيال تركيا تعديلا جوهريا منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، لأنها رأت أن لاقبل لتركيا على حكم الشعوب المسيحية ، وأن من الحزم حل المسألة الشرقية لا بالابقاء على ماقام الدليل على صعوبة بقائه بل بتعضيد القوميات الناشئة وضمان استقلالها حتى لاتقع تحت نفوذ الروسيا . ومن جهة أخرى كانت انجلترا تتوق الى احتلال مصر بعد فتح قناة السويس ، فكان من العبث أن تدعو الى الاحتفاظ بسلامة أملاك تركيا فى الغرب فى حين أنها كانت تهدم ركنا عظيما من تلك الأملاك فى الشرق .

السياسة الداخلية — كان الانقلاب الصناعى فى انجلترا وما نشأ عنه من التغير السياسى والاجتماعى والفكرى أهم الحوادث الداخلية شأنا فى هذا القرن . وقد أفردنا له فصلا خاصا فيما يلى ، ونقتصر هنا على تتبع نشوء الديموقراطية ومبادئ الحرية السياسية فى هذا العهد ، فقد نشأ عن الانقلاب الاقتصادى وما انطوى عليه من استخدام الآلات مكان الأيدى العاملة أن اشتدّ الضيق بالكثير من السكان لاسيما بعد أن أخذت الدول الأوربية تحذو حذو انجلترا فى استخدام الآلات وتعمل لحماية المتاجر والمصانع الحديثة من ضغط المنافسة الخارجية ، وقد ضاعف الأزمة أن الحكومة اضطرت الى حماية محصولات المزارعين الذين كانوا يخشون منافسة الدول الأجنبية بعد انتهاء حروب نابليون ، فارتفعت أثمان الغلال واشتدّ الضيق بالأهالى اشتدادا عظيما ، فتحولت الأنظار الى إصلاح النظام النيابى على مثل ماوقع فى فرنسا حتى تعالج المضار التى كانت تلحق سواد الشعب .

النظام النيابى — وقد كان النظام النيابى حينئذ يقوم على ثلاث قواعد : الملك ومجلس اللوردات الوراثى ومجلس النوّاب . وقد كان المبدأ المعمول به أن الملك يملك ولكنه لايحكم ، وأن الهيئة التنفيذية تتألف من حزب الأغلبية فى مجلس

النوّاب سواء أكان حزب التورى أم حزب الهويج . وقد كان الحزب الأول يشمل أصحاب الضياع الواسعة من طبقة المحافظين الذين كانوا يرغبون فى ازدياد نفوذ الملكية فى إدارة الحكومة ، فى حين أن حزب الهويج كان يتألف من كبار التجار وأصحاب المصانع من ذوى الآراء الحرّة الذين كانوا ينزعون الى تضييق سلطة الملكية وسيادة نفوذ الشعب .

أما نظام الانتخاب لمجلس النوّاب فكان يرجع عهده الى القرن الرابع عشر، وكان يبيح التصويت لطبقتين فقط من طبقات الشعب : أصحاب الأراضى الذين يتقاضون إيجارا لا يقل عن ٤٠ شلنا فى الأقاليم ، وأعضاء البلديات وغيرهم من ذوى الامتيازات فى المدن . ولذا اقتصر عدد الناخبين فى سنة ١٨١٥ على ٤٤٠٠٠٠ ناخب فى حين أن عدد السكان بلغ حينئذ نحو عشرين مليونا ، وعدد أعضاء المجلس ٦٥٨ نائبا .

ومما زاد فى ضعف هذا النظام أن الدوائر الانتخابية كانت موزعة توزيعا سيئا ، فقد كانت ارلندا تنتخب مائة نائب عن ستة ملايين من السكان ، وكانت اسكتلندا تنتخب ٤٥ نائبا عن مليونين فقط فكان العضو الواحد إذن يمثل ما لا يقل عن ٥٥٠٠٠ نسمة ، فى حين أن انجلترا التى كان يبلغ سكانها اثنى عشر مليونا كانت تنتخب ٥١٣ نائبا أى بنسبة عضو لكل ٢٣٠٠٠ نسمة . ويلاحظ أنه كان يمثل الأقاليم فى المجلس ١٨٦ عضوا ، وكان عدد الناخبين فيها ٤٢٠٠٠٠ ناخب فى حين أنه كان يمثل المدن ٤٦٧ عضوا مع أن عدد الناخبين فيها لم يزد عن خمسة عشر ألف فقط .

ومن جهة أخرى كانت الدوائر الانتخابية على حالتها التى تقررت فى القرن الرابع عشر، على الرغم من التقلبات التى مرت عليها من إزدياد أو نقص فى السكان ، فقد كان لمدينة اندره من الأعضاء فى القرن التاسع عشر، ما كان لها فى القرن الرابع عشر مع أن سكانها ازدادوا من خمسين ألف نسمة الى مايربو عن المليون فى سنة ١٨١٥ ،

وكانت مدينــة مانشستر مثــلا محرومة من التمثيل فى المجلس لأنهــا لم تكن فى القرن الرابع عشر إلا قرية صغيرة فى حين أنها قد أصبحت فى القرن التاسع عشر من أكبر المدن الصناعية والتجارية . وهناك كثير من المدن القديمة التى سقطت سقوطا عظيما فى القرن التاسع عشر بحيث لم يبق فى كثير منهــا إلا القليل من الناخبين ومع هــذا فقد احتفظت بنوابها الذين تحدّدوا لها من قديم . ولمــا كانت هذه المدن فى قبضة بعض الأسرات يتصرفون بمقاعدها لذويهم وأصدقائهم، فقد انتشرت الرشوة ومااليها من وسائل إفساد الأخلاق لا سيما وقد كانت سرية الانتخابات معدومة ممــا جعل الانتخابات صوريا لا يمثل الشعب بحال .

حركة الاصلاح النيابى ـــ هذا هو حال النظام النيابى فى انجلترا فى فاتحة القرن التاسع عشر . فلما اشتدّت الأزمة الاقتصادية فى البلاد من جرّاء كساد المتاجر وارتفاع أسعار الغلال على نحو ما بينا قبلا ، وتعززت مبادئ الاصلاح النيابى بتأثير الثورة الفرنسية وكتابات المفكرين أمثال بنتام وغيره ، تزعزع الأساس الذى ارتكز عليه النظام القديم، وتحوّلت الأنظار الى إصلاح النظام النيابى على قاعدة التصويت العام وسرية الانتخابات وتقصير أجل مجالس النوّاب ، فعقدت الاجتماعات فى أنحاء المملكة وأقيمت المظاهرات تعزيزا لها حتى خيف أن يتزعزع أساس السلم وتندفع البلاد فى طريق الثورة الفرنسية وما نشأ عنها من القوّة والعنف وأعمــال الفوضى والاجرام ، فأخذت الحكومة تضرب على يد الأحرار والداعين الى تعديل نظــام الحكومة بشــدّة لا تجاوزها شدّة مترنيخ ، فأصــدرت ما يعرف بالقوانين الســتة عام ١٨١٩ وهى تنص على تقييــد حرية النشر والخطــابة ومناهضة أنصــار التغيير والانقـــلاب .

إلا أن حركة الاصلاح سارت مع ذلك فى طريقها يعززها الأحرار من أنصــار الحزب المعــارض للحكومة حينئذ وهو حزب " الهويج " فلمــا سقطت الوزارة إثر الانقلاب الذى وقع فى فرنسا فى ســنة ١٨٣٠ تولى حزب الهويج مقاليد الأحكام

برئاسة لورد جراى، فأسرع الى تقديم خطة معتدلة للاصلاح النيابى، ولكنها لاقت معارضة قوية من جانب خصومه على زعم أن هذا المشروع — كما قال روبرت بيل — يعرّض انجلترا لأسوأ أنواع الاستبداد وهو استبداد العامة وأنصارهم من الكتّاب والصحفيين . وحينئذ أعلنت الحكومة حل المجلس وإجراء انتخابات جديدة، فكانت الأغلبية لمصلحتها، ولذا وافق المجلس الجديد على مشروع الاصلاح، ولكن مجلس اللوردات أبى أن يصادق عليه، فتحرّك الرأى العام فى البلاد، وأقيمت مظاهرات عدّة كانت تنذر بسوء الحال . ولذلك قررت الحكومة أن تعين عددا من الأشراف حتى تفوز بالموافقة على مشروع الاصلاح، وقد تم لها ما أرادت وصودق على المشروع "يونيه سنة ١٨٣٢" .

وقد كان هذا القانون يعدّل النظام القديم فى موضعين: توزيع الدوائر الانتخابية توزيعا عادلا مع زيادة عدد الناخبين . ذلك أن القانون أبقى على تقسيم البلاد الى مدن ومقاطعات، ولكنه قضى على المدن غير الآهلة بالسكان، ووزع المقاعد التى كانت تخصها — وكانت تبلغ ١٤٣ مقعدا — على المدن الجديدة التى لم تمثل للآن فى مجلس النوّاب، هذا فضلا عن العناية بالأقاليم التى لم تعط نصيبا وافرا من النيابة فى النظام القديم . ومن جهة أخرى تغيرت قواعد الانتخاب بحيث خوّل حق التصويت لمن يدفع إيجارا لا يقل عن عشرة جنيهات فى المدن وخمسين جنيها فى الأقاليم، ولذا ارتفع عدد الناخبين الى ٨٠٠,٠٠٠ واستطاعت الطبقة الوسطى أن تشترك فى حكم البلاد بلا استثناء دينى ولا مذهبى، وفى سنة ١٨٣٥ جاءت النتيجة المنتظرة لهذا التغير بأن أعيد تنظيم المجالس المحلية على الأساس الجديد .

طبقة العمال — وهكذا بقيت طبقات العمال وحدها بلا لسان يدافع عن مصالحها فى مجالس الحكم، إلا أن بعض رجال الحكومة الذين استحثتهم دوافع الشفقة والانسانية أخذوا على عاتقهم حماية بعض مصالح هذه الطبقات، كما يرى من قوانين مساعدة الفقراء وقوانين المصانع الخ التى سنت فى هذا العهد . ثم إن العمال

أقبلوا من جهتهم على الارتباط معا لاستخدام قوة المجموع فى مصلحة الأفراد فى كل ما يختص بالأجر ونظام العمل الخ . إلا أن مساعدة رجال الحكومة بقيت محدودة تلقاء مقاومة برلمـان مؤلف من أصحاب الأعمال ، وبقيت مساعدة العمال لأنفسهم محدودة كذلك نظرا للتضييق فى هذا العهد على نقابات العمال .

ومن ثم اشتدّ الضيق بالعمال فى زمن ارتفعت فيه أسعار القمح وقلت الأجور وكسدت المتاجر، فالتجأ العمال الى المطالبة بحقوقهم السياسية رغبة فى تحسين حالتهم الاقتصادية . وقد تذرّعوا فى هذا النضال تارة بالعنف وأخرى بالمحاجة والاقناع ، ففى عام ١٨٣٥ أنشأ العمال اتحـادا بزعامة أوين (Owen) الذى اشتهر بالكتابة فى الشئون الاجتماعية والسياسية، وحدّدوا خطة هذا الحزب الجديد فى اجتماع عقد فى برمنجهام فى ٦ أغسطس سنة ١٨٣٨ وفق النظام الآتى : التصويت العام — سرية الانتخابات — تغيير مجلس النوّاب سنويا — مكافأة النوّاب . وقـد أطلق على هـذه الخطة اسم مرسوم الشعب (Charter of the People) ومن هنا نشأ اسم (Chartist Movement) الذى أطلق على حركة الاصلاح النيابى التى قام بها العمال خلال السنوات التالية لاجتماع برمنجهام .

على أنه لمـا كانت مسألة العمال مسألة اقتصادية فى الواقع كما ذكرنا فقـد كان إلغاء قوانين الغلال سنة ١٨٤٦ (وهى القوانين التى وضعت لحماية المزارعين من خطر المزاحمة الأجنبية) داعيا لازدياد الرخاء وتحسـين أحوال العمال تحسـنا مطردا حتى أخذت قوة المطالب السياسية تتلاشى تدريجا . فلما حاول بعض العمال سنة ١٨٤٨ أن يقوموا بمظاهرات تشبه مظاهراتهم التى قاموا بها فى سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٢ متأثرين بأخبار الثورة فى أوربة ، أسقط فى يدهم وفشلوا فشـلا تاما . واذا كانت الأحوال تدرّجت فيما بعـد ، وغيرت قوانين الانتخاب حتى شملت طبقـات العمال ، فلم يكن ذلك ناشئا عن مجهود العمال وحدهم ، بل ناشئا عن أحوال سياسية طـارئة .

ذلك أن السياسة الاقتصادية التى اتبعت تدريجا وهى سياسة إلغاء القيود التى كانت تقيد حرية التجارة والملاحة وفتح أسواق جديدة فى أوربة وغيرها للصناعة الانجليزية كان من شأنها أن تضاعف الرخاء المادى الذى تمتع به العمال، وهذا دعا الى ازدياد الرغبة فى الاشتراك فى الحكم حتى يمكن إلغاء قيود النقابات وإصلاح أحوال العمال إصلاحا اجتماعيا. وقد قاموا لتعزيز هذا الغرض بمظاهرات واجتماعات عديدة من سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٦٦ وكان يعززهم فى ذلك الأحرار الذين تطورت آراؤهم منذ سنة ١٨٣٢ بحيث أصبحوا يتشبثون بالأنظمة الديموقراطية فى أكمل صورها، كما عززهم المحافظون الذين تخلوا عن معارضة مطلب الاصلاح لأغراض حزبية[1].

واذا كانت الظروف كلها قد تهيأت لمصلحة العمال فقد دلت التجارب أيضا أن قصر الانتخاب على طبقة معينة يدعو الى استمرار أساليب الرشوة التى جعلت الانتخابات فى انجلترا ضربا من الهزؤ والسخرية. هذا الى أن السكان ازدادوا بين سنة ١٨٢٧ وسنة ١٨٧٦ نحو ٤٠ فى المائة وهذه الزيادة لم توزع على البلاد توزيعا عادلا. فبينما كانت بلدة توتنس مثلا تتمتع بعضوين عن سكان لا يبلغون أربعة آلاف، كانت لفربول بسكانها الذين كانوا يبلغون ٤٠٠,٠٠٠ نسمة تنتخب مثل هذا العدد.

لذلك حاول غلادستون فى سنة ١٦٦ أن يوازن بين نظام الحكومة وحالة البلاد الحقيقة بعض الموازنة فقدّم مشروعا الى البرلمان بتعديل قواعد الانتخاب

(١) يعزى هذا الانقلاب الى دزرىلى زعيم المحافظين كما يعزى انقلاب الأحرار الى غلادستون. ودزرىلى هذا من أسرة يهودية تحوّلت الى الكنيسة الانجليكانية، وقد نال شهرة عظمى فى عالم الأدب والسياسة، فلما تولى الزعامة فى حزبه سعى بجهده فى تطور آراء هذا الحزب تطورا عظيما حتى تعلق بمبادئ الاصلاح السياسى والاجتماعى، وهيأ نفسه للكفاح العظيم الواقع بين الأحزاب فى ذلك الوقت. أما غلادستون فقد اشتغل فى السياسة من صغره واشتهر بالفصاحة ومعالجة أدق الأمور السياسية والمالية بالحكمة، هذا مع التزام الحق والعدالة فى كل طور من أطوار حياته حتى ارتفعت السياسة فى يديه الى منزلة لم ترتفع اليها فى عصره، أضف الى ذلك دقته فى التفكير وأناته فى البحث وقدرته على التمشى بحزبه فى طريق المبادئ الراديكالية السائدة فى عصره.

وتوزيع الأعضاء توزيعا يتناسب مع السكان . إلا أن ذلك المشروع رفض بإجماع المحافظين . فاستقالت الوزارة، وطاف غلادستون فى البلاد ليفوز بتأييد الأمة لبرنامج الاصلاح، فاضطرت وزارة دزريلى تلقاء إجماع الشعب، أن تقدّم مشروعا محدودا لاصلاح قواعد الانتخاب و إعادة توزيع المقاعد، إلا أن هذا المشروع عدّل تعديلا تاما على يد المجلس، فوزّع الأعضاء توزيعا عادلا على البلاد ووسعت قاعدة الانتخاب حتى شملت الصناع .

ولتحقيق هـذه الأغراض أخذ ما لا يقل عن ٥٨ مقعدا من البلاد الصغرى ووزعت على المدن الكبرى ، هـذا الى منح حق الانتخاب فى الأقاليم لمن يدفع إيجارا لايقـل عن اثنى عشر جنيها فى السنة، وفى المدن لكل من يدفع ضريبة الفقـراء أو يسكن منزلا لا يقـل إيجاره عن عشرة جنيهات ، وهكذا امتـدّ حق الانتخاب الى مالا يقل عن المليون معظمه من العمال، ولما كان نظـام الانتخاب السرى قد تقرّر فى سنة ١٨٧٢ فقد سارت انجلترا خطوة واسعة نحو الديموقراطية.

ولتتميم هـذا الاصلاح صدر قانون تمثيل الشعب (١٨٨٤ — ١٨٨٥) (Representation of Peoples' act) على يد غلادستون وهو يشمل إعادة توزيع المقاعد النيابية بحيث تنقل من البلدان الصغيرة الى المدن الكبرى والأقاليم ، هـذا فضلا عن إضافة اثنتى عشرة دائرة جديدة وجعل شروط الانتخاب فى الأقاليم موافقة لشروطها فى المدن مع مراعاة أن تكون النسبة عضوا لكل ٥٠,٠٠٠ من السكان. وهكذا ارتفع عدد الناخبين الى أربعة ملايين واستطاع الزرّاع أن يفوزوا بمـا فاز به الصناع .

غير أنه يلاحظ أن هذه التغيرات لم ترق بالبلاد الى الديموقراطية الحقيقية القائمة على التصويت العام لأنها حرمت النساء جميعا حق الانتخاب فضلا عن الكثيرين من الخدم والزرّاع وغيرهم ، هـذا الى أنه اشترط أن يقيم الناخب سنة كاملة على الأقل فى دائرته حتى يقيد فى سجل الانتخاب ، وأبيح تعدّد الأصوات لمن لهم أملاك فى جهات

متعددة لاسيما والانتخاب لم يعقد حينئذ فى يوم واحد . غير أن هذا النقص كله يعالج الآن تدريجا ، وقد تم أخيرا أعظم إصلاح شاهدته انجلترا فى نظامها النيابى وهو إعطاء النساء حق الانتخاب فى سنة ١٩١٨ فأصبح لهن ما للرجال من الحقوق السياسية ، ومن ثم أصبحت الحكومة فى انجلترا تمثل الأغلبية العظمى من الشعب بقدر المستطاع ، ولا توجد هيئة تستطيع معارضة قراراتها إلا هيئة الحزب المعارض التى بغيرها تصبح الحكومة حكومة استبدادية ، كما أصبح من المستحيل الاعتماد على القوة والعنف لتنفيذ أغراض خاصة فى مثل هذه البلاد البرلمانية .

على أن مجلس اللوردات الوراثى ، ونقص التعليم بين الطبقات العامة ، يعرقلان بلا ريب إرادة الشعب ، والبلاد تجدّ الآن فى التغلب على هذه المصاعب ، بتسهيل سبل التعليم بواسطة المدارس ، ومن أعلى المنابر ، والصحف وغيرها من وسائل الارشاد .

أما عن مجلس اللوردات ، فهناك مجهودات خطيرة تبذل لحرمان هذه الهيئة من عرقلة أعمال مجلس النوّاب ، ففى سنة ١٩١١ تقرر ألا يخوّل مجلس اللوردات حق رفض الميزانية ، ولا رفض أىّ قانون أكثر من مرتين ، فاذا وافق عليه مجلس النوّاب للمرة الثالثة يعمل به من غير موافقة اللوردات . على أن إصلاح مجلس اللوردات لم يتم بعد ، ولا بدّ أن يكون هذا موضع البحث القريب .

تأثير الرأى العام — لا ريب أن التشريع فى انجلترا إبان القرن التاسع عشر ، أخذ يتمشى مع الرأى العام الذى يعبر عن نفسه بوسائل عديدة ، أهمها الصحافة والجمعيات السياسية وكتابات المفكرين . وهذا التمشى لا مثيل له فى القرون التى تقدّمته ، ويعزى الى تكوّن الرأى العام فى هذا القرن نتيجة لازدياد المواصلات ووسائل النشر ، كما يعزى الى إصلاح المجالس النيابية ، بحيث أصبحت كمرآة تعكس آراء الشعب الحقيقية .

ففى بداية القرن كان تيار الأفكار متجها الى تعزيز الأنظمة الموضوعة ، ورفض نظرية التدرّج والانتقال ، وذلك نتيجة لكتابة المشرعين والأدباء أمثال

بلاكســتون (Blackstone) وبيرك (Burke) الذين كانوا يرون فى الدســتور الانجليزى نهاية الحكمة والكمال . وقد اشتدت هــذه الروح الرجعيــة بتأثير الثورة الفرنســية وما نشأ عنها من الفوضى والاضطراب، فلم تنصرف الأفكار الى الابقاء على ما كانت تتمتع به البلاد من القوانين فحسب، بل الى مقاومة روح التبديل والتغير بكل وسائل القوة والعنف، جزعا من اندفاع البلاد فى أزمات تشبه أزمات فرنسا، وليست قوانين النقابات التى ظهرت سنة ١٨٠٠ وحرّمت على العمال مزية الارتباط لمقاومة أصحاب الأعمال، والقوانين الستة التى صدرت ســنة ١٨١٩ لتحديد حرية الاجتماع، إلا صدى لهذا الجزع .

غير أن الأفكار تحوّلت تدريجيا بدافع الانقــلاب الاقتصادى والاجتماعى الذى غير وجه البــلاد ، وظهور التباين المدهش بين الأنظمة الموجودة وبين ما طرأ على البلاد من الانقلاب ، كما أن بعــد عهد الثورة وظهور كتابات "بنتام" ، أدّى الى تحوّل الأنظار الى تعديل الأنظمة والقوانين تعديلا يلائم الحالة الواقعة .

وبنتام (Bentham) هذا ، رجل من أكبر رجال القرن التاسع عشر، ومفكر نابه من أعظم المفكرين الذين تركوا أثرا خالدا فى تاريخ التشريع فى انجلترا فى هــذا القرن، وتقوم فلسفته على المبادئ الآتية :

(١) إن التشريع علم ولا بد أن يسير على قواعد معينة .

(٢) إن غرض التشريع الصحيح هو إسعاد أكبر عدد ممكن .

(٣) إن كل شخص أدرى من غيره بمــا يؤدّى الى ســعادته ، ومن ثم كان غرض التشريع رفع كل القيود التى تقيــد حرية الأشخاص، بشرط ألا تكون تلك القيود ضرورية لحماية حرية الآخرين .

وقد انتشرت هذه المبادئ سريعا لأنها وضعت أساسا عمليا للاصلاح، ولأنها لا تقوم على نظريات العقود السياســية أو حقوق الانسان، فطابقت بذلك الخلق الانجليزى المحافظ الذى لا يطيق هدم البناء من الأساس، بل يرضى بتعديله فقط،

وهو قائم بذاته . ثم إن تشريع « بنتام » يقوم على توسيع حرية الفرد التى كانت مطمح الآمال فى انجلترا منذ قرون طويلة ، ولأجلها وقع صراع هائل بين الملكية والشعب ، فكل تعزيز لها يقابل فى انجلترا بالترحيب .

لذا أصبحت مبادئ بنتام أساس التشريع فى انجلترا من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٧٠ واليها تعزى :

(١) قوانين سنة ١٨٣٢ وسنة ١٨٣٥ التى نقلت السلطة فى البرلمان وفى مجالس الأقاليم الى الطبقة المتوسطة لأنها هى الطبقة التى تدرك مصلحتها ومصلحة جزء كبير من أفراد الشعب .

(٢) قوانين حماية الأفراد من آلام لا تطابق مبادئ الإنسانية ، كتخفيف شدّة القانون الجنائى ، وإلغاء جلد النساء ، وتقليل عدد الجرائم التى يعاقب عليها بالاعدام ، وإلغاء الشنق علنا ، وحماية الأطفال ، والرفق بالحيوان ، وإلغاء الاتجار بالرقيق الخ .

(٣) قوانين إطلاق الحرية الشخصية كقانون نقابات العمال الذى صدر سنة ١٨٢٥ وهو يحرّم تقييد حرية العمال وأصحاب الأعمال ، وقانون إطلاق حرية الكاثوليك سنة ١٨٢٩

ومعنى هذا أن بنتام رأى أن خير طريقة لمعالجة شئون البلاد هى اعتماد الأمة على مجهودها الذاتى ، وأنه لا سبيل لإدراك هذا الغرض إلا اذا رفعت القيود التى تعطل حرية العمل ، غير أنه سرعان ما ظهر جليا أن قصر التشريع على إطلاق الحرية يفضى الى إيقاع البلاد فى أزمات أشدّ مما كان يطلب الخلاص منها . وكان أكبر العوامل المساعدة على نقض مبادئ بنتام ما يلى :

(١) ظهور دعاة الانسانية أمثال سوثى — وماكولى — وسادلر — وشافتسبرى ، الذين أثبتوا أن غل يد الحكومة عن التدخل فى شئون أصحاب الأعمال يؤدّى الى إرهاق العمال وخصوصا النساء والأولاد الذين لا قبل لهم على حماية

مصالحهم ومناهضة رؤسائهم ، وهكذا بدئ بسن قوانين اشــتراكية لتنظيم شــئون المصانع وغيرها مما يهم العمال .

(٢) ازدياد الرغبة فى اعتبار نقابات العمال (Trades unions) جمعيات قانونية مهما أدّت من الضــغط على حرية العمال وحرية أصحــاب الأعمــال ، حتى يمكن إصلاح شئون العمال اجتماعيا واقتصاديا .

(٣) ظهور طبقة من المفكرين أمثــال مل (Mill) تعمل لهدم مبادئ بنتام متأثرة بالضرر الذى أصاب الطبقات الوضيعة ، مما أدّى الى تحوّل الرأى العام تدريجيا الى قبول مبادئ الاشتراكية .

(٤) تقدّم التجارة تقدّما جعل الاعتماد على المجهود الفردى لا يقوم بالحاجة ، وجعــل تأسيس الشركات أمرا لا بد منه ، وهــذا دعا الى تدخل الحكومة لتنظيم أعمال الشركات وإعطائها صبغة قانونية .

(٥) اشــتراك طبقات العمال فى الانتخاب ، وهــذا أوجد الهيئــة التى تساعد على التشريع الاشتراكى .

وكانت نتيجة هــذه العوامل الجديدة أن تزعزعت مبادئ بنتــام حوالى ســنة ١٨٧٠ ، وتحوّل الرأى العام الى التشريع الاشتراكى ، فوضعت قوانين غش الأغذية ، والعقاقير الكيماوية ، وتعويض العمال ، والتعليم العام ، والصحة العمومية ، والمساكن الخ . وما زالت المبادئ الاشتراكية تتطوّر تطوّرا سريعا أملا فى تحقيق المساواة الاقتصادية كما تحققت المساواة السياسية من قبل .

الفصل الثانى

إرلنــــــدا

تمهيـــد — كانت العلاقات الارلندية الانجليزية ترتكز على الحقد والبغضاء منذ احتل البلاد هنرى الثـانى، فقد انتزعت الأراضى من أصحابهـا ووزعت على ملاك من الانجليز، ووضعت قوانين عديدة لإذلال الكاثوليك الارلنديين، وحرمانهم من التمتع بالحقوق السياسية . وقد كان للبلاد برلمـان فى دبلن إلا أن أعضاءه كانوا من الانجليز البروتستنت، وكانت سلطته خاضعة لسلطة البرلمـان الانجليزى، ولكن نشوب الحرب الأمريكية أدّى الى تغيير هـذه العلاقة غير المرضـية بين الفريقين ، فقد صرحت بريطانيـا لارلندا حينئـذ بدعوة المتطوّعين للمحافظة على سواحلها من الغزوات التى كانت تتهدّدها من قبل فرنسا ، ولكن الزعماء السياسيين أمثال جراتان (Grattan) وهنرى فلد (Henry Flood) استخدموا هـذه القوّة لإرغام انجلترا على الاعتراف باستقلال البرلمـان الارلندى سنة ١٧٨٢ ، على أن الهيئة التنفيذية بقيت مع هـذا غير مسئولة أمام البرلمـان ، وكان هذا الشرط وحده كافيا لضمانة مصالح انجلترا فى ارلنـدا . لذلك تابع الارلنديون جهادهم فى سبيل تحـديد مسئولية الوزارة أمام المجلس، فاستنجدوا بفرنسا إبان حربها مع انجلترا فى عهد الثورة ونابليون، وقاموا بثورات عنيفـة بين عامى ١٧٩٦ — ١٧٩٨ ، ليصـلوا بطريق العنف الى ما لم يصـلوا اليه بطريق الاقناع . ومع أن هـذه الثورات المتكررة قد أخفقت فقد شعرت الحكومة الانجليزية أنها لا تستطيع أن تجيب المطالب الارلندية بغير أن تعرض مصالحها لأخطار عظمى، ولذا قررت فى سـنة ١٨٠٠ إغلاق باب الاصـلاح بالقضاء على البرلمـان الارلندى نهائيا ، وانتخـاب مائة عضو عن ارلندا للجلوس بجانب النوّاب الانجليز فى وستمنستر، وقد توصلت الحكومة الانجليزية

الى الحصول على موافقة البرلمـان الارلندى على هــذا القرار ، بالالتجاء الى وسائل الرشوة والتوظيف ومنح الرتب وغيرها .

جهاد الارلنديين — ويعتبر هذا القرار بدء علاقة جديدة لا تقوم إلا على الحقد والكراهية والمقاومة بكافة أنواعها . وكان دانيل أوكنيل (Daniel O' Connel) زعيم المقاومة فى العهد الجديد ، وهو كاثوليكى لم يعوزه المـال ولا الفصاحة ولا القدرة على تحريك الجماهير . اتجه بادئ الأمر الى العمل لرفع القيود السياسية التى وضعت فى القرن السابع عشر لا سيما فى عهد شارل الثانى لتقييد حرية الكاثوليك ومنعهم من دخول الخدمات السياسـية والهيئات النيابية العامة ، وكان جل غرضــه أن يتاح لأبناء جنسه حق الجلوس فى البرلمــان ، والاشتراك مع باقى الطوائف اشتراكا فعليا فى تقرير مصير البلاد ، فتذرّع للوصول الى هذا الغرض بكافة وسائل العنف والهياج حتى اضطرت الحكومة الى قبول هذا المطلب سنة ١٨٢٩ ويعتبر هذا النجاح بدء المقاومة الدسـتورية التى شاهدها هــذا القرن لتحقيق المطالب القومية التى كانت تنحصر فى ثلاث مسائل حيوية وهى :

(١) إلغاء النظام الدينى الذى كان يحتم على الكاثوليك دفع زكاة الى الكنيسة الرسمية وهى الكنيسة البروتستنتية الغريبة عنهم .

(٢) معالجة نظام الأراضى المجحف بالمزارعين الارلنديين .

(٣) إعادة الحكم الذاتى للبلاد .

وقد اشتدّ الهياج والمقاومة فى البرلمــان وفى ارلندا لتحقيق هــذه الأغراض ، الى حدّ لم يسبق له مثيل ، وكانت انجلترا تعتمد فى قمع هذا الهياج على وسائل الشدة تارة ، وعلى علاجات مسكنة تارة أخرى ، حتى ضاقت صدور الشبان الارلنديين ، وصمموا على رفض مطلب الاستقلال الذاتى الذى كان يطالب به الوطنيون ، وقرروا المطالبة بالحكم الجمهورى . وفى سـنة ١٨٥٨ تكوّنت جماعة الفنيان (Fenians)

ذات المبادئ الجمهورية ، وأخذت تقوى وتشتد تدريجا الى أن قررت السلطات سنة ١٨٦٥ تعطيل جرائدهم واعتقال رؤسائهم ، فأدّى هذا الحادث الى اصطدام الفريقين (خصوصا حين حاول الفنيان إطلاق سراح رفقائهم) ولم يهدأ الحال إلا عند ما تقرر وقف قانون الحرية الشخصية (Habeas Corpus Act) ووضع البلاد تحت الحكم العرفى .

على أن الجزع الذى أثارته هذه الحوادث فى انجلترا وارلندا معا ، أدّى الى إقبال غلادستون على معالجة المسألة الارلندية حفظا للسلام ، ورغبة فى صيانة مصالح انجلترا نفسها . ففى سنة ١٨٦٩ وافق البرلمان على إلغاء الكنيسة الرسمية و إلغاء إعانتها المالية ، وفى سنة ١٨٧٠ صدر قانون الأراضى (Land Act) وهو ينص على إعطاء المستأجرين حقا فى أراضيهم ، فلا يستطيع الملاك انتزاعها بغير تعويض للمستأجرين ، ولا إنهاء عقد الإيجار بغير دفع قيمة التحسينات للمستأجر ، وهكذا خفف غلادستون عبء المسألة الارلندية تخفيفا محسوسا ، ولو أنه لم يداوها دواء ناجعا .

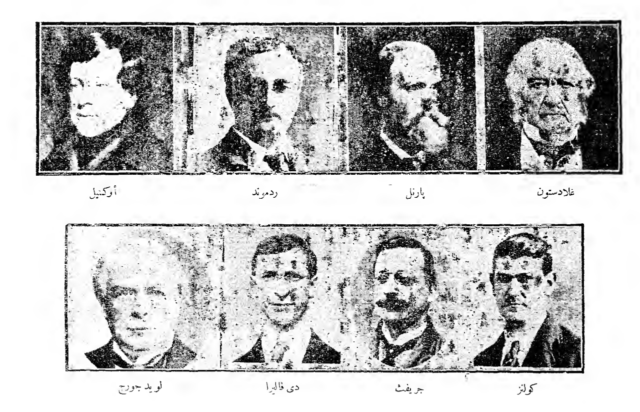
مشكلة الأراضى — ذلك أن قانون الأراضى لم يمنع المالك من طلب أجور باهظة أو طرد المستأجر فى حالة عدم الدفع . وحدث أن أصيبت الزراعة بعجز المحصول فى هذا العهد وتعذر على المستأجرين دفع الإيجارات فازداد نزع الأراضى من أيديهم حتى اضطر "پارنل" الذى تولى حينئذ زعامة ارلندا ان ينشئ اتحادا سمى (Land League) (١٨٧٩) بغرض الدفاع عن المزارعين بطرق مباشرة وهى طرق المقاومة والمقاطعة . أما المقاومة فكانت تتضمن تمسك المستأجرين بأراضيهم حتى يطردوا بالقوة ، وهذا استدعى نفقات طائلة يدفعها الملاك فى سبيل الحصول على معاونة البوليس ، فاذا تم لهم الأمر واجهوا صعوبة خطيرة وهى المقاطعة ، أى رفض باقى المزارعين أن يستأجروا الأرض أو يعاونوا فى زرعها بأى حال . لذلك قررت الحكومة فى سنة ١٨٨١ أن يعطى المالك تعويضا لمن يطرد من المستأجرين ، هذا

فضلا عن تعيين لجان لتحديد قيمة الإيجارات ، إلا أن هـذه اللجان لم تعط سلطة إلزامية ، ولذا لم تتحسن الحالة ، واستمر النزاع بين الفريقين حتى صدر قانون ١٨٩٦ الذى عين قيمة الإيجـارات العادلة ، وقانون سـنة ١٩٠٣ الذى نظم بيع الأرض للمستأجرين .

المسألة السياســية — وبينما كانت المسألة الزراعية سائرة فى طريق الحل كان الزعماء الارلنديون يعملون بجرأة عظمى لإجبار الحكومة على الخضوع لمطالبهم السياسية . وقد اتخذوا منذ سنة ١٨٧٤ خطة التهييج وعرقلة أعمال المجلس بزعامة پارنل (Parnell) الذى كان يختلف عن أوكنيل اختلافا جوهريا ، فقد كان بروتستنتيا من دم انجليزى ومن أصحاب الأراضى ، وكانت تنقصه الحماسة وتعوزه القدرة على تحريك الجماهير ، ولكن تكمله صـفات الإيمـان بالمبدأ ، والثبات أمام المصاعب ، والجرأة المدهشة .

وقد قابل غلادستون هـذه الخطة بسياسة القمع التى أدّت الى سجن پارنل ، فلما استمرت المقاومة أضطر غلادستون الى إطلاق سراحه والاتفاق معه على خطة الاصلاح ، ولكن مقتل لورد كافندش — وزير حكومة ارلندا — فى فنيكس پارك بيد الفنيان فى مايو سـنة ١٨٨٢ أفسد هـذا الاتفاق ، وأعاد خطة القمع بشدّة ، فأخذ پارنل ينظم صفوفه من جديد لاستمرار الجهاد . وقد جاءت نتيجة انتخابات سنة ١٨٨٥ بحيث جعلت حزب الارلنديين فى موقف الحكم بين الأحرار والمحافظين ، فحاول غلادستون أن يضمهم الى جانبه ، فقدّم سـنة ١٨٨٦ مشروع الحكم الذاتى «هوم رول» للبرلمـان ، غير أن أنصاره تخلوا عنه حتى رفض المشروع ، ولمـا حاول غلادستون استفتاء الأمة ، جاءت النتيجة مؤيدة لقرار البرلمـان ، وأعيد المحافظون الى منصة الحكم بأغلبية عظمى .

حينئذ بدأت فى ارلندا سياسة "الحزم!" على يد بلفور ، ولكن الشدّة لم تقض على عوامل الهياج والاضطراب ، وقد حاولت التيمس فى مقالات عنيفة أن تنسب



غلادستون — بارنل — ردموند — أوكنيل

كولنز — جريفث — دي ڤاليرا — لويد جورج

خطة الفوضى والقتــل الى بارنل، ولكن التحقيق لم يؤيد هذه التهـم، فارتفعت مكانتــه وأصبحت الآمال معقودة بنجاحه ، على أن هــذه الآمال ضاعت بخطيئة شخصية زعزعت مركزه السياسى .

ولمـا عاد الأحرار الى الوزارة ثانية ، حاول غلادستون سـنة ١٨٩٢ أن يحمل البرلـان على المصادقة على مشروع الهوم رول، ولكن مجلس اللوردات قاوم هـذه المحاولة، فظلت المسألة الارلندية مطروحة جانبا مدة ثلاثة عشر عاما لم تعمل السياسة الانجليزية فى خلالها شيئا لمعالجتها ، اللهم إلا إصدار قانون سنة ١٩٠٣ الذى خوّل للستأجرين حق شراء أراضيهم ، حتى يكتفوا باليسر المـادّى عن المطالبـة بالحقوق السياســـية .

على أن استئناف المقاومة الارلندية بزعامة ردموند (Redmond) اضطرّ الأحرار الذين تولوا إدارة البلاد ســنة ١٩٠٥ بزعامة كامبــل بانرمان واسكويث الى إعادة النظر فى مشروع الهوم رول فوافق عليه مجلس النوّاب سنة ١٩١٢، ولكنه رفض فى مجلس اللوردات، على أن هذا الرفض لم يعطل المشروع نهائيا فان تحديد سلطة اللوردات بقانون سنة ١٩١١ جعل قبولهم إياه فى حيز المستطاع .

إلا أنه نشأت الى جانب معارضــة اللوردات معارضة أخرى من قبــل أهل الولايات الشمالية الارلندية الذين رفضوا الانفصال عن انجلترا دفاعا عن مصالحهم الدينية والاقتصادية ، وأعلنوا المقاومة بكل الطرق القهرية ، حتى اضطرّت الحكومة الى العدول مؤقتا عن هذا القانون خصوصا بعــد نشوب الحرب العظمى ، ولكن هذا التباطؤ والتمهــل فى حل المسألة حلا نهائيا ، أدّى الى ظهور روح التطرّف التى شاهدناها فى حركة « الفنيان » تحت اسم جديد هو الشين فين (Sein Fein) وكان غرض هذه الحركة قطع كل العلاقات بالحكومة الانجليزية وإنشاء جمهورية مســتقلة .

وقد نجح هــذا الحزب نجاحا لا مثيــل له فى التاريخ الارلنــدى بأكمله ، ففى الانتخابات العامة سنة ١٩١٨ وافقت البلاد على سياسة هذا الحزب ، ثم أخذت تطارد القوات البريطانية مطاردة عنيفة حتى أصبحت الحياة للطرفين عبئا لا يحتمل ، فقررت الحكومة البريطانية مفاوضة زعماء الشين فين فى أمر حل مرض للجانبين ، وانتهى الأمر بوضع معاهــدة أمضاها جريفث وكولنز من زعمــاء الشين فين ، ولويد جورج وغيره من الوزراء البريطانيين فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وهى تنص على جعل ارلندا الجنوبية مملكة حرّة تتبع فى نظامها نظام المستعمرات المســتقلة ، وقد وافق البرلمــان الارلندى على المعاهدة بأغلبية صغيرة ، غير أنه لا يزال فريق من الجمهوريين بزعامة دى ڤاليرا رئيس الشين فين ، يناوئون أنصار المعاهــدة ويصرون على تحقيق الغرض الأعظم ، وهو وحدة البلاد فى ظل جمهورية مستقلة .

المصــادر

نجلترا منذ واترلو (J. A. R. Marriott) — القانون والرأى العام فى انجلترا (Dicey) — الاصلاح البرلمــانى (Veitch) — زعماء الحركة الارلندية (Leky) — تاريخ پارنل (O'Brien) .

الباب السابع

تقدم الزراعة والصناعة والتجارة فى أوربا فى القرن التاسع عشر

الفصل الأول

الزراعـــة

لعل تقدم أوربا الاقتصادى فى القرن التاسع عشر يفوق فى أهميته تقدمها السياسى . ولا عجب فكثيرا ما كان التقدم السياسى فى هذا القرن يقوم على أساس الرقى الاقتصادى .

ولقد كانت انجلترا أسبق الأمم الى الأخذ بأسباب هذا الرقى لأسباب خاصة أهمها :

(أولا) انحلال النظام الاقطاعى فيها قبل غيرها من الأمم وظهور طبقة كبيرة من الأيدى العاملة .

(ثانيـا) تكدس الثروة فيها بتأثير اتساع نطاق التجارة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

(ثالثـا) سبقها أمم أوربا الى استنباط المخترعات التى زادت الانتاج الزراعى والصناعى .

(رابعـا) بعدها عن مسارح الحروب التى استعرت فى أوربة جيلا بعد جيل فنمت ثروتها بينما كانت جاراتها تستنفد مواردها فى الحروب .

انجلترا والتقدّم الزراعى — ازداد عدد السكان فى انجلترا ازديادا مطردا منذ منتصف القرن الثامن عشر تبعا لازدياد حركة الصناعة فيها، فى حين أن عددا كبيرا من المشتغلين بالزراعة هجروها الى دور الصناعة . فاتجهت الأنظار حينئذ الى ترقية شأن الزراعة حتى تسدّ حاجات البلاد ولا سيما المدن الصناعية الجديدة . ولما نشبت حروب نابليون اضطرت انجلترا فوق ذلك الى الاعتماد على محصولات بلادها، فعمل الباحثون والمفكرون على استنباط أنجع الوسائل لتحقيق هذا الغرض. وكان أهم ما أدخل من وجوه التحسين، هو تعهد الأرض بالتسميد، والعناية بالحراثة، وطرق صرف المياه، والاستعانة على ازدياد خصوبة الأرض بزراعة البقول والجذور بدل تركها بورا شهورا طويلة، هذا فضلا عن اتباع نظام جديد للدورة الزراعية يحفظ قوة الأرض، ويصون قدرتها على الانتاج . ولقد تعدّت العناية بالأراضى الى العناية بتربية المواشى، لأن الطبقات الجديدة من الصناع كانت تتطلب غذاء من اللحوم تستعين به على تأدية أعمالها الشاقة، ولا ريب أن الزراعة الشتوية الحديثة أى زراعة البقول الخ ساعدت على تغذية المواشى إبان فصل الشتاء، فازدادت عددا وزنة عما كانت عليه من قبل .

النظام الزراعى — ومن البديهى أنه ما كان فى الاستطاعة تعميم هذه التحسينات فى البلاد مع بقاء نظامها الزراعى على ما كان عليه . فلقد كانت أراضى القرية الواحدة تقسم عادة الى ثلاثة أقسام يترك أحدها بورا، ويزرع القسمان الباقيان بالتضامن بين الأهالى على أسلوب اعتادوه من قديم الزمان، ولذا تعذر الأمر على من كان يرغب من الأهالى فى تحسين أرضه بالطرق الحديثة، نظرا لاشتباك المصالح وارتباط الأعمال بعضها ببعض . فاتجهت الأنظار الى القضاء على هذا النظام الذى يحرم البلاد من استثمار الأراضى بالطرق الحديثة، وتطلع الناس الى تقسيم الأراضى الى مزارع مستقلة يحيط كلا منها سياج حتى يكون المزارع مطلق اليد فى اتخاذ ما يراه من الوسائل التى تكفل انتفاعه بمميزات النظام الحديث . على أن تقسيم الأرض واحاطتها

بالأسوجة على هذه الصورة كان يقتضى اتفاق أهل القرية عامة ـــ وهذا لم يقع إلا نادرا ـــ أو اتفاق أربعة أخماسهم على الأقل، وهـذا اقتضى إصدار قرار برلمـانى يسوّغ هذا التغيير . غير أنه يلاحظ أن الأمر لم يقتصر على تسوير الأراضى الزراعية، بل تعدّاها الى مراعى الأغنام والأراضى البور أيضا ، نظرا لحاجة البلاد الى زيادة محصولاتها كما بينا من قبل . ولكن تقسيم الأراضى الى مزارع مستقلة على الوجه السالف، كان يقتضى نفقات كبيرة لعمل الأسوجة، فى حين أن المزارع الصغير قد حرم من الانتفاع بمراعى الأغنام ومن حطب الوقود الذى كان يجمعـه من الأراضى البور، كما أنه فقد فوق ذلك مورد رزق كبير ألا وهو الغزل والنسيج فى أوقات فراغه (فان الآلات الميكانيكية كانت قد بدأت حينئذ تحل محل اليد العاملة فى الصناعة) هذا الى أنه لم يستطع أن يجارى أصحاب الأراضى الواسعة فى استخدام كل المخترعات الزراعية الحديثـة التى تساعد على تقليل نفقات الانتاج وزيادة المحصول، ولم يقدر أن يتحمل تقلبات الأسعار التى تعرّضت لها البلاد حينئذ، ولا أن يقبض يده عن البيع حتى تتم له صفقة رابحة ، فاضطر من أجل هذا كله أن يبيع أرضه وينزح الى دور الصناعة فى الشمال أو يعمل فى مزرعة كبيرة نظير أجر معين . وبهذا انقرضت الملكيات الصغيرة فى انجلترا نهائيا منذ ذلك العهد .

النتـائج ـــ كان من أكبر نتـائج التقـدّم الزراعى الخطير أن اسـتطاعت البـلاد سدّ حاجاتها فى أوقات الحروب العصيبة التى مرت بهـا، ولو أن خروج المزارعين الصغار من أراضيهم، ونزوحهم عن ديارهم، كان محفوفا بمتاعب عظيمة لم يبررها إلا خلاص البلاد من الأزمات التى كانت تحيط بها .

على أنه من الخطأ أن يقال إن التقـدّم العظيم الذى شاهدته انجلترا فى زراعتها فى بداية القرن قد استمر طويلا، فلقد نشأت عوامل عديدة عاقت هـذا التقدّم، أهمهـا :

(أوّلا) اتجاه البلاد بكلياتها الى الصناعة نظرا لربحها الطائل .

(ثانيــا) زوال العقبات الناشئة عن حروب نابليون فيما يتعلق باستيراد الأغذية من الخــارج .

(ثالثــا) إلغاء حمــاية زراعة الحبوب فى انجلترا عام ١٨٤٦ تبعــا لمبادئ الحرية الاقتصادية الجديدة ، فأصبحت الأراضى ولا قبل لهــا بمزاحمة الأثمان الخارجية ، ولا سيما بعد أن زرعت المساحات الواسعة فى كندا وأستراليا والولايات المتحدة ، فأهملت زراعة جزء عظيم من الأراضى فى انجلترا وحوّل جزء آخر الى مراع للأغنــام .

لذلك نرى أن انجلترا لم تنتج ســوى ثلاثة أرباع الغــلال المطلوبة لها بين سنة ١٨٥٣ وسنة ١٨٦٠ ولم تنتج إلا ثلث المطلوب فقط بين سنة ١٨٧٩ وسنة ١٨٨٦ وليس هــذا العجز إلا نتيجة نقص مساحة الحبوب بمقدار مليونين من الأفدنة بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٨٩ ، ومليون ونصف تقريبــا بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٩١١ وهذه الأراضى لم تحوّل الى زراعة محصولات جديدة ، ولم تستخدم فى تربية المــاشية (بدليــل نقص عدد الأغنام والأبقــار نقصا مطردا) بل حوّلت الى أراض للصيد أو مراع للمــاشية . وهكذا نرى أن عدد المشتغلين بالزراعة فى انجلترا الآن لا يزيدون عن ١,٥٠٠,٠٠٠ بينما يوجد ١٦ مليونا من أصحاب المهن والحرف غير المنتجة .

التقدّم الزراعى خارج انجلترا — بينما نرى الأراضى الزراعية فى انجلترا تبلغ ثلثى المساحة العامة ، لا نرى المحصول يكفى إلا ١٢٥ شخصا من بين ٤٦٦ من سكان الميل الواحد . أما فرنسا التى تبلغ الأراضى الزراعية فيهــا مساحة إنجلترا ، فلا تستورد إلا العشر من حاجاتها الغذائيــة لأنها تنتج ما يكفى ١٨٠ من بين ١٨٨ من سكان الميل الواحد ، هذا فضلا عما تصدّره من الخضروات والفواكه ممــا يقدّر بعشرة ملايين جنيها سنويا . كذلك البلجيك تنتج أكثر من ثلثى حاجتها

(١) بلغ ثمن ما استهلكته انجلترا من الحبوب سنة ١٨١٥ (أى قبل اتباع سياسة حرية التجارة) نحو ٥٣ مليوناً من الجنيهات فصار فى سنة ١٨٨٨ نحو ٤٣ مليونا فقط مع أن عدد السكان زاد زيادة محسوسة .

مع أن السكان يبلغون ٦٠٠ فى الميل الواحد، هذا فضلا عن أن صادراتها الزراعية تقدر بنحو ثلاثة ملايين . وفى الدانيمرك، تكفى المحاصيل حاجة السكان تقريبا مع تصدير ما يبلغ قيمته ١٥ مليونا، وكذلك الحال فى ايطاليا . أما فى ألمانيا حيث يعظم الاهتمام بزراعة الحبوب والبنجر والتبغ، فقد أخذت البلاد فى الرقى السريع بعد إتمام الاتحاد حتى زادت مساحة الأراضى المنزرعة من ٢٣ مليونا من الأفدنة سنة ١٨١٦ الى ٤٤ مليونا سنة ١٨٨٧ بينما نرى قوة إنتاج الأراضى آخذة فى الازدياد عاما فعاما . وليس هذا الرقى الذى يشاهد فى ممالك أوربة إلا نتيجة استخدام الطرق العلمية الحديثة فى الزراعة، وإنشاء النقابات الزراعية التى استخدمت قوة المجموع لمصلحة الفرد، حتى استطاعت البلاد أن تتغلب على مزاحمة العالم الجديد لا سيما أمريكا .

على أن مزاحمة أمريكا ليست فى الحقيقة ناشئة عن خصوبة عديمة النظير، ولا هى نتيجة زرع مساحات واسعة من الحبوب صفقة واحدة، وإنما هى نتيجة مشترى الأراضى بأثمان غير مرتفعة، وتنظيم الإنتاج والتصريف والتعاون بين المزارعين، واستخدام الوسائل العلمية استخداما متزايدا، وعناية الحكومة بتحسين الإنتاج، حتى أصبح ماتنتجه الأراضى الآن نحو أربعة آلاف مليون بشل من القمح، على حين أنها كانت لا تنتج ألف مليون فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وتعتبر الحبوب والتبغ والقطن أهم الحاصلات، وقد ازدادت المساحة المنزرعة من القطن بعد اختراع «هوتنى» الذى سهل استخدام الخيوط القصيرة فى النسيج حتى أربى المحصول الآن على خمسة عشر مليون بالة . وقد كانت البلاد تصدر نحو ثلث محصولها، ولكنها بدأت تستهلك المحصول الآن فى مصانعها، ومن ثم بدأت الدول الأوربية لاسيما انجلترا تعتمد على موارد جديدة فى السودان والعراق، فضلا عن مصر والهند .

الفصل الثانى

التقــــدّم الصـــــناعى والتجارى

التقدّم الصناعى فى انجلترا — كانت الصناعة فى بادئ الأمر عاملا ثانويا فى حياة البلاد الاقتصادية ، وكانت تعتمد على الأيدى العاملة فى منازل المزارعين ، ولا تبــاع المصنوعات إلا لأهل القرى المجاورة ، ثم أخذ المزارعون يؤدّون العمل فى منازلهم لحســاب التجار مقابل أجر معــين . وتدرّجت الحــالة فى أوائل القرن الثامن عشر ، حين أخذ العمال يجتمعون فى مكان واحد ، نظير أجر يتقاضونه ، ويتولى صاحب المصنع تصريف ما ينتجونه من الأصناف . وفى أواخر هــذا القرن بدأت المخترعات تظهر تدريجا ، فتغيرت طريقة العمل ونظامه كما سنرى بعد .

ظهور المخترعات — فى سنة ١٧٦٤ ظهر الجهاز الذى اخترعه «هرجريفز» وبه استطاع الغزال أن يدير عدّة أنوال فى وقت واحد ، ثم جاء اختراع «أركريت» الذى جعــل الغزل دقيقا ومتينا مع استخدام قوة المــاء فى إدارته . وأخيرا جمــع «كرمبتن» بين الاختراعين المتقدّميــن . وهكذا اجتمعت سرعة العمــل الى دقة الصناعة ومتانتها ، وأقيمت مصانع عديدة على هذا الطراز قريبا من مجارى الميــاه العديدة فى يوركشير ولانكشير .

أما النسيج ، فقد بقى على حالته الأولى من التأخر الى أن ظهر اختراع «كارتريت» سنة ١٧٩١ فضاعف عمل النساجين ، خصوصا وقد استخدمت قوة المياه فى الادارة أيضا ، فعاد التوازن بين الغزل والنسيج ، وجنت البلاد من وراء ذلك فائدة عظمى . وقد تلت هــذه الاختراعات اختراعات أخرى عديدة ترمى الى اســتخدام الآلات فى كل ما كان يعمل باليــد ، نذكر منهــا اختراع بل (Bel) لطبع رسوم الأقمشة ، فزاد بذلك مقدار إنتاج المنسوجات زيادة محسوسة مع نقص متناسب فى أثمانها .

استخدام البخار — على أن صناعة المنسوجات لم تصل الى درجة كبيرة من الرقى إلا بعد استخدام قوة البخار فى إدارة الآلات ، ومن الخطأ أن يعتبر « وات» أول مخترع لها ، فان الرجل قد واصل الجهاد فقط فى تحسين اختراعات من تقدمه أمثال « نيوكومن » و « سميتون » حتى أصبحت الآلات البخارية بعد جهاده سهلة العمل قليلة النفقات . ولقد بدئ باستعمال البخار فى صناعة القطن فى أواخر القرن الثامن عشر ثم استخدم بعد فى صناعة الصوف فالتيل الخ .



وات

الآلات — ولا ريب أن هذا الاختراع كان من شأنه ترقية صناعة التعدين لما يتطلبه من الآلات التى تستطيع المقاومة زمنا طويلا ، فاستخدم الفحم لصهر الحديد والصلب فى مراجل أعدت لهذا الغرض ، ثم اخترع «بسمر» طريقة لتحويل الحديد الى صلب بنفقات قليلة ، فازدادت كمية الصلب وقلت أثمانه ، مما وفر على أصحاب المصانع مالا كثيرا . وتتابعت بعد ذلك الاختراعات فى هذه الصناعة كما تتابعت فى صناعة المنسوجات فتضاعفت ثروة البلاد من جراء ذلك .

الفحـــم — ولا شك أن تقدّم صناعة الحديد كان يستدعى ابتكار طرق جديدة لاستخراج الفحم اللازم لصهره وادارة الآلات المصنوعة منه ، وقد ابتكرت عدّة طرق فى مدّة وجيزة زاد بها مقدار مايستخرج من الفحم فى منتصف القرن التاسع عشر الى خمسة أضعاف ماكان عليه فى أوائل القرن ، واطردت الزيادة حتى بلغت عشرين ضعفا فى نهاية القرن .

على أن تأثير البخار لم يتناول الصناعات المتقدمة فحسب ، بل تعـدّاها الى كل صناعة أخرى تقريبا . فهناك صـناعة الطباعة والورق التى نشطت الحركة الفكرية نشاطا مدهشا وصناعة الغاز والمواد الملوّنة والمواد الكيماوية والعطرية وصناعة السكر والكبريت وغيرها مما يقترن بالحياة اليومية ، فكلها تأثرت بوسائل الصناعة الجديدة فضلا عن تأثر المواصلات لدرجة عظمى كما سنبينه فى موضعه .

تنظيم الصناعة — لعل أهم ما امتاز به التقدّم الصناعى الحديث استخدام الآلات تدريجا فى كل ما كانت تؤدّيه الأيدى بحيث استدعى الأمر إنشاء فاوريقات ضخمة مكان المصانع الصغرى حتى توفر مزايا الاقتصاد ورخص الأثمـان . ويلاحظ أن هـذه المصانع قد تجمعت حول مصادر الفحم والحـديد والموانى التى تستورد المواد الأوّلية للصناعة ، وأنهـا لا تقتصر على تأدية صناعاتها الخاصة لها بل كل ما يلحق بهذه الصناعة من المواد الثانوية . ويعتبر الانتاج بالجملة والتخصص فى عمـل من الأعمال من أهم ظواهر الصناعة الحديثة ، وهـذا التخصص مضافا الى استخدام الآلات والاستكشافات العلمية فى الصناعة واقترابها من مصادر الوقود والمواد الأوّلية يعدّ من أكبر أسباب هبوط الأسعار .

على أن بناء المصانع ومشترى الآلات والمواد الأوّلية ودفع أجور العمال والمهندسين اقتضى الحصول على رأس مال كبير لا يتاح عادة لفرد واحد ، فتأسست الشركات المساهمة للقيام بهذه الأعمال نظير الحصول على فائدة سنوية وجعل الخسارة متناسبة

مع المبلغ المشترك به . ومما سهل الأعمال الصناعية دوام الارتباط بينها وبين البنوك المختصة بتسليف الصناعات حتى استطاع الصانع أن يبيع التاجر بالنسيئة لمدّة ستة أو سبعة شهور يستطيع فيها تصريف بضاعته، فنشطت الصناعة والتجارة معا نشاطا عظيما .

نتائج التقدّم الصناعى — (أوّلا) اقترن هذا التقدّم فى مبدأ الأمر بضيق وشدّة لامثيل لها فى تاريخ البلاد الاقتصادى، وهذا أمر يعزى فى الغالب الى مهاجرة الصناعة الحديثة من الجنوب الى الشمال حيث توجد المواد الأوّلية بعضها بجانب بعض، وذلك فى وقت كانت فيه المواصلات غير كافية، فلم يستطع السكان أن يتبعوا هجرة الصناعة على عجل .

وأما القول بأن الآلات الحديثة سببت الاقتصاد فى العمال فذلك ما لايقوم عليه دليل، لأن الآلات من شأنها تخفيض نفقات الانتاج ونقص الأثمان، وهذا أمر يدعو الى اتساع نطاق التجارة واستخدام كل الأيدى العاملة . ولكن يلاحظ أن أصحاب المعامل اعتمدوا كثيرا على النساء والأطفال فى إدارة الآلات، هذا الى أن التجارة التى انتعشت فى فاتحة القرن، أى فى عهد حروب نابليون، كسدت كثيرا وقل طلبها بعد عودة السلام الى أوربة، ورجوع الأعمال السلمية الى نشاطها الطبيعى . على أن هذه المصاعب لم تلبث أن زالت تدريجا بتقدّم المواصلات وانتعاش الحركة التجارية فى العالم .

أما الطبقة التى أضرّ بها التقدّم حقيقة فهى طبقة الغزالين والنساجين وغيرهم من المنقطعين لحرفة خاصة، فقد انتزعت منهم أعمالهم فى وقت تضاعفت فيه الضرائب، وارتفعت أسعار المعيشة، وانقطع عنهم مورد رزقهم الزراعى . ولكن هذا الضرر الذى لحق طبقة خاصة، لايذكر الى جانب ماعاد على الشعب عامة من الفوائد . فقد استخدمت المصانع عددا كبيرا من الناس، ورخصت المصنوعات، وازدادت الثروة الأهلية، وارتقت الحياة المادّية .

(ثانيـا) كان من نتيجه تقدّم الصـناعة وآتساع نطاق التجارة فى انجلترا أن أصبحت الحاجة ماسة إلى إصلاح طرق المواصلات بعد أن أهملت زمنا تعذر فيه النقل والسير، فمن سنة ١٧٦٠ الى سنة ١٧٧٤ أصدرت الحكومة ما لا يقل عن ٤٥٢ قرارا باصلاح الطرق فى طول البلاد وعرضها، وكان «لتلفورد» و «مكدام» الفضل الأعظم فى إصلاحها على نظام علمى هندسى . وكما أن الأنظار اتجهت الى إصلاح الطرق، فكذلك اتجهت الى إصلاح الترع، فأنشأ المهندس «برندلى» مالا يقل عن ٣٥٠ ميلا منها، أخصها ترعة «بردجواتر» التى تصل ورسلى بمنشستر، ويمتدّ منها فرع الى رنكورد . و « جراند ترنك » التى تصـل رنكورد بالهمبر وتربط برمنجهام ومقاطعة ستافورد بشمال وشرق وجنوب انجلترا . ومن سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٨٠٠ تضاعفت الرغبة فى مدّ الطرق وحفر الترع، فأنشـئت مئات جديدة من الأميال، وآطردت الزيادة منذ ذلك الحين .

على أن الأمر لم يقف عند حدّ إنشاء الطرق والترع بل تعدّاه الى العناية بالملاحة الشاطئية وترقية النقـل البحرى والبرى على أثر استخدام البخار فيه . وقد كان أكبر عامل فى نجاح السكك الحديدية المهندس « ستيفنسن » الذى شيد أوّل سكة حديدية بين لفربول ومنشستر سنة ١٨٣٠ فلما اطرد التقدّم فى صناعة التعدين والهندسة العملية أنشـئت الكبارى العظيمة فوق متسع الأنهـار وشـيدت النفق الطويلة فى جوف البلاد وهـذا أدّى الى إمتداد السكك الحديدية فى أنحاء المملكة فى وقت قصير مع زيادة فى السرعة ووسائل الراحة ، فنشـطت الحركة التجارية نشاطا ظاهرا كما نشطت الحركة السياسية .

هذا وقد نشأ عن ترقية السكك الحديدية ترقية المواصلات البريدية فأصبحت سريعـة ودقيقة مع قلة فى الأجور . ولمـا كشفت الكهرباء واستخدمت تدريجا فى الصـناعة والنقل والاضاءة استخدمت كذلك فى تسهيل المواصـلات بواسطة التلغراف والتليفون فارتبطت أجزاء البلاد ارتباطا وثيقا وازدادت الحياة نشاطا من كل الوجوه .

(ثالثـا) كان من آثار الرقى الصناعى ان ازدادت كمية التجارة إزديادا مطردا[1] حتى أن انجلترا التى كان يخشى أن تنحط منزلتهـا وتضعف قوتهـا بعد أن فقـدت مستعمراتها الأمريكية، أصبحت بفضل صناعاتها الجديدة أقوى بأسا وأشدّ سطوة، ولكنها ما كانت لتصل الى هذه القوة لولا اتباعها الطرق الآتية :

(ا) اتبعت سياسة حرية التجارة التى فتحت لتجارتها أبواب العالم ولا سيمـا أمريكا التى انسلخت عنها سياسيا ، ولكنها أبقت على علاقاتها الاقتصادية معها، فأخذت انجلترا ترسل اليها مصـنوعاتها فى مقابل استيراد المواد الخام مثـل القطن وغيره، ولا سيما بعـد أن اخترع « هوتنى » جهازا سهل به استعمال الأقطان ذات الخيوط القصيرة .

(ب) عنيت البلاد بوسائل الاعلان والنشر فضلا عن إرسال عمال مزوّدين بالعينات فى كل الأنحاء وتخصـيص وكلاء فى كل جهات العالم لعـرض البضائع والتوصية بالحاجيات المحلية . ومن جهة أخرى عينت الحكومة فى المراكز التجارية الهامة فى الخارج قناصل لترويج صناعة البلاد وتقديم كافة المعلومات عنها والدفاع عن مصالحها ، هذا فضـلا عن إقامة المعارض الصـناعية التى من شأنها أن تفتح لتجارتها منافذ وأسواق جديدة . ولا ريب أن نظام البورصات سهل الاستعلام عن حالة العرض والطلب فى أنحاء العالم، وجعل الأعمال التجارية تسير على أساس ثابت.

(ح) ضمت انجلترا فى هذا القرن مستعمرات وأراضى جديدة راجت فيهـا مصنوعاتها رواجا عظيما، واستوردت منها فى مقابل ذلك الخامات والمواد الغذائية. فكندا ومستعمرة الرأس وجزر الهنـد الغربية والهنـد واستراليا الخ فتحت لانجلترا أسواقا ومتاجر عديدة أصبحت بها أوّل دول العالم ثروة وجاها وقوّة. وما زالت تجدّ فى هذه السياسة الاستعمارية كما تجدّ فى فتح منافذ جديدة للتجارة، وبذا أضافت الى التنافس السياسى بينها وبين دول أوربة تنافس اقتصادى شديد الخطورة .

(١) كانت تجارة انجلترا تقدّر فى سنة ١٨١٥ بما لا يزيد عن ٩٠ مليون جنيه فأصبحت تقـدّر فى سنة ١٩١٣ بنحو ١٫٤٠٣٫٥٥٥٫٠٦٥ جنيه .

(رابعا) زاد عدد السكان فى انجلترا، على أثر هـذا التقـدم ، ازديادا خطيرا[1] لا سيما فى الأقاليم الصـناعية حيث تكثر المهاجرة ، و يزداد النسـل ازديادا مطردا بطبيعة الحالة الاجتماعية وارتقاء الحياة المـادية الناشئة من توافر المكاسب . و يلاحظ أنه كان يصحب هذه الزيادة نزوح كثير من أهالى المناطق الزراعية الجنوبية الى المناطق الصناعية الشمالية ، فبينما كانت جلوستر ونور ثامبتون وسومرست فى طليعة المقاطعات فى بداية القرن الثامن عشر ، نرى لانكشير والوست ريدينج قد حلت محلها فى آخره ، و بينما كانت نور ريش و يورك واكستر أكبر المدن ، إذ نرى لفربول ومنشستر وشفيلد ونيوكاسل قد أصبحت مراكز الحركة وازدحام السكان فيما بعد . على أن هناك من الدلائل ما يشير الى أن تجمع الصناعات فى الشمال قد أخذ فى النقص ، على أثر ازدياد طرق المواصلات واستخدام الكهرباء والبترول بدل الفحم ، فلا يمضى زمن طويل حتى تنتقل المصانع الى كافة أنحاء البلاد و يعاد توزيع السكان توزيعا متعادلا .

(خامسا) لعـل أكبر النتائج التى شاهدتها انجلترا لهذا التقـدم ظهور طبقات جديدة لم يعرفها المجتمع من قبـل ، فقد كانت الزراعة فى بادئ الأمر أكبر مورد للثروة ، ومن ثم كان نظام الحكومة قائما على حكم المزارعين وأصحاب الضياع ، غير أن الانقلاب الصناعى أدّى الى ظهور طبقة جديدة من المموّلين الذين تولوا تشييد المصانع ومشـترى الآلات والمواد الخام واسـتخدام العمال ومراقبة الانتاج والتصريف ، ومن ثم ظهر تضارب فى المصالح بين هـذه الطبقة وأهل الطبقة المتقـدّمة ، مثال ذلك : كان المزارعون يرغبون دواما فى حماية محصولاتهم و رفع أثمانها بتقرير ضرائب باهظة على المحصولات الخارجية ، بينما كان المموّلون يرغبون فى فتح الأبواب للحاصيل الخارجية حتى تقل أثمان مواد الغذاء والمواد الخام اللازمة للصناعة فتقل معها نفقات الانتاج وأجور العمال ، ولـما لم يكن للمموّلين من سـبيل لحماية مصالحهـم إلا تغيير

(١) بلغ سكان انجلترا وحدها سنة ١٨٠١ نحو ٩ مليون وفى سـنة ١٨٧١ نحو ٢٣ مليون وفى سنة ١٩٢١ نحو ٣٨ مليون نسمة .

النظام النيابى ، فقد حاولوا ذلك محاولة عنيفة حتى انتهى الأمر بإصدار قانون الإصلاح عام ١٨٣٢ الذى خوّل لهم حق الاشتراك فى إدارة شئون البلاد .

على أن طبقة أصحاب الأعمال لم تكن هى وحدها التى ولدها هذا التقدّم ، فقد نشأت الى جانبها طبقة العمال ذات المصالح الخاصة بها . وقد حاولت هـذه الطبقة كما حاولت الطبقة المتقدمة أن تمـدّ اليها ميزة الاشتراك فى حكم البلاد ، غير أن هذا الحق لم يخوّل للصناع إلا سنة ١٨٦٧ وللزارعين سـنة ١٨٨٤ ، ولا ريب أن العمال ما كانوا يصبرون هذا الأجل الطويل لولا أن حكومة البـلاد تدخلت بدافع الانسانية والرحمة فى شئون أصحاب الأعمـال ، وسنت قوانين عديدة لحماية مصالح العمال . على أن العمال أنشأوا من جهتهم نقابات للدفاع عن مصالحهـم ، وما زالوا يعتمدون على هذا السلاح حتى الآن ، نظرا لعدم اشتداد ساعدهم فى المجالس النيابية حتى يستطيعوا الاسـتعاضة « بالعمل التشريعى » عن « العمل المباشر » أى مناهضة أصحاب الأعمال بالقوّة[1] .

(سادسا) شاهد هذا العهد الحديدى الجديد أيضا يقظة فكرية مدهشة منشأها البيئة الجـديدة التى ظهرت ، والاختلاط العظيم الذى نشأ فى المدن الصناعية الآهلة بالسكان ، فضـلا عن تقدّم طرق المواصـلات وتعدّد وسائلها . ولعـل أكبر مظاهر هذه النهضة ، ذلك التطوّر الغريب الذى نشاهده فى ميدان السياسة والدين والأدب والعـلم والاقتصاد . أما فى السياسة فترى الرغبة ظاهرة فى تطبيق المبادئ الدستورية الى أقصى حدودها ، فلم يقتصر الأمر على تمثيل طبقات الرجال تمثيلا تاما بل تعـدّى الأمر الى تمثيل النساء ، وهاهم يعملون أيضا على تغيير نظام مجلس اللوردات حتى يكون الانتخاب لا الارث هو قاعدة العضوية . أما فى الدين فقد أصبح التسامح أساس المعاملات بين طبقات الشعب . وفى عالم الاقتصاد لا ترى النظريات تقف عند حدّ ، فمن رغبة فى تناسب الأجر مع الأرباح الى رغبة فى إدارة

(١) راجع الفصل السياسى (تاريخ انجلترا) .

الأعمال بواسطة العمال حتى توزع أرباح المصانع على الذين يعملون فيها ، الى رغبة فى امتلاك الحكومة لموارد الثروة ، على أن النهضة العلمية والأدبية تكاد تكون أرفع مظاهر هذا العهد . فالصحافة أصبحت قوة هائلة لارشاد البلاد ، والتمثيل والكتابة فى كل فن خطت خطوات سريعة للأمام ، والعلوم بكامل أنواعها تطرد فى التقدّم والتحسين . ولو استقصينا أسباب هذا الرقى السريع لوجدناه يرجع الى تلك اليقظة التى أشرنا اليها ، والى ازدياد الثروة الأهلية ازديادا يستطيع معه عدد كبير من أصحاب الأقلام أن ينقطعوا لخدمة العلم والأدب .

(سابعا) أوجدت الحياة الصناعية الجديدة واجبات عديدة للحكومة ، فقد كانت الشئون الصحية والمساكن والعناية بالأطفال والفقراء والمسنين وأصحاب العاهات ومسائل التعليم كلها متروكة فى العهد القديم الى عناية رؤساء القرى ورجال الدين . والآن وقد انحل النظام القروى القديم ، وتضاعفت الحاجة لهذه الاصلاحات ، لم تعد ثمة مندوحة للحكومة من أن تتولى هذه الواجبات ، لا سيما واجب التعليم ، فان الديموقراطية والتعليم يسيران يدا بيد ، وليس من المصادفات مطلقا أن يكون الوقت الذى اشترك فيه الأهالى فى أوربة فى حكم البلاد هو الوقت الذى تقرر فيه التعليم الاجبارى . على أن التعليم لا يقتصر على إنارة الأهالى فيما يتعلق بحقوقهم وواجباتهم السياسية ، بل يزيد فوق ذلك كفاءتهم الصناعية ، ومقدرتهم على تنمية موارد الثروة .

(ثامنا) من أعظم مظاهر التقدّم الصناعى تغير الآراء الاقتصادية التى كانت تتبعها انجلترا وباقى دول العالم . فقد استعرض « آدم سمث » فى كتابه (ثروة الأمم) كافة النظريات الاقتصادية القديمة عن وسائل الإنتاج وتصريف المصنوعات وتناولها بالنقد الشديد ثم انتهى بإذاعة مبدأ جديد ألا وهو مبدأ الحرية ولا سيما فى التجارة ، فقد رأى أن لكل بلد ميزة خاصة تمكنها من إنتاج أصناف معينة بنفقات لا تجاريها فيها أمة أخرى . فاذا وجهت كل أمة عنايتها الى إنتاج وتحسين

ماتمتاز به، واتبعت سياسة تبادل هذه الأصناف على قاعدة الحرية التامة، عاد ذلك بالمنافع العظيمة عليها جميعا . وقد اتخذت انجلترا هذا المبدأ أساسا لسياستها التجارية فى القرن التاسع عشر، فكانت همة سواسها مقصورة على هدم ما بنته الأجيال الماضية من الأسوار والمعاقل لدفع الخطر الاقتصادى الأجنبى عن موارد البلاد . فألغت تدريجا قوانين الملاحة وضرائب المنسوجات ثم قوانين الغلال، بعدأن احتدم وطيس الجدل بشأنها سنوات طويلة . ذلك أن الحكومة كانت قد سنت فى أوائل القرن ضرائب باهظة على ما يرد من الحبوب الخارجية حتى تبقى أثمان المحصول الداخلى مرتفعة لمصلحة أصحاب الأراضى ، فنشأ عن ذلك ارتفاع الأثمان الى حدّ لايطاق فى سنوات عجز المحصول، فى حين أنه كان فى الاستطاعة تخفيفها اذا ألغيت ضرائب الواردات، وهكذا بقيت الأمة تتحمل المتاعب الكبيرة لمصلحة طبقة واحدة الى أن قام رجال أمثال « رتشرد كبدن » وشنوا غارة شعواء على هذه السياسة الخرقاء، فلما اشتدّت الأزمة بين سنتى ١٨٤١ و ١٨٤٦ من جراء عجز محصول الحبوب والبطاطس، اضطرّت الحكومة بزعامة « بيل » أن تخضع للظروف وتلغى الضرائب التى قيدت واردات الحبوب، ويعدّ نجاح « كبدن» أعظم انتصار لسياسة حرية التجارة .

التقدّم الصناعى خارج انجلترا — سبقت انجلترا أمم العالم فى ميدان الصناعة فأثرت إثراء مدهشا، غير أن تلك الامم التى مزقتها الحروب والثورات عهدا طويلا، أخذت منذ منتصف القرن التاسع عشر تولى وجهها شطر هذا المورد العظيم، فما لبثت أن طاردت الصناعة الانجليزية من أسواقها الداخلية ونازعتها فى الأسواق الخارجية . ففرنسا استخدمت كل المخترعات والآلات الحديثة لا سيما فى صناعة المنسوجات حتى أصبحت تصدّر منها الآن مايبلغ نصف صادرات انجلترا . وألمانيا التى لم يكن لها صناعة تذكر قبل الاتحاد، أخذت تطهر بلادها تدريجا من الصناعة الأجنبية، وتزاحم انجلترا فى صناعة المنسوجات القطنية والصوفية ، وصناعة المواد الكيمائية، والأجهزة العلمية، وكذلك صناعة الحديد والأدوات الميكانيكية . ولا يقوم

هذا التفوق على رخص أجور العمال كما يذهب بعض الكتاب، بل على انتشار التعليم الصناعى والفنى بين الطبقات ، وارتقاء العلوم واستخدام أرقى أنواع الآلات، والقدرة المدهشة على تنظيم الإنتاج والتصريف. وقد أخذت الامبراطورية النمساوية أيضا فى إعتاق نفسها من سيطرة بريطانيا وألمانيا حتى أدّى الأمر الى زعزعة التحالف الثلاثى نظرا للضرائب التى فرضتها على الواردات الألمانية؛ بل إن هذا النزاع ظهر بين الولايات النمساوية نفسها أى بين النمسا والمجر و بوهيميا . أما ايطاليا التى لم تكن لها صناعة تذكر سنة ١٨٥٩ فقد ظهرت فى معرض تورين سنة ١٨٨٤ أمة صناعية عظيمة، وهذا يدل على أن ايطاليا ترغب فى التخلص من القيود الاقتصادية كما تخلصت من القيود السياسية ، وليست الزيادة المطردة فى واردات المواد الخام كالفحم والحديد والأقطان إلا دليلا على رغبة ايطاليا فى أن تكون أمة صناعية مستقلة بذاتها، وهذا مثل محسوس على أن بلادا خالية من الوقود والمعادن تستطيع أن تكون ذات صناعة حديدية هامة . وهذا هو حال الروسيا التى قل أن تقترن فى الذهن بغير الزراعة فقد أصبحت أيضا مملكة صناعية من الطراز الأول ، فقد قلت وارداتها المصنوعة منذ سنة ١٨٧٠ بحيث أصبحت لاتبلغ خمس الواردات، والباقى مواد أولية أو مواد غذائية . وليس هذا النقص ناشئا عن حماية الصناعة بل عن تقدّمها ، بحيث لو ألغيت الحماية لما أصابها ضرر، و إنما تقل فقط مكاسب المموّلين .

من كل هذا نرى أن الصناعة التى كانت احتكارا لبعض الممالك فيما مضى أصبحت اليوم لا وطن لها . فبينما كانت انجلترا تحتكر صناعة المنسوجات فى بداية القرن نراها لاتنتج سنة ١٨٨٠ إلا نحو ٥٥ فى المائة منها، وقد نقصت هذه النسبة سنة ١٨٩٣ الى ٤٩ فى المائة ، ووصلت سنة ١٩١١ الى ٤١ فى المائة . وبينما نراها فى أعلى قائمة صناعة الحديد الخام حتى سنة ١٨٨٠ لا نراها سنة ١٩٠٤ إلا الثالثة أى بعد الولايات المتحدة وألمانيا . وأما فرنسا التى احتكرت صناعه الحرير زمنا طويلا فقد خسرت هذا الامتياز تدريجا نظرا لظهور صناعة مماثلة فى الروسيا والنمسا

وأمريكا وايطاليا وألمانيا ، وكذلك الحال فى سويسرا التى كانت تحتكر صناعة الساعات ، فقد أصبحت تنافس الآن فى أسواق العالم ، الى غير ذلك من الأمثلة العديدة التى تدل على توزيع مراكز الصناعة فى أنحاء العالم ، وانتقال الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى شاهدناها فى انجلترا اليها جميعا .

على أنه يلاحظ أن أكثر الأمم الأوربية اتبعت سياسة تجارية مخالفة لانجلترا وهى فرض ضرائب عالية على الواردات الأجنبية حتى تستطيع تشجيع صناعاتها الناشئة ومقاومة البلاد ذات الخبرة الصناعية القديمة .

ولكى يتدارك المنتجون فيها هبوط الأثمان الناشئ من زيادة المعروض ، وشدّة المنافسة ، ويضمنوا الحصول على ربح معتدل نراهم يرتبطون لبيع مصنوعاتهم جملة واحدة . ويعرف مثل هذا الاتحاد باسم (Cartel) أو (Trust) والغرض من النوع الأوّل إدماج الصناعات الصغيرة فى صناعات أخرى تستطيع معاونتها ، فى حين أن النوع الثانى يتضمن اتحاد المنتجين لغرض تحديد الأثمان وتعيين مقطوعية كل مصنع .

وقد نشأ عن حماية السوق الداخلى بواسطة الضرائب والاتحادات التجارية الى حدّ يسمح بالحصول على أرباح كافية ، أن استطاع المنتجون عرض مصنوعاتهم الزائدة عن الحاجة فى أسواق العالم مهما تحملوا من الخسارة . وغرضهم من ذلك تثبيت قدمهم فى الأسواق الخارجية وقتل المنافسة الأجنبية . وهذه السياسة المعروفة باسم (Dumping) قد أصبحت أداة حادّة من الأداة التى تستخدمها ألمانيا فى القتال التجارى .

هذا وقد أدّى انتشار الصناعة وتقدّم التجارة فى أنحاء العالم ، أن تقدّمت المواصلات بين الأمم ، فأنشئت الخطوط البرية والبحرية التى تربط الممالك بعضها ببعض ، كما أنشئت المواصلات البرقية والبريدية لربط أطراف العالم . وقد كان

لفتح قنـاة السويس بين البحر الأبيض والبحر الأحمر فى سـنة ١٨٦٩ أثر ظـاهر فى انعاش التجارة بين الشرق والغرب ، واختلاط الشعوب وتقدّم المدنيـة فى العالم أجمع . على أن الرقى الاقتصادى الذى شاهدنا آثاره فى كثير من أمم العالم ، قد أدّى الى زيادة التنافس التجارى والاستعمارى بين الدول ، ذلك التنافس الذى أدّى الى كارثة الحرب العظمى التى كفر عنها العالم بكثير من الآلام والضحايا .

المصادر

عهـد أسرة هانوفر تأليف برانت روبرتسن (G. Robertson) — التقـدّم الصـناعى تأليف كنجهام (Cunningham) — الحقول والمصـانع تأليف كوربتكين (Korpatkin) — الاصلاح الدستورى تأليف ڤيتش (Veitch) .

الباب الثامن

مدنيـــة القرن التـاسع عشر

يشاهد القرن التاسع عشر انقلابا خطيرا فى مبادئ المدنية الأوربية العامة أثر المجهود الذى بذله الكتاب والمفكرون ، والتغيير العظيم الذى طرأ على حياة الشعوب ، فنشأت من ثم الحركة "الانسانية" التى اتجهت الى تخفيف وطأة قانون العقوبات وإلغـاء الرق ، كما نشأ التسامح الدينى الذى أدّى الى تغيـير العلاقة بين السلطة الدينيـة والسلطة الدنيوية . على أن انقلاب الأنظمة السياسـية هو بلا ريب أهم ما وقع فى هـذا القرن ، فقـد زال شبح الملكية المستبدة تدريجا فى أوربة وحلت محلها أنظمة حكومية جديدة قائمة على الحكم النيابى وسيادة الأمة وكل ما يرتبط بها من مبادئ التصويت العام والتعليم العام والخدمة العسكرية العامة ، وفى هذا القرن نشأ التقـدم الصناعى الذى أدّى الى ظهور مبادئ "الرأسماليـة" والاشـتراكية ، وأثر تأثيرا محسوسا فى الحياة الأدبية والفكرية .

الحركة الانسانية — كانت الحياة الاجتماعية قبيل القرن التاسع عشر تقوم على الامتياز وعدم المساواة إذ كان السواد الأعظم من الناس يتحملون أشـدّ الويلات بلا رحمة ، إلا أن الحركة الانسانيـة التى نشأت فى أوربا — لا سيما فى انجلترا وفرنسا — غيرت هـذه الحالة تغيرا محسوسا فقد ألغى الرق ، وخففت وطأة قانون العقوبات ، وانتشر مبدأ التسامح الدينى ، وعنى بالمعدم والضعيف على وجه عام .

الـــرق — وقد كان أوّل من دعا الى إلغاء الرق جماعة بروتستنتية المذهب فى انجلترا عرفت باسم (Quakers) ثم نفـر من المفكرين الداعين الى تحقيق أعلى

رغائب الانسانية أمثال ولبرفورس (Welberforce) الذى كافح كفاحا شديدا فى سبيل إطلاق حرية الناس جميعا حتى نجح أخيرا فى حمل البرلمان الانجليزى على منع الاتجار بالرقيق سنة ١٨٠٦ ولما عقد مؤتمر فيينا فى سنة ١٨١٥ وافقت الدول على منع تلك التجارة الشائنة التى لا تطابق قوانين الدين ولا قوانين الطبيعة . وقد نفذ هذا الشرط بغير هوادة خلال القرن التالى ، فقد قضت انجلترا على كل ما بقى من آثار الرق فى مستعمراتها سنة ١٨٣٤ كما أن فرنسا قضت عليه نهائيا سنة ١٨٤٨ أما أمريكا فلم تقض على الرق إلا بعد الحرب الأهلية التى استعرت بين أهل الشمال والجنوب . فلم يبق من آثار الرق الآن إلا ما كان فى أفريقية الاستوائية ، وهو يطارد مطاردة عنيفة أمام دعوة المدنية .

قانون العقوبات — أما عن قانون العقوبات فيلاحظ أنه تضمن فيما مضى التعذيب وما اليه من وسائل العنف والإرهاق ، وكانت عقوبة الإعدام توقع فيما لا يقل عن مائة حالة مختلفة ، وكانت تنفذ على صورة بالغة مبلغا كبيرا من الفظاعة والوحشية ، غير أن وطأة العقوبات أخذت تخفف منذ الثورة ؛ فقد جاء فى إعلان حقوق الإنسان ، أنه لا يجب أن ينص القانون على عقوبات لا تتناسب مع الجريمة ، وعلى هذه القاعدة تغيرت قواعد العقوبة فى أنحاء العالم ؛ وتحددت عقوبة الإعدام فى جرائم قليلة معينة ، ولا يزال العالم يتحول الآن تدريجيا نحو إلغاء هذه العقوبة نهائيا .

التسامح الدينى — كان المفروض فى العهد القديم أن يدين رعاية الدولة بدين ملوكهم على اعتبار أن الانقسام الدينى يؤدى الى اختلاف سياسى ، فاذا خرج بعضهم عن الدين السائد وقع عليه أقسى العقاب . ولذا كانت الصلة قوية بين الكنيسة والحكومة الى حد أن رئيس الحكومة فى البلاد البروتستنتية كانجلترا مثلا كان رئيس الكنيسة أيضا ، أما فى البلاد الكاثوليكية فقد كان الملوك يعترفون غالبا بسلطة البابا فى المسائل الدينية على أن يترك لهم حق التمتع بالسلطة الدنيوية كما وقع

فى فرنسا بعد عقد اتفاقية ١٥١٦ ، ولذا كان لرجال الدين نفوذ كبير فى مسائل التعليم ومساعدة الفقراء وتسجيل المواليد وعقود الزواج والوفيات بمعنى أن الأحوال الشخصية اكتسبت فى ظل هـذا النظام صبغة دينية . غير أن هـذا النظام لاقى معارضة شديدة من جانب المفكرين والكتّاب الذين دعوا إلى إطلاق الحرية الدينية كحق من حقوق الأفراد الطبيعيـة . ومن ثم أطاقت الملكية المستنيرة فى القرن الثامن عشر قيود الحرّية الدينية فى بلادها ، كما أن انجلترا أطلقت تلك الحرّية لكافة المذاهب البروتستنتية فى سنة ١٦٨٨ ثم سارت تدريجا فى هذا الطريق حتى خوّلت للكاثوليك ما لغيرهم من الحقوق المدنية والسياسية فى سـنة ١٨٢٩ ، أما فى فرنسا فقد نص إعلان الحقوق على أنه لا يسوغ مصادرة الحرّية الدينيـة للأفراد ما دام لا يترتب على تلك الحرّية إضرار بالنظام العـام . ومن ثم أطلقت حرّية العقيدة كما أطلقت حرية العبادة فى تلك البلاد وغيرها من الأمم المتحضرة ، ولم يستثن من هذا الاطلاق إلا اليهود الذين يقطنون الروسيا ورومانيا ، على أن هذه الطائفة ما زالت فى الواقع موضع اضطهاد شـديد فى أغلب الأمم المسيحية كما كان حالها فى القرون الوسطى لا لأسباب دينية فحسب بل لأسباب سياسية أيضا .

ولعل أكبر ما يسترعى النظر فى أنظمة القرن التاسع عشر ما طرأ من التغيير على علاقات الكنيسة والحكومة : فتارة يكون للدولة دين رسمى ، وتارة يكون الدين معترفا به فقط من قبل الدولة ، وطورا تكون الحكومة منفصلة عن الكنيسة انفصالا تاما . ففى الحالة الأولى تتمتع الكنيسة بامتيازات عديدة وأموال كثيرة توقف عليها كما هو حال الكنيسة الانجليكانية فى انجلترا ، والكنيسة الكاثوليكية فى أسـبانيا ، والمذهب اللوثرى فى اسكندناوة ، والمذهب الأرثوذكسى فى الروسـيا والولايات البلقانية . أما فى الحالة الثانية فليس للحكومة مذهب خاص ، وإنمـا تعترف بعدّة مذاهب تمنحها امتيازات خاصـة وتصبغها بصبغة تكاد تكون رسمية . وهـذا هو الحال فى النمسا وبلجيكا وأغلب الولايات الألمـانية . أما الحالة الأخيرة وهى حالة اسـتقلال الكنيسة عن الحكومة فتوجد فى الولايات المتحدة وفى أغلب إمارات

أمريكا الجنوبية . وقد وجدت هذه الحالة فى فرنسا أيضا عقب إلغاء الكونكردات سنة ١٩٠٥ غير أن فرنسا أعادت علاقتها بالبابوية بعد الحرب العظمى نظرا لعودة الالزاس واللورين (وهى شديدة التعلق بالبابا) الى حكمها .

النظام النيابى — كانت الأمم فى العهد القديم خاضعة لملكيات لا تسأل ولا تحد . فلما وقعت الثورات المختلفة فى أوربة إبان القرن التاسع عشر تقلص نفوذ الملكية تدريجيا ، وحلت مكانها ملكيات دستورية أو جمهوريات . وقد كانت انجلترا أول الدول التى تمتعت بدستور يعين علاقة الملك بشعبه ، ولو أن هذا الدستور يتضمن قواعد وعادات وضعت فى عصور مختلفة . أما قاعدة وضع دستور مكتوب وهى القاعدة التى اتبعت فى أوربة وفى غيرها فى العهد الحديث فلم تظهر إلا فى نهاية القرن الثامن عشر حين وضع دستور الولايات المتحدة سنة ١٧٨٧ ودستور فرنسا سنة ١٧٩١ ، ويقوم النظام النيابى على مبدأ إشراك الشعب فى الحكم بواسطة مجلس ينتخبه أهل البلاد ، ولانجلترا الفضل الأكبر فى وضع نظام نيابى على أساس ثابت انتقل منها الى غيرها من الدول . فنوّاب البلاد يستمدّون السلطة من الأمة ولهم وحدهم حق إصدار القوانين وفرض الضرائب ومراقبة المصروفات والاشراف على أعمال الهيئة التنفيذية على وجه عام ، وللنوّاب حق التمتع بالحرية والاستقلال التام فى القيام بواجباتهم ، فلا يصح للناخبين عزلهم أو إقالتهم من الخدمة إلا إبان الانتخابات . على أن السلطة التشريعية لا تقتصر على النوّاب وحدهم بل يشاركهم فيها مجلس وراثى كما هو الحال فى انجلترا أو مجلس منتخب كما هو حال «السنا» فى فرنسا . ولهذا المجلس مهمة خطيرة هى مراقبة أعمال المجلس الأدنى وحماية الأقليات وجعل التشريع أقرب الى الحكمة والحاجة بعيدا عن أعمال التسرع والعنف ، فكما قال جيمس بريس : "إن نظام المجلسين فى البلاد النيابية أصبح مبدأ ثابتا من مبادئ الحياة الدستورية فهو قائم على الاعتقاد أنه لا يمكن القضاء على حالة التسرع والاستبداد والرشوة التى كثيرا ما تلازم المجالس الأدنى إلا بايجاد مجلس أعلى له من السلطة ما للمجلس الآخر" .

و يتخذ النظام النيابى عادة شكلين هامين: النظام الدستورى والنظام البرلمانى: ففى الحالة الأولى تنفصل السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية انفصالا تاما بمعنى أن الوزراء يعينون بواسطة رئيس الحكومة سواء أكانوا من أعضاء المجالس التشريعية أم من غيرهم ولرئيس الحكومة الحق فى إبقائهم فى مناصبهم أو عزلهم منها، فرئيس الدولة إذن هو رئيس الحكومة ولا يحد سلطته إلا احترام القانون والرأى العام. وقد اتبع هذا النظام فى عهد أمبراطورية نابليون الثالث فى فرنسا كما اتبع فى ألمانيا فى عهد أسرة هوهنزلرن. أما النظام البرلمانى فهو نظام يلائم الأمم العريقة فى الأنظمة النيابية ومؤدّاه ألا تقتصر سلطة المجالس على الأعمال التشريعية فقط بل تشرف على السلطة التنفيذية أيضا. ولذا تنتخب الهيئة التنفيذية من بين أعضاء الحزب الغالب فى المجلس النيابى وهى مسئولة فى كل أعمالها أمام هـذا المجلس، ولا يصح بقاؤها فى منصب الحكم إلا اذا كانت حائزة لثقته. ويلاحظ أن الوزراء يتضامنون فى مسئولية الحكم فكل ما يوجه من النقد لوزير من الوزراء يعتبر نقدا للوزارة بأكملها. هذا و ينتقل النظام النيابى تدريجيا فى بعض البلاد الى حكم الشعب بطريقة مباشرة فلا يقتصر الأمر إذن على سنّ دستور وانتخاب نوّاب يصدّرون القوانين بل إن بعض القوانين تعرض على الشعب لاقرارها بعد مصادقة المجلسين عليها، وهذا النظام يتبع الآن فى سويسرا، وكثير من الأمم الحديثة كأستراليا وغيرها تسير تدريجيا فى هذا الطريق.

وتنقسم الحكومات النيابية الى قسمين هامين وهما: الجمهورية والملكية فرئيس الحكومة فى النظام الجمهورى ينتخب لأجل معين، فى حين أن رئاسة الحكومة فى الممالك تنتقل بطريق الوراثة. وقد تكون الجمهورية أو الملكية فى بلاد موحدة كانجلترا وفرنسا وايطاليا واسبانيا، أو فى بلاد متحدة أى مؤلفة من عدّة ولايات مستقلة فى داخليتها، ويشاهد هذا النظام فى ألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة وكندا وأستراليا.

هـذا و يتناول النظام البرلمانى عدّة قواعد هامة: التصويت العام الذى هو أساس الديموقراطيـة الصحيحة، والتعليم العـام والخدمة العسكرية الاجبارية،

لأنه لما كان التصويت حقا لكل فرد أصبح من الضرورى أن يزوّد ذلك الفرد بتعليم كاف لتأدية واجبه السياسى على وجه أتم ، ويقابل هذه الحقوق واجب مقدّس هو واجب الخدمة العسكرية والتقدّم للدفاع عن الإرث المشترك .

وقد كان المتبع فى بادئ الأمر أن يقتصر حق التصويت على طبقة ممتازة من أصحاب الثروة الذين يدفعون للحكومة قدرا معينا من الضرائب، ولكن هذا النظام تحوّل تدريجيا إبان القرن التاسع عشر الى نظام التصويت العام لمن بلغوا سنا لا يقل عن الواحدة والعشرين ومن توافرت فيهم الكفاية اللازمة لاستعمال حق الانتخاب كأن يكونوا على معرفة تامة بالقراءة والكتابة . على أن التصويت العام بمعناه الصحيح لم يكتمل بعد ، فقد حرمت النساء من حق الاشتراك مع الرجال فى هذا الواجب، ولو أن بعض الممالك أخذت فى تدارك هذا النقص منذ نهاية القرن التاسع عشر كما يشاهد فى أستراليا وزيلندا وانجلترا . ولا ريب أن التصويت العام مبدأ من أهم المبادئ الحديثة لأنه يقرر المساواة السياسية بين الرعايا، ويحقق سيادة الأمة بطريقة عمليـــة .

أما التعليم العام فقد أصبح من لوازم الحكم البرلمانى فلا يصح التمتع بالأوّل من غير التكمل بالثانى، ولذا عنيت الحكومات البرلمانية بهذا الواجب وتحملت نفقات التعليم الإلزامى، لما كانت الأجور التى يدفعها الآباء لتعليم أبنائهم عقبة كبرى فى سبيل إتمام هذا الغرض . وفى جانب هذه المزايا التى يتمتع بها الأفراد فرضت الخدمة العسكرية على كافة الأهالى على السواء، ولذا فان نظام الجنود المستأجرة ونظام البدل النقدى قد تلاشى تدريجيا فى القرن التاسع عشر ، وحلت محله الخدمة الإجبارية الأهلية لا سيما حين اشتدّت الأزمات السياسية وتصادمت المصالح واضطرت الحكومات أن تعبأ جنودها دفعا للمخاطر التى تصيبها ، غير أن انجلترا وحدها بقيت الى عام ١٩١٤ تعتمد على نظام الخدمة الاختيارية .

النظام الرأسمالى والاشتراكية — اذا كانت عدم المساواة السياسية قد انقرضت فى الديموقراطيات الحديثة فقد بقيت مع ذلك عدم المساواة الاجتماعية

والاقتصادية التى اشتدّت على أثر التقدّم الصناعى فى القرن التاسع عشر، فقد أوجد هذا التقدّم طبقتين جديدتين فى المجتمع وهما : أرستوقراطية المـال التى تتمتع بربح طائل، وطبقة العمال التى تتأثر بحالة العرض والطلب وما يطرأ على الصناعة من صعود وهبوط ولذا كانت أكثر الطبقات تعرّضا لأزمات الضنك والبؤس .

النظام الرأسمالى — وقد نشأ النظام الرأسمالى الحاضر فى النصف الأوّل من القرن التاسع عشر بتأثير المبـادئ التى أذاعها الاقتصاديون فى القرن الثامن عشر والتقدّم الصناعى الذى ظهر فى القرن التاسع عشر، فالاقتصاديون دعوا الى إطلاق حرية الصناعة والتجارة وإلغاء النقابات التى كانت تقيدها وتحـدّد دائرة نشاطها، فى حين أن هـذه الحرية أفادت أصحاب الأعمال وحدهم لمـا كان العامل البسيط عاجزا عن مقاومتهم أو الدفاع عن مصالحه إزاءهم . أما تقـدّم الصناعى فقد أدّى الى تجمع وسائل الانتاج فى أيدى قليلة من المموّلين الذين يستطيعون مشترى الآلات وتحمل المزاحمة التجارية، فانتهزوا هذه الفرصة لإرهاق العمال وتخفيض أجورهم، بينما كان أولئك المموّلون ينعمون بثروة طائلة، حتى أصبح مما تضرب به الأمثال أن فى بلاد الرخاء وتدفق الثروة يعانى الفريق الأكبر من الشعب سـوء العيش وعدم توافر وسائل الصحة والأمن .

الاشتراكية — وإذ كانت الحكومة قد نفضت يدها من الشئون الصناعية اعتمادا على مبدأ الحرية السائد فى ذلك العهد فقد نشأت المبـادئ الاشـتراكية التى تعرّضت الى نقد مبادئ الاقتصاديين فى الحرية ونسبت اليها انحطاط الإنتاج وسوء التدبير والفوضى الناشبة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ثم تطرّقت الى نقد نظام الرأسمالية الذى يعطى الغنم كله لطائفة قليـلة من الرجال ويضع الملايين من الصناع فى حالة شديدة من البؤس والفقر المدقع ، ولذا أجمع الاشتراكيون على إعادة تنظيم الحياة الاقتصادية ووضع حدّ لارهاق العمال واستعباد الانسان لأخيه الانسان . غير أن هؤلاء الاشـتراكيين لم يجمعوا رأيهم على خطة معينة لقلب النظام القـديم ، ولم يضعوا صورة كاملة لمـا يجب أن يكون عليه النظام الجديد .

و يمثل المبادئ الاشتراكية فى فاتحة القرن التاسع عشر «سنت سيمون» الفرنسى و«روبرت أوين» الانجليزى، ويتبع أولها جماعة الاشتراكيين الخياليين الذين لا تقوم تعاليمهم على مبادئ عملية وإنما تصطبغ بصبغة شعرية دينية . فترى سنت سيمون (١٧٦٠ — ١٨٢٥) يذهب الى أنه لاسبيل الى إسعاد الانسانية إلا باستثمار موارد الطبيعة وتوزيعها بطريقة عادلة، وذلك بأن يتولى إدارة الحكومة المفكرون والعلماء والعمال حتى يسير الاحياء الأدبى بجانب الاحياء الاقتصادى . أما روبرت أوين (١٧٧١ — ١٨٥٨) فقد اقترح تنظيم الحياة الاجتماعية على قاعدة إلغاء النظام الرأسمالى وتنظيم الصناعة والزراعة والتجارة على قاعدة التعاون، ولذا يعتبر زعيم هذه الحركة التى امتدت تدريجا حتى اتخذت تلك الأهمية التى لم تفقدها للآن .

وفى العصر التالى تحولت الاشتراكية الى مبادئ عملية وكان يقودها لويس بلان فى فرنسا وكارل ماركس فى ألمانيا . أما لويس بلان (١٨١٢ — ١٨٨٢) فقد بسط فى كتابه "نظام العمل" خطة عملية لأشتراكية تعضدها الحكومة فقال: إن لكل إنسان الحق فى العمل وإن من واجب المجتمع أن يهيئ أسباب هذا العمل أو من واجب الحكومة التى تمثل المجتمع أن تهب للعمال المال اللازم لتاسيس مصانع أهلية يجنى منها العامل فوق أجره نصيبا من الأرباح. أما كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) فقد دعا الى امتلاك الأمة لموارد الثروة (Collectivism) وهذا المذهب هو أكثر المذاهب انتشارا الآن، ولا يقوم على قواعد نظرية ولا يعمل لتحقيق آمال خيالية وإنما يقوم على قواعد عملية ثابتة بحيث يجب اعتباره نتيجة منطقية للتطور الاقتصادى . أما الخطة التى دعا اليها العمال لتحقيق هذا المذهب فهى خطة التضامن والعمل لاستلام أزمة الحكومة كخطوة أولى فى سبيل تحقيق الغرض الأعظم وهو ملكية

الأمة لوسائل الانتاج والتصريف من أراضى ومناجم ومصانع وسكك حديدية وبنوك الخ ، حتى ينعدم النظام الرأسمالى وتوزع الأرباح طبق ما يعمله كل عامل .

وقد انتشرت المبادئ الاشتراكية تدريجا بين العمال ولا سيما فى فرنسا وألمانيا وانجلترا والروسيا غير أنها لم تنجح بعد فى قلب النظام الاقتصادى الحاضر ولو أنها نجحت بعض الشيء فى تعديل ذلك النظام وذلك بانشاء نقابات للعمال وتشجيع التشريع الاشتراكى لمصلحة العمال .

النقابات — أما نقابات العمال فالغرض منها استخدام قوة المجموع لمصلحة الفرد ، وإجبار أصحاب الأعمال على اعتبار مصالح العمال . ويطلق على هذه النقابات فى فرنسا اسم (Syndicat) وفى انجلترا اسم (Trade - Unions) ، وقد قاوم أصحاب الأعمال تأسيس هذه النقابات عهدا طويلا ولكنها اتخذت فى النهاية صبغة قانونية ، فأثرت تأثيرا محسوسا فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية سواء بتقصير ساعات العمل أم بزيادة الأجور وتنظيم توزيع العمال الخ . على أن العمال لا يقفون عند حدّ إنشاء نقابات لمناهضة أصحاب الأعمال بل تراهم ينشئون نقابات تعاونية على مبادئ أوين الذى نادى بإنشاء جمعيات للانتاج لمصلحة العمال ، كما أنه نادى بإنشاء جمعيات للاستهلاك بأثمان معتدلة . وقد نجحوا فى النوع الأول نجاحا عظيما فى حين أن نجاح الثانى لم يزل محدودا بالنظر الى مزاحمة المصانع الكبرى .

التشريع الاشتراكى — أما التشريع الاشتراكى فقد نشأ نتيجة لمساوئ النظام الرأسمالى ، والمقاومة العنيفة التى قامت بها نقابات العمال ، والنزاع الخطير بينه وبين أصحاب الأعمال بحيث اضطرت الحكومات الى أن تعدل عن مبدأ عدم التدخل ، وتصدر ما يعرف بالتشريع الاشتراكى وهو تشريع مؤدّاه تحسين حالة العمال بطريق القانون

حتى يستغنوا بهذا العمل التشريعى عن العمل المباشر . لذا صدرت قوانين حماية النساء والأطفال من إرهاق المموّلين ، وتحديد ساعات العمل للرجال وإعطائهم حق الاعتصاب وحق إنشاء النقابات ، والتعويض عما يصيبهم من الضرر أثناء العمل ، وتقديم المعاش الكافى لسدّ عوزهم عند التقاعد ، هذا فضلا عن تنظيم التحكيم فى كل ما ينشأ من الخلاف بين العمال وأصحاب الأعمال . وبفضل هذه الوسائل — النقابات والتشريع — تحسنت حالة العمال تحسينا مطردا ، ولو أن التفاوت الاجتماعى العظيم بين الطبقات ما زال يوقد نار العداوة والبغضاء فى القلوب ويعطى الحركة الاشتراكية قوتها الدافعة فى أركان العالم المتحضر .

الحركة الفكرية — كان النصف الأول من القرن التاسع عشر عهد نشاط عظيم سواء أكان فى الأدب أم فى الفنون أم فى العلوم . وكان حامل لواء الحركة الأدبية جماعة الرومانتيك (Romantiques) الذين خرجوا على حركة الكلاسيك السائدة فى عصرهم وضربوا بسهم جديد فى ميدان الأدب ، ففى القرن الثامن عشر كانت الأدبيات ارستقراطية فى مبناها ومعناها فلا تنزل الى الحياة الوضيعة ، ولا تستخدم إلا العبارات الضخمة ، كما أنها لم تعن إلا بالموضوعات العامة ، بدل أن تصوّر النزعات الخاصة التى تختلج قلب الانسان ، وكثيرا ما كانت تتأثر بروح الأدب القديم الذى كان يسيطر على العقول فى ذلك العصر حتى نشأ من ثم اسم (Neoclassiques) الذى أطلق على ذلك الاحياء .

أما فى العهد الحديث فقد خلعت الأدبيات عنها رداء الاستقراطية المصطنعة وجعلت تعنى بكل مظاهر الحياة وتصوّر كل ناحية منها ، هذا الى أنها تخلت عن موارد الآداب القديمة ، واتجهت صوب مورد آخر ألبسها حلة جديدة وهو أدبيات شكسبير وشلر ، فضلا عن العناية بالقصص والنوادر التاريخية وتصوير الإحساسات الدفينة التى تختلج قلوب الكتاب والشعراء . أما المؤرخون فقد خرجوا على النظام القديم الذى جعل الكتابة التاريخية تقتصر على سرد الوقائع والتواريخ بغير تحليل

أو ربط أو رجوع الى الوثائق التاريخيــة أو الاهتمام بأى مظهر فى حياة الدولة غير مظهر الملك وما يحيط به من الجاه والعظمة ، وجعلوا يهتمون بمظاهر الحياة بأوسع معناها وتصوير دقائق البيئة التاريخية ومحتوياتها .

أما الفنون التى تأثرت فى القرن الثامن عشر بالنماذج القديمة — مثلها فى ذلك مثل الأدبيات — سواء أكان فى التصوير أم فى النقش أم فى البناء فقــد تخلصت من تلك القيــود ، وسارت فى طريق المذهب الحديث وهو سبيل الحقيقة المطلقة من كل قيــد بمعنى أن المصوّرين والنقاشين كانوا يصوّرون الأشياء على ما هى جميــلة كانت أو قبيحة على مثال ما كان يفعله أهل الفن فى العصور الوسطى مع شدّة العناية بالألوان ، وكانت موضوعاتهم مقتطفة من التاريخ الحديث أو من مؤلفات الكتّاب المحدثين أمثال دنتى وشكسبير . وفى هذا العهد أيضا ارتقت الموسيقى ارتقاء عظيما بالنظر لارتقاء التمثيل وازدياد الآلات الموسيقية وانتشارها بين طبقات الشعب .

على أنه اذا كانت الآداب والفنون قد تغيرت تغيرا خطيرا فى هذا العهد فانهــا لم تبلغ من الأهمية ما بلغته العلوم التى أثرت تأثيرا كبيرا فى حياة العالم وفى كل ما يقترن بالذهن من وسائل الحيــاة الحديثة . ولعل أكبر أسباب هذا التقــدّم المدهش ما كان من تخصص العلماء فى فروع معينة من العلوم على خلاف ما وقع فى القرون التى تقدّمت ، هذا فضلا عن ازدياد عددهم وانقطاعهم للبحث وخدمة العلم ودوام اتصالهم بواسطة المجلات والجــرائد وغيرها من وسائل النشر التى زادت التآلف والارتباط فى سبيل الوقوف على كنه أسرار الطبيعة ، هــذا الى أن الحكومات قد عملت على تشجيع النهضة العلمية باعتبارها عاملا هاما من عوامل المدنية وأداة خطيرة فى الكفاح المستعر بين الدول ، كما أن أصحاب الصناعات المختلفة جادوا بكل سخاء فى سبيل رقى العلوم الحديثة التى ساعدت بلا ريب على بلوغ الصناعة تلك المنزلة التى بلغتها .

هذا وقد كان أهم من يمثل الحركة الأدبية فى فرنسا شاتو بريان وفكتور هوجو والفرد دى فينى والفرد دى مسيه فى النثر والشــعر وجورج ساند وبلزاك فى الرواية

وأوجست تييرى وميشيليه فى التاريخ. أما فى الفنون فقد كان يمثل النهضة الحديثة جيريكو يلت ودلا كروا فى حين كان يمثل المدرسة القديمة دافيد وأنجر. وكان أكبر علماء ذلك العصر من الرياضيين لاجرانج ومونج ولابلاس ، ومن الكيمائيين جاى لوساك ومن الفيسقيين فرسنل وأمبير وأراجو ومن الطبيعيين لامارك وسنت هلير وكوفيير . وقد كانت النهضة الفكرية خارج فرنسا لا سيما فى انجلترا وألمانيا لا تقل عنها أهمية . أما انجلترا فقد كان يمثلها فى الشعر بيرون وفى التاريخ ماكولى وفى الروايات والترسكوت ودكنس وفى العلوم الفلكية هرشل والعلوم الطبيعية فرارى والكيمائية والتون ودافى . أما فى ألمانيا فكان يمثل الحركة الفكرية شلروجيته فى الأدب ونخت وهيجل فى الفلسفة وأهلاند وهنرى هين فى الشعر وبيتهوفن فى الموسيقى وهذه الأسماء تدل وحدها على الثروة الأدبية والعلمية التى برزت للعالم فى فاتحة هذا القرن ، بحيث أصبح هذا العهد يعتبر عهد تقدم بارز فى تاريخ المدنية الحديثة .

أما فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فقد نشأت حركة الواقعيين (Realists) التى تعتبر احتجاجا قائما على طبقة الرومانتيك الذين أطلقوا العنان لأنفسهم فى تصوير خيالهم ومؤثراتهم الذاتية بدلا من تصوير الحقيقة الواقعة بكل دقة ، فبدلا من أن ينصرف الكاتب أو المصور الى بسط آرائه أو تصوير إحساساته ترى الواقعيين يذهبون الى أن أعظم الكتابة والفن ما كان علميا ومتجردا عن العامل الذاتى ، وأن الفنى لا يظهر فى عمله أكثر مما يظهر الله فى الطبيعة . ولا ريب أن هذا الانقلاب يرجع الى تقدّم العلوم ومناهج البحث فى هذا العهد ، فكما أن العلماء عنوا بحقائق الطبيعة كذلك عنى الكتاب والفنانون بحقائق المجتمع ، على أن الكتاب انقسموا حيال ذلك قسمين : قسم يعمل للأدب من أجل الأدب وآخرون يعززون الأدب من أجل المنفعة المادية . فبينما يعمل بعضهم لتصوير الحياة كيفما كانت من غير تعليق ، يذهب الآخرون الى تصوير الحياة والطبيعة بغرض ترقية النوع الانسانى

أدبيا ومادّيا . بل ان هذا الاختلاف ينصرف أيضا الى الأسلوب : فاتباع المبدأ الأوّل يذهبون الى تذويق الألفاظ وتميقها حتى تقع موقعا حسنا على السمع ، فى حين أن الآخرين يجعلون الأسلوب وسيلة لتمثيل أغراضهم فقط .

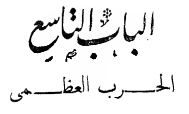
ولعل أكبر ما يميز هذه الحركة الجديدة تقدّم الكتابة الروائية والمسرحية . فقد أخذت الروايات تهتم اهتماما كبيرا بتصوير كافة أحوال المجتمع حتى لقد أصبحت وثائق تاريخية يعتدّ بها،ويلازمها فى ذلك المسرح الذى أصبح يمثل المحصول الأدبى ووجهته الواقعية أحسن تمثيل . وأما الكتابة التاريخية فقد تطورت أيضا تطوّرا خطيرا فبينما نرى المؤرّخين فى العهد الرومانتيك يخلطون بالوقائع التاريخية شيئا كثيرا من خيالهم حتى يقدّموا للقارئ صورة واضحة نرى المؤرّخ فى هذا العهد يعمد الى كتابة الحقائق على منهج علمى بحت ، وبدلا من أن ينزع الى الخيال لإيضاح الحقائق تراه ينزع الى الوثائق لإعطاء صورة بارزة عن عهد من العهود . وأما الفلسفة فقد امتازت بالاتصال التام بالعلوم، واتباع الأساليب القائمة على الملاحظة والاستنتاج، والاهتمام بدراسة علم النفس، ولعل أكثر ما يلفت النظر فى هذا العصر هو ارتقاء الصحافة وانتشارها وتقريب الحقائق الواقعة لكل إنسان .

ولقد تأثرت الفنون كذلك بمذهب الواقعيين لا سيما التصوير فنرى هذا الفن فى عهده الجديد يستند على الملاحظة لا على الخيال ولا يأنف من تصوير أحقر المناظر كما يصوّر أعلاها أى أن الفن أصبح فنا ديموقراطيا بالمعنى الصحيح، على أن الفن الكلاسيكى والفن الرومانتيكى لم ينعدما فى هذا العصر بل استمرا معه جنبا لجنب .

وقد كان أهم من يمثل الحركة الأدبية فى فرنسا من الكتّاب فى هذا العصر « لا كونت دى ليل وهريديا و بردهوم » ومن الروائيين فلوبير وزولا ومن كتّاب الدراما دوماس الأصغر ومن المؤرّخين تين ورينان . أما التصوير فيتمثل فى كوربيه وبيليت وكاربر . وفى ألمانيا تمتاز الحركة بجماعة المؤرّخين نخص بالذكر منهم ترتيشكه وممسن ولامبرخت، ومن الفلاسفة شوبنهاور ونيتشه ، ومن الموسيقيين

واجنر، أما فى انجلترا فتتخذ الحركة الأدبيــة صبغة نفعية واجتماعيــة ويبلغ التصوير شأوا بعيدا من الكمال . وقد كان أكبر من نشأ من الكتاب جون رسكن ومن الشعراء تنيسن وبروننج، ومن الروائيين مريدث ودكنز وكبلنج وولز، ومن الفلاسفة داروين وهربرت سبنسر، ومن المصورين روستى وهنت .

وأما العلوم فقد تقدّمت تقدّما خطيرا فى هذا العهد بحيث ارتفعت كثيرا فوق ما علق عليها من الآمال من قبــل . وقد كان أكبر مظاهر الحركة العلمية استمرار التخصص ، لأن المعلومات اتسعت الى حد لا يستطيع إتقانها رجل واحد ، وكذلك ازداد تطبيق الكشوف العلمية حتى تقدّمت الصناعة تبعا لهذا التقدّم العلمى واطرد الرخاء المــادّى فى العــالم بل وتأثرت الحياة العقلية والأدبية تأثيرا عظيما حتى ليصح اعتبار هذه الحركة العلمية من أهم وأخطر الحوادث التى رآها العالم . فالعلوم الرياضية أصبحت أداة قوية للعلوم الفلكية والميكانيكية وغيرها ، والعــلوم الطبيعية ساعدت على تكوين الميكانيكيين فى كل الصناعات والاختصاصيين فى كل العلوم ، وهى تمتــاز بالكشوف الخطــيرة التى تمت فى فرعى الحــرارة والكهرباء على وجه أخص ، فى حين أن العلوم الكيماوية أصبحت عاملا هاما من عوامل الصناعة الحديثة فضلا عن تأثيرها تأثيرا محسوسا فى العلوم الطبية وغيرها . ويطرد هذا التقدّم فى علمى الحيوان والنبات اللذين أصبحا يقومان على تشابه ظواهر الحياة فى كليهما ، وعلم البكتريا الذى قصــد الى دراسة حياة الميكروب والوسائل المقاومة له كما فعل باســتور . وبالجملة سارت العلوم شوطا بعيدا فى سبيل التقدّم القــائم على تصحيح مناهج البحث وجعلها قائمة على أساس الملاحظة والاستنتاج حتى تناول التقدّم كافة العلوم من غير استثناء ممــا يعطى القرن التاسع عشر صبغة خاصة يمتاز بهــا عن كل ما تقدّمه من القرون .



الباب التاسع

الحرب العظمى

الفصل الأول

مقدمات الحرب

[من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩١٤]

التطور الحديث — شاهدت الفترة التى انقضت بين حرب السبعين والحرب العظمى تطورا هائلا فى شئون العالم . فمناطق الأرض التى كانت لا تزال سرا مجهولا اكتشفت من القطب الى القطب، كما أن أسرار الطبيعة التى كانت لغزا لا يحل، أخذت تنجلى عاما بعد عام، وتعددت الروابط المادّية والأدبية بين أمم الأرض، حتى لم تعد أمة فى عزلة عن سواها، واشتركت الشعوب فى كثير من الأفكار والعقائد حتى أصبحت المدنية عامة بين دول العالم، وانتشرت المبادئ الديموقراطية فى الشرق، وتقدّمت فى الغرب تقدّما مطردا فى سبيل استقصاء آراء الشعب الحقيقية وآراء كل الطبقات (من غير استثناء النساء) هذا الى ارتقاء الأفكار الديموقراطية وانتشار مبادئ المساواة فى الحقوق السياسية وازدياد الرغبة فى المساواة الاقتصادية والاجتماعية إما بطريق العمل المباشر وإما بطريق التشريع، وهذا ما يعبر عنه باشتداد الروح الاشتراكية . وفى هذا العهد أيضا استخدمت أغلب الحكومات نفوذها لتحقيق أعلى رغائب المدنية وهى العناية بالمعدم والضعيف، وانتصرت مبادئ التسامح الدينى انتصارا عظيما، ولو أن مبادئ التسامح الجنسى

ما زالت فى الخير النظرى المحض، فاضطهاد اليهود اشتدّ اشتداد عظيما فى السنوات الأخيرة فى شرق أوربة حتى ازدادت المهاجرة لأمريكا وفلسطين . وقس على هذا اضطهاد الشعوب الغربية للسود والهنود وكافة الشعوب الصفراء وهو اضطهاد مبنى على تقاليد قديمة وعوامل اقتصادية عديدة . غير أن الرقى الاقتصادى المدهش الذى شمل أركان العالم قوّى روح التنافس بين الأمم وولد الأحقاد الجنسية بين الشعوب الغربية نفسها ،وكان أهم مظاهر هذه الأحقاد التسليح والمحالفات فالحرب العالمية الهائلة التى دكت جوانب الحضارة دكا .

الحالة الدولية — كانت الفترة التى انقضت بين حرب السبعين والحرب العظمى فترة سلم ولكنه سلم مسلح ينوء بأعباء الحرب ومتاعبها ، و يتعثر فى المحالفات التى مهدت الطريق لها . وأهم هذه المحالفات :

(١) التحالف الودّى الذى عقد بين ألمانيا والنمسا والروسيا فى عام ١٨٧٢

(٢) التحالف الثنائى الذى أبرم بين ألمانيا والنمسا فى عام ١٨٧٩ ثم أطلق عليه اسم التحالف الثلاثى بعد ارتباط إيطاليا معهما فى عام ١٨٨٢

(٣) التحالف الفرنسى الروسى (١٨٩١ — ١٨٩٢) والوفاق الودّى بين انجلترا وفرنسا (١٩٠٤ — ١٩٠٥) ثم الوفاق الثلاثى الذى تم بعد تقارب انجلترا والروسيا (١٩٠٧ — ١٩٠٨) .

وقد كان العامل الأوّل فى التحالف الثلاثى رغبة بسمارك فى عزلة فرنسا وتوطيد البناء الذى شاده بالدم والحديد ، فى حين أن الوفاق الثلاثى كان ينزع الى تقييد مطامع ألمانيا الجديدة و إعادة التوازن الدولى فى أوربة . على أن أزدياد المنافسة الاقتصادية بين الدول ، والرغبة فى التوسع والاستعمار ضاعف الخطر الذى كان يهدّد أوربة ودفع الدول الى العناية بالمحالفات والتسليح .

السلم المسلح — يعتبر السلم المسلح إحدى نتائج معاهدة فرنكفورت التى انتزعت من فرنسا بعض مقاطعاتها الفرنسية ، وجعلت الصلح بينها و بين ألمانيا

عسير الوقوع ، فبينما نرى ألمـانيا تجدّ فى التسليح خوفا من أن تعود فرنسا الى الثأر منها ، نرى أغلب الدول العظمى تحذو حذوها حتى لا تكون فى المستقبل خطرا عليها . ومن ثم ازدادت الأعباء العسكرية ونفقاتها ازديادا عظيما لا سيما وقد اضطرّت الدول إزاء التقدّم العلمى المطرد أن تغير معدّاتها بين كل حين وآخر حتى تصل الى أقصى ما يمكن من الدقة والإتقان .

وقد نشأ عن هـذا الاستعداد الحربى حالة خطيرة فى العلاقات الدولية ، فقد اصبح مبدأ القوّة هو المبـدأ السائد بين الدول ، وأصبح التهديد بالحرب من أقوى العوامل فى السـياسة الدوليـة . لذلك تنافست الدول تنافسا عظيما فى التفوّق على بعضها البعض ، وتوترت العلاقات بينها لدرجة كانت تكفى وحدها لأن تطلق عنـان الحرب . ولمـا كانت بعض الدول لا سيما ألمـانيا قد اتبعت مبـدأ التجنيد العـام ووضع كافة موارد البلاد تحت تصرف رجال الحرب وقت الحاجة ، فقـد ظهرت الحرب المقبلة مظهرا مرعبا ينطوى على الحياة أو الموت والسيادة أو العبودية لمن يشترك فيها من الأمم ، وهـذا ضاعف حالة القلق والذعر الذى كان يساور كافة الدول .

على أن تأثير التسليح لم يتناول العـلاقات السياسية فحسب ، بل تناول أحوال الأمم الاجتماعية والاقتصادية أيضا ، فقد نشأ عن التعليم العسكرى وما ينطوى عليـه من الخضوع المطلق لارادة الزعمـاء أن تضاءلت شخصية الأفراد لدرجة عظيمة كما هو الحال فى ألمـانيا ، وطبع الشعب بأسره بطابع الخضوع والاستسلام ، هـذا الى أنه دلت التجربة على أن الشبان الذين يقضون شطرا من عمرهم تحت لواء الجيش يأبون العودة فى كثير من الأحوال الى حالة الهدوء الذى نشأوا فيـه بين القرى مما أضر بالزراعة ومواردها وساعد على ازدياد ذلك السيل الجارف سيل المهاجرة الذى لا ينقطع من ريف البلاد الى مدنها ، ومن جهة أخرى اقتضت حالة التسليح وما تكلفه من المـال إهمال واجبات كبرى من واجبات الحكومة لا سيما واجب العناية بالطبقة الفقيرة من الشعب ، هذا الى أن مرافق البلاد الاقتصادية والأخلاقية

تأثرت تأثرا عظيما ، فقد قلت الأيدى العاملة فى المصانع والمتاجر، وقدمر أجل التعليم بأنواعه، وعطل التطوّر الأخلاقى المنشود فى الأفراد والجماعات .

نشأة المحالفات — التحالف الودّى بين ألمانيا والنمسا والروسيا : لم يقتصر الأمر على استعداد الدول للحرب كل فى دائرتها بل تعدّى ذلك الى ارتباطها جماعات جماعات مما كان ينذر باشتعال أوربة بأسرها اذا ما وقعت الحرب . فيلاحظ أوّلا أن ألمانيا التى خرجت منتصرة من حرب السبعين ولها من القوّة والبأس ما لم يكن لغيرها كانت تخشى مع ذلك انتقام فرنسا كما كانت تخشى تضامن الدول ضدّها على نحو ما فعلت إزاء شارل الخامس ولويس الرابع عشر ونابليون . لذلك سعى بسمارك سعيا حثيثا حتى اقترب من النمسا التى جاملها مجاملة عظيمة بعد سادوا توقعا للحاجة اليها فى المستقبل ، هذا الى أنه عقد أواصر الصداقة مع الروسيا التى كان لحيادها فى الحروب الأوربية أكبر أثر فى تكوين الدولة الألمانية . ومن ثم نشأ الوفاق الثلاثى بين الأمبراطرة فى سنة ١٨٧٢ وتمت عزلة فرنسا ، واستطاع بسمارك أن يعلن أن الدولة الألمانية الجديدة هى دعامة السلم فى أوربة .

التحالف الثلاثى — على أن هذا الوفاق الذى تم بين الأمبراطرة لم يعمر طويلا ، فقد كانت ألمانيا إحدى الدول التى وقفت فى وجه الروسيا سنة ١٨٧٨ وارغمتها على أن تقبل تحكيمها فى مؤتمر برلين غداة انتصارها على تركيا . ولما تصادمت مصالح النمسا والروسيا تصادما قويا فى هذا المؤتمر أبت ألمانيا أن تؤيد الروسيا تأييدا كافيا ، ولذا انسحبت حكومة القيصر من الوفاق تدريجيا واضطرت ألمانيا الى الاسراع فى عقد ارتباط دولى جديد بينها وبين النمسا عام ١٨٧٩ على قاعدة المعونة المطلقة المتبادلة حتى تأمنا الخطر الذى كان يهدّدهما من قبل الروسيا وفرنسا .

على أن هذا التحالف الثنائى لم يلبث أن تحوّل الى تحالف ثلاثى حينما انضمت اليه ايطاليا فى سنة ١٨٨٢ ويرجع السبب فى هذا التحالف الى أن فرنسا أعلنت

حمايتها على تونس فى سنة ١٨٨١ وطفقت تعمل للاستيلاء على بلاد أفريقية الشمالية بأكملها ، فى حين أن ايطاليا كانت تطمع فى تلك البلاد المواجهة لشواطئها ، كما كانت تئن من وطأة أزمات اقتصادية شديدة ألمت بها على أثر الوحدة فخيل اليها أن فى هذا التحالف تفريجا لمتاعبها . غير أن هذا التحالف كان يشوبه من بادئ الأمر ما انطوت عليــه قلوب الايطاليين والنمساويين من الأحقاد بحيث لو لم تجعل ألمــانيا تحالف ايطاليا مع النمسا شرطا أساسيا لتحالفها معها لمــا أمكن عقد هذا التحالف ولمــا قبله الرأى العــام بتاتا . والواقع أن مصالح النمسا وايطاليا تناقضت تناقضا عظيما ســواء أكان فى شبه جزيرة البلقان أم فى شرق البحر الأبيض والأراضى الايطالية الباقيــة فى حوزة النمسا . ومما زاد فى ضعف التحالف الثلاثى أن ألمــانيا التى كثيرا ما قربت شــقة الخلاف بين حليفتيها ساعدت تركيا فى حربها مع ايطاليا سنة ١٩١١ رغبــة فى الإبقاء على صداقة تركيا التى فتحت أبوابها للألمــانيين وهيأت لهم الطريق لتحقيق آمالهم فى الشرق ، وهذا كله أدى الى زعزعة القواعد التى تربط ايطاليا بحليفتيها حتى أصبح لا يعتمد عليها كثيرا اذا ما هبت العاصفة .

المحالفة الفرنسية الروسية — كان اتفاق فرنسا والروسيا أمرا لا مندوحة عنه بعــد أن أصبحت ألمــانيا عقب حرب الســبعين أقوى دولة فى أوربة ، غير أن بسمارك نجح بدهائه الغريب فى تأجيل هذا التحالف عشرين سنة متوالية ، فقد اتفق مع الروسيا اتفاقا ودّيا بادئ الأمر كما رأينا ، ثم أقام يعبث بها ويضللها عن مصالحها الحقيقية حتى بعد أن ظهرت نواياه فى مؤتمر برلين ، فنراه فى سنة ١٨٨٤ وفى سنة ١٨٨٧ يعقد مع القيصر اسكندر الثالث اتفاقا سريا مؤدّاه أن تلتزم الروسيا الحياد اذا ما هاجمت ألمــانيا دولة من الدول . إلا أن سقوط بسمارك فى عام ١٨٩٠ غير الموقف الدولى تغييرا كبيرا ، فقد حرمت ألمــانيا من خدمات ذلك السياسى العظيم الذى دافع عن مصالحها بعزم وجد ، واستطاعت فرنسا والروسيا أن تتقاربا بعــد طول عهد الانفصال ، وقد كان أكبر عامل فى هــذا التقارب ما تعرضت له مصالح الروسيا من الخطر فى الشرق ، هذا فضلا عن حاجتها الشديدة الى المــال ،

فى حين أن عزلة فرنسا وحاجتها الى المعونة كانت أكبر دافع لها لاتمام التحالف الذى عقد فى أغسطس سنة ١٨٩١

على أن هذه المحالفة اقتصرت فى بادئ الأمر على تبادل الزيارات الودّية، ولم تؤثر تأثيرا محسوسا فى السياسة الدولية . فلما وقعت الحرب بين الروسيا واليابان وهزمت الروسيا هزيمة كبرى فى منشوريا فى سنة ١٩٠٥ تزعزعت ثقة فرنسا فى حليفتها، على أنها أبقت على علاقاتها معها بحكم الظروف القاهرة والرغبة فى تجنب العزلة التى عرّضتها لأكبر الأخطار، فلما بدأت الحالة الدولية تتعقد منذ سنة ١٩٠٥ بسبب تصادم المصالح الأوربية فى أفريقية والبلقان، تقاربت الدولتان وأثرتا تأثيرا عظيما فى مجرى الحوادث كما سنبينه فى موضعه .

الوفاق الثلاثى — ومما زاد هذا التحالف قوة وارتباطا أن تقاربت انجلترا من الحليفتين تدريجيا على الرغم من التنافس العظيم الذى أشتدّ بين الفريقين فى القرون الماضية . ذلك أن انجلترا اتبعت بادئ الأمر سياسة التباعد عن المحالفات الأوربية ولو أنها كانت تميل فى الواقع الى التحالف الثلاثى لما كانت مصالحها تتعارض مع مصالح الروسيا فى الشرق ومصالح فرنسا فى مصر . غير أن نهوض ألمانيا وازدياد أسطولها ونزعتها الى الفتح والاستعمار والتسلط على أسواق العالم حرك فى انجلترا شعور الخطر الداهم فأسرعت الى التقرّب من فرنسا وتسوية خلافها معها . وقد تم الاتفاق فعلا بين الدولتين على يد ديلكاسة ولانسدون فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ إذ تقرّر أن تطلق يد انجلترا فى مصر كما تطلق يد فرنسا فى مراكش . وبذا وضع أساس الوفاق الذى رفع فرنسا فجأة الى منزلة عالية من العزة والمنعة . وازدادت هذه المنزلة ثباتا حينما تقاربت انجلترا والروسيا فى سنة ١٩٠٧ وسوّى الخلاف القائم بينهما فى فارس، على أن تقسم تلك المملكة الى منطقتى نفوذ إحداهما شمالا للروسيا والأخرى جنوبا لبريطانيا، وبذا نشأ الوفاق الثلاثى الذى أصبح يوازن التحالف الثلاثى فى الواقع، لأنه وإن كانت سياسة انجلترا التقليدية تأبى عليها

أن تشترك فى محالفات لاتنصرف الى غرض ثابت معين، ولكنها لم تترك مع ذلك مجالا للظن فى أنها تقف بجانب أصدقائها اذا دعت الحالة لامتشاق الحسام .

توطد المحالفات الأوربيـــة — النزاع الاقتصادى : يرجع السبب فى عقد المحالفات الأوربية كما أشرنا من قبل الى الرغبة فى إيجاد قوات متماثلة تعاون على تقرير السـلم ، إلا أن فرجة الخلاف اتسعت تدريجا على أثر الترقى الاقتصادى الخطير الذى عمّ أوربة فى هذا القرن . نعم إن الروابط الاقتصادية تعدّدت بين الدول وباتت الوحدة الاقتصادية الدولية قريبة الوقوع ، إلا أن المنافسة الاقتصادية فى أوربة وفى خارجها على وجه أخص اتسعت تدريجا حتى عمت كل سـوق من أسواق العالم ، وكان أوّل مظاهر هذا التنافس السياسة التجارية التى اتبعتها الدول لترويج تجارتها ، فبينما يرى بعضها فى سياسة حرية التجارة خير وسيلة لرخص الأثمـان وإنقاص تكاليف المعيشة ، فضلا عن تشجيع التجارة الخارجية واسـتيراد الآلات والمواد الخام بطريق المبادلة ، يرى البعض الآخر فى حماية التجارة خير سياسة لتدعيم الصناعات الأهلية النـاشئة حتى تستطيع أن تنمو وتقوى وتكافح غيرها فى أسـواق العالم ، على أن ضرائب الحماية كثيرا ماخففت لمصلحة الحلفاء أو الأصدقاء من الدول على قاعدة التبادل .

أما المظهر الثانى من مظاهر المنافسة الاقتصادية فهو مظهر التوسع والاستعمار الذى اتبعته الأمم الصناعية الكبرى لفتح أسواق جديدة فيما وراء البحار . وقد أطلق على هـذا المظهر لقب "أمبريالزم" ، نظرا لمـا تضمنه من معنى السيادة والفتح ، واليه يعزى لدرجة كبرى ذلك الخلاف الخطير الذى وقع بين الدول فى كل قارة من قارات المعمورة . وربمـا كانت انجلترا أوّل الدول التى اختطت سـياسة أمبريالية صريحة فى عهد "يوسف شمبرلن" الذى وضع سياسة الارتباط الاقتصادى بين انجلترا ومستعمراتها ضـدّ كل منافسة أجنبية ، وجعل التوسع والاستعمار قاعدة من قواعد السياسة الانجليزية .

أما فى ألمانيا فقد كانت سياسة بسمارك تتجه الى تثبيت قدم الأمبراطورية قبل كل شئ، ولكن الشعب الألمانى لم يشأ أن يتئد فى السير كما شاء بسمارك، بل جعل يعمل لتحقيق آمال عريضة على يد الأمبراطور ولهلم الثانى الذى تمثلت فيه كل الأمانى التى انبعثت فى قلب هذا الشعب الفتىّ من أثر تأسيس الاتحاد، وارتقاء الصناعة وازدياد السكان زيادة تدعو الى إيجاد مواطن جديدة لمهاجرة السكان وتصريف التجارة .

ولقد عبر الشعب الألمانى عن رغباته بمظاهر شتى ؛ ففى سنة ١٨٨٦ أنشأ الدكتور "كارل بيترس" حزب الجامعة الجرمانية ووضع برنامجا واسع الأطراف ينطوى على بناء أسطول ضخم، وإعداد جيش قوى لفتح مستعمرات للتاجر الألمانية والمهاجرين وإدماج أوربة الوسطى بأسرها فى اتحاد اقتصادى سياسى يجمع ألمانيا والنمسا وسويسرا وهولندا وبلجيكا واسكنديناوة وولايات البلقان، كما ينطوى على استثمار أراضى تركية آسيا وإنشاء مستعمرات فى جنوب أفريقية وجنوب أمريكا تستظل جميعا بالراية الألمانية .

وقد وجدت ألمانيا الفتاة بين الكتاب والمفكرين الألمانيين من رفع سياسة الغزو والفتح هذه الى مرتبة العقائد والمبادئ الأزلية الثابتة، فنيتشه ذهب الى « أن الأرض إرث القوىّ والمستقبل للشعب المتفوّق على الجميع، وأن المسيحية بحضها على الرفق بالعاجز والضعيف لاتصلح لأن تعيش، فان البقاء حق الأصلح والقوىّ وحده» . واذا كان "نيتشه" عن غير قصد قد أوحى الى الألمانيين رسالة السيطرة والسلطان فان "تريشكه" قد جعل الدعوى صريحة مباشرة لاتحتمل التأويل . فقال « ليس ذلك الشعب المتفوّق إلا الشعب البروسى، وقد بلغ تفوّقه بطريق الحرب، وبالحرب يجب أن يبلغ المركز الذى خلق له، فان من أعظم الخطايا أن تتردّد الأمم فى استخدام قوتها، واذا كان الغرض الصالح يبرر الحرب، فأنا أقول إن الحرب الناجحة تبرر كل غرض، ليست الحرب إلا سياسة فى أرفع مظاهرها، أنها الدواء الهائل الناجع لشفاء أدواء العالم » . وقد جاء " برناردى " بعبارة أوضح

فأشار الى بريطانيا كالحائل بين ألمـانيا و بين عظمتها ، ودعا قومه الى محاربتهـا لوصول ألمـانيا الى المكانة التى خلقت لها .

على أن برنامجا كهذا واسـع الآمال كبير الأغراض كان يسـتدعى نظاما وقوة تتناسب مع ضخامته . فاندفعت ألمـانيا فى إنشاء جيش عظيم وأسطول لا يجاوزه أسطول على سطح المـاء، وجعلت تعزز القواعد البحرية فى ولهلمسها فن، وكيل، وهليجولند حتى أصبحت مضرب الأمثال فى المنعة والقوة، فأجابت انجلترا والروسيا وفرنسا على هذا العمل بزيادة قواتها البرية والبحرية، وكان هذا التسابق فى التسليح نذيرا سيئا للمستقبل .

الدعوة الى السـلم (Pacifism) — على أن هـذا التنافس الحـربى الذى كان يهدّد العالم بنكبات من شر ما شاهده تاريخها قد حرك فى كثير من الكتّاب والمفكرين شعور الخطر الداهم فشنوا غارة شعواء على الروح الحربية التى كانت تدفع العـالم الى الهلاك ، ورسموا خطة للاحتفاظ بالسـلم على قاعدة احترام القانون بين الدول . وهذه الخطة التى نادى بها ليون بورجوا فى أوربا والرئيس ولسن فى أمريكا كانت تتضمن إنشاء عصبة أمم تتولى الاحتفاظ بالسلم ومراعاة القانون بين الدول كما تفعل الحكومة بين رعاياها .

ومن جهة أخرى حاولت الاشـتراكية الدولية أن تحتفظ بالسلم بطريقة عملية، وهى اتفاق العمال فى أنحاء العالم على ألا يعاونوا فى إذكاء النار التى تعدّها الحكومات وأن يقعدوا عن المساعدة اذا ما نشبت الحرب . إلا أن هذه الوحدة الدولية لم تستطع التغلب على عاطفة الوطنية المقدّسة وإحلال العاطفة الدولية محلها ، ففى ألمـانيا أبى الديموقراطيون الاشـتراكيون أن يعملوا لتضحية أعلى المصالح الوطنية فى سبيل المصلحة العامة ، فى حين أن الاشـتراكيين الفرنسيين اقتصروا على السعى لانشاء عصبة من الأمم تخضع لأحكام القـانون على مثـل ما نادى به الكتّاب والمفكرون ، معتمدين فى ذلك على قوة الرأى العام فى أوربا فضـلا عن قوة العمال

المنظمة . وبالجملة سار الاشتراكيون فى أعمالهم على غير هدى تتقاذفهم الأغراض المختلفة والآراء المتعارضة ، ففشلت مؤتمراتهم فى الوصول الى نتيجة حاسمة ، ولو عززت الرغبة فى الاحتفاظ بالسلم واجتناب الحرب بقدر المستطاع .

مؤتمر لهاى سنة ١٨٩٩ — ولعل أوّل خطوة عملية فى طريق السلم ما اقترحه القيصر نقولا الثانى فى عام ١٨٩٨ بشأن عقد مؤتمر دولى ينظر فى الوسائل التى تؤدّى الى تحديد السلاح و إيقاف المنافسة القاتلة التى كان يندفع فيها العالم . وقد عقد هذا المؤتمر فى مدينة لاهاى سنة ١٨٩٩ وحضره مندوبون عن ست وعشرين دولة ، ولكن آراء هؤلاء المندوبين تشعبت كثيرا فى بحث مسألة المسائل التى من أجلها عقد المؤتمر وهى مسألة تحديد المعدّات الحربية ، ولم يستطيعوا فى النهاية الوصول الى حل قاطع ، ولو أنهم نجحوا فى تعزيز السلم بعض الشيء بانشاء محكمة دولية للتحكيم فيما عساه أن يقع بين الدول من المشاكل ، على أنه لم يتقرر أن يكون هذا التحكيم إجباريا مما جعل هذه الأداة الجديدة بعيدة عن تحقيق الغرض المقصود من بادئ الأمر .

مؤتمر لاهاى سنة ١٩٠٧ — لذلك استأنف دعاة السلم جهادهم فى العالم للوصول الى اتفاق الدول فى شأن تحديد السلاح أو نزعه تماما ، وكذلك قبول مبدأ التحكيم الجبرى فى كل الأحوال . وقد صادفت هذه الدعوة قبولا من كثير من الدول حتى أنها قبلت مبدأ التحكيم فى حل كثير من مشاكلها من تلقاء نفسها . ولما ازدادت الرغبة فى تحسين العلاقات الدولية وقطع دابر الخلاف الذى قد يؤدّى الى حرب عقد مؤتمر جديد فى لاهاى سنة ١٩٠٧ بغرض إعادة النظر فى مسألة التحكيم وجعلها مبدأ لا ينقض من مبادئ القانون الدولى . وقد تقرّر فعلا قبول مبدأ التحكيم الجبرى ، ولكنه قصر على الخلاف الذى يقع بين دولتين أو أكثر فى تفسير المعاهدات .

السلم فى خطر — لهذا أخفقت الآمال فى تحقيق الوسائل التى تؤدّى الى تعزيز السلم وأصبح العالم مهددا بوقوع الكارثة الكبرى ، فقـد كان جوّ السياسة الأوربيــة متلبدا والخلاف مستحكم الحلقات بين الدول فى مسائل عدّة : فهنالك مسألة الالزاس واللورين التى كانت جرحا داميا فى قلب كل وطنى فرنسى ، والنزاع الذى اشتدّت وطأته بين ألمـــانيا وفرنسا على تحديد مناطق النفوذ فى شمال أفريقية وغيرها . وكذلك الخلاف الذى وقع بين النمسا والصرب وبين الصرب وبلغاريا على البوسنه والهرسك ومقــدونيا ، والخلاف الذى قام بين انجلترا وألمـــانيا على التنافس البحرى والتجارى ، وبيـــن الروسيا والنمسا فى شأن السيطرة على البلقان ، فاشتدّ الحقــد والبغضاء فى أنحاء أوربة وتوترت العلاقات بين سائر الدول ، واندفع العالم فى طريق محفوف بأعظم المخاطر والمكاره .

ولعل أول ما أنذر بقرب وقوع الصاعقة ما وقع من الخلاف فى سنة ١٩١١ على مسألة مراكش ، فقد كانت فرنسا تعمل منذ أوائل القرن العشرين لبسط نفوذها على هذه البلاد كما فعلت فى تونس والجزائر من قبل ، ولكن ألمـــانيا حاولت أن تنازعها السيطرة على هــذه البلاد . وحدث فى مارس ســنة ١٩٠٥ أن هزمت الروســيا " حليفة فرنسا " فى حروبها مع اليابان وانعدم نفوذها السياسى فى أوربة ، فأسرع أمبراطور ألمـــانيا الى زيارة مراكش "طنجة" وأعلن أن حكومته لن توافق على أى تغيير فى إدارة تلك البلاد من غير رضاها . وهذا معناه أنها كانت تأبى مدّ نفوذ فرنسا من غير تعويض لها . غير أن الحرب الروسية اليابانية كانت قد قاربت الانتهاء ، فضلا عن أن انجلترا وقفت بجانب صديقتها " فرنسا " فتقرّر فى مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ احترام استقلال مراكش ، وتكليف فرنسا بالمحافظة على النظام هناك . غير أن هذا النزاع تجدّد فى سنة ١٩١١ على أثر إرسال جيش فرنسى لاحتلال عاصمة مراكش ، فاحتجت ألمـــانيا وعززت احتجاجها بارسال المدفعيــة " بانثر " الى

"أغادير" لصيانة المصالح الألمانية، وكاد الأمر يؤدّى الى نشوب حرب أوربية لولا تغلب روح المسالمة والاعتدال[1]، ففى مؤتمر الجزيرة الذى عقد سنة ١٩١١ تقرر إطلاق يد فرنسا فى مراكش نظير التنازل عن جزء من الكنغو الفرنسية الى ألمانيا، وفى هـذا انخذال عظيم لسياسة ألمـانيا التى اتجهت الى مضاعفة مجهودها البحرى والبرى من ذلك الحين . ولمـا نشبت الحرب البلقانية سـنة ١٩١٢ وخذلت تركيا وأقفل طريق الشرق أمام دول الوسط ، تلبد جوّ السياسة الأوربيـة وأصبحت الحالة تنذر بوقوع حرب أوربية عظمى فى المستقبل القريب .

الفصل الثانى

فاتحـــة الحـــرب العظـــمى

كيف نشبت الحرب — امتشقت أوربة الحسام عام ١٩١٤ فى حرب لم يشهد التاريخ مثلها، وهى ترجع فى أصلها الى التنازع الاقتصادى والسياسى الذى شاهدنا بعض آثاره، والى فشل المساعى المتكررة لاجبار الأمم على قبول التحكيم والاذعان لمشيئة محكمة دولية . وأما الباعث المباشر لنشوب الحرب فهو امتداد نفوذ الصرب على أثر حرب البلقان امتدادا هدّد طريق ألمـانيا الأعظم الى بغداد، وحرّك مطامع هذه الأمة السلافية لانقاذ أبناء جنسها الخاضعين لحكم النمسا . وحدث فى ٢٨ يونيه سـنة ١٩١٤ أن قتل وارث العرش النمساوى وزوجته فى بلدة سيراجيفو بيد طالبين صربيين، فهاج الرأى العام فى النمسا وأسرعت الحكومة الى مطالبـة الصرب بعدّة مطالب أهمها الأشراف على التحقيـق لاعتقادها بوجود مؤامرة واسـعة النطاق تشترك فيها الحكومة الصربية ذاتها . وكانت مذكرة النمسا شديدة اللهجة ، عظيمة

(١) يذهب كثير من الكتاب الى أن تدخل ألمـانيا فى شئون مراكش كان بمثابة اختبار لقوة ارتباط دول الوفاق .

التحدّى ، بل كانت فى ذاتها إعلان للحرب ، فأذعنت الصرب لبعض الطلبات وتردّدت فى قبول البعض الآخر. فزحفت الجنود النمساوية الى بلغراد فى ٢٨ يوليه ، وتأهبت باقى الدول لدخول الحرب بعـد أن فشلت المساعى السياسـية التى بذلت للاحتفاظ بالسلم . ذلك أن الروسيا بدأت بتعبئة جيشها لحماية الصرب والدفاع عن مصالحها فى البلقان ، ولما طلب أمبراطور ألمـانيا الى القيصر أن يوقف تعبئـة جيوشه ، رفض طلبه ، فوقفت ألمـانيا الى جانب حليفتها النمسا ، ووقفت فرنسا الى جانب الروسيا ، بحكم تحالفهما المبنى على المصالح الوثيقة المتبادلة ، وأسرعت ألمـانيا الى إعلان الحــرب عليهما فى ٢ أغسطس ، وشرعت الجنود الألمـانية فى الزحف بالفعل الى فرنسا فى ٣ أغسطس بطريق البلجيك ، تجنبا للمعاقل الحصينة الكائنة على حدود فرنسا الشرقيـة ، واعتبرت معاهدة سنة ١٨٣٩ الضامنة لحيـاد البلجيك «قصاصة من الورق» كما جاهر بذلك المستشار الأمبراطورى . فأسرعت بريطانيا الى إعلان الحرب عليها فى ٤ أغسطس باسم الدفاع عن حياد البلجيك ، وفى الحقيقة للدفاع عن المصالح البريطانية ذاتها .

الحــرب والدول الأخرى — وهكذا اتسع نطاق هذا الصراع الذى لم يسمع بمثله من قبل ، فألمـانيا والنمسا وقفتا الى جانب ، وفرنسا والروسيا وبريطانيا وصربيا والجبل الأسـود والبلجيك وقفت الى الجانب الآخر . إلا أن أغلب دول العالم اشتركت فى الحرب تدريجيا بدافع مصالحها الخاصة .

فتركيا انضمت الى دولتى الوسط دفاعا عن كيانها المهدّد من دول الوفاق ولا سيما الروسيا[1] ، وانحازت بلغاريا أيضا الى هذا الجانب مدفوعة بعامل الرغبة فى تحرير بلادها من نفوذ الروسيا ، وجمع شمل العنصر البلغارى فى البلقان تحت رايتها ، بعد أن أخفقت فى ذلك فى حرب البلقان المـاضية ، ثم إن اليابان والصين انضمتا الى الطرف الآخر

(١) أعلنت تركيا أن حيدتها لا يمكن أن تراعى على كل حال فى هذه الحرب ، إذ ليس من المعقول أن الروسيا والدول الغربية تحافظ على الوسائل الدقيقة المرتبطة باستعمال البوغازين ، فدخولها الحرب فى الواقع كانت مسألة حياة أو موت (تصريحات أنور بك — مذكرات هندنبرج) .

رغبة فى الاستيلاء على أملاك الألمانيين فى الشرق الأقصى ، وكما انضمت البرتقال بحكم حلفها القديم مع بريطانيا ، أما إيطاليا فكانت تئن من العبء المالى والحرب الذى اقتضته الحرب الطرابلسية ، فلزمت الحيدة أوّلا على زعم أن تعهداتها صريحة بأنها لا تشترك إلا فى حروب الدفاع فقط مع حلفائها ، غير أن دول الوفاق خففت عنها أعباءها المالية، ووعدتها بتحقيق أطماعها فى الترنتينو والتيرول، فانتهت باعلان الحرب على حليفتها النمسا فى ٥ مايو سنة ١٩١٥ ؛ وأعقبتها اليونان ذات المطامع الواسعة فى تركيا ،ورومانيا التى كانت تحلم بمدّ نفوذها على ترانسلفانيا ،وتحرير شعوبها النازلة فى أملاك الأمبراطورية النمساوية . أما الولايات المتحدة فقد لزمت الحياد فى بادئ الأمر ولكنها أخذت تتجه تدريجيا نحو الحرب ، نظرا لصلة الدم التى تربطها بانجلترا ، والديون العظيمة التى كانت لها عند الحلفاء ، ومركزها الاقتصادى فى العالم ، ذلك المركز الذى كان يجعل انتصار ألمانيا إفلاسا لها وخطرا عظيما عليها ، فلما خرجت الروسيا من الحرب على أثر الثورة ، ونجحت الغوّاصات الألمانية فى أوائل سنة ١٩١٧ بعض النجاح ، أصبح لامناص من دخول أمريكا الحرب لاسيما وقد تهيأ لها الرأى العام بتأثير « دعوة الحلفاء » عن الفظائع التى ارتكبها الألمان فى بلچيكا وفرنسا ، وبتأثير النزاع الذى نشأ بين أمريكا وألمانيا على مسائل الحرب البحرية وغيرها ، واليك البيان :

لما ضربت بريطانيا نطاقا على موانئ ألمانيا أثر إعلان الحرب ، وحرّمت دخول المراكب المحايدة اليها مهما كان نوع ما تحمله ، أجابت ألمانيا باعتبار المياه البريطانية منطقة حربية ، واستخدمت قوّاتها البحرية ولا سيما الغوّاصات لاغراق كل ما يدخل من المراكب اليها ، فاعترضت الولايات المتحدة على عمل الدولتين ، غير أن اعتراضها على الألمانيين كان أقوى وأشد ، لأنهم لم يتخذوا أسباب النجاة لركاب البواخر وبحارتها ، كما حدث للباخرة لوزيتانيا التى غرق من ركابها نحو ألف . ثم إن الألمانيين أخذوا أيضا يهيئون الأسباب لتدمير الأرصفة والمعامل والمستودعات الأمريكية التى كانت تستخدم لتوريد المهمات الحربية الى الحلفاء ، ولما ازدادت

العلاقات توترا ، فاوضت ألمـانيا اليابان والمكسيك للاشتراك معها فيما اذا نشبت الحرب بينها وبين أمريكا ، وكان لكشف هذه المفاوضة السياسية تأثير بالغ فى أمريكا ، فقد أعلنت الولايات المتحدة الحرب فى ٦ أبريل سـنة ١٩١٧ ، ولم يرتفع صوت بالمعارضة إلا نادرا ، وحذت معظم دول أمريكا الجنوبية حذوها فى هذا السبيل .

وهكذا امتدّت الحرب الى جوانب العالم بأسره ، وأثقل كاهل الشعوب بحمل كبير لم تعرفه قبلا ، فانه لم يقتصر أمر الحرب على عدد معين من الرجال ، بل أرسلت الدول المتحاربة كل الرجال القادرين على حمل السلاح الى الميدان — ولا يسـتثنى من ذلك انجلترا التى أجبرتها ظروف الحرب على إعلان الخدمة الاجبارية فى أوائل سنة ١٩١٦ وكانت قبلا اختيارية — وحوّلت الصناعة والزراعة وباقى فروع الحياة الاقتصادية من مجراها الأصـلى الى القيام بأعباء الحرب ، واستخدمت كل مواهب الرجال كما استخدمت كل مواهب النساء لتحقيق أغراض النصر ، فتحوّلت الحرب من صراع معين الى نزال هائل بين الأمم والشعوب ، وتخطى النزال حدود القوّات المـادّية الى القوى الأدبية بأكبر مظاهرها وأوسع حدودها .

حالة الحـــرب — بلغت الحرب من القسـوة والفظاعة مبلغا لم يشهده الناس من قبل ، فقد استخدم الصحافيون والكتّاب كل وسائل النشر لإثارة البغضاء والأحقاد حتى انعدمت الرحمة وانتزعت أرفع صفات الانسانية كلها من قلوب الشعوب المتحاربة ، فلم تترك وسيلة من وسائل الخراب والتدمير واستئصال موارد الحياة إلا استخدمت ، وكان للكيمائيين والمهندسين دور فيها لا يقـدّر ، فالغازات الخانقـة والمعمية والمواد المنصهرة القاتلة ، والغوّاصـات والمدافع البعيـدة المرمى ، والمقذوفات الهوائية المهلكة ، والسيارات المدرّعة والدبابات ، كلها من آثار هـذه الحرب التى بلغت نكباتها فى المـال والرجال ما لم يحلم به أصـدق العارفين . ولعل السلاح الأدبى الذى استخدمه الفريقان لسحق قوّات الأعداء المعنوية كان أمضى الأسلحة وأشدّها فتكا فى هذه الحرب .

العوامل الفاصلة — ليس من السهل إدراك العوامل الفاصلة فى هذه الحرب الآن . فقد تكون صفات الأمم الخاصة من حيث الثبات والصبر وقوة الإرادة قد لعبت دورا مهما ، وقد تكون أساليب الدعوة للثورة والتأثير بالخطابة والكتابة من أكبر العوامل الحاسمة ، وقد يكون الضيق الاقتصادى قد ترك أثره ، ولكن هناك عوامل أخرى فاصلة لا تقبل الشك :

(أوّلا) الأسطول البريطانى الذى طوّق موانئ الأعداء ، وحرّم على المحايدين الاتجار معهم ، وقام بحماية مواصلات الدول المتحالفة ، ونقل الجيوش وزودها بالمؤن والذخائر ، وموّن البلاد البريطانية وحلفاءها على الرغم من محاولة الغوّاصات فصلها عن العالم .

(ثانيا) كان اشتراك الولايات المتحدة فى نهاية الحرب ووضعها مواردها الهائلة من أموال ورجال ومؤن وذخائر تحت تصرف الحلفاء عملا حاسما فى ذاته . كما أن دفاع الرئيس ولسن عن القضية المشتركة أكسبها قوة أدبية عظمى ، ولا ننسى شروطه الأربعة عشرة الشهيرة التى وضعت أساسا معقولا للصلح ، فقد أضعفت الأساس الذى كانت تستند عليه دول التحالف الرباعى فى المقاومة ، وعجلت زمن التفكك والانحلال .

الفصل الثالث

أدوار الحرب

يمكن تقسيم الحرب الى ثلاثة أدوار :

(أوّلا) الهجوم الألمانى الأوّل الذى أوقف عند حدّ المارن وأعطى بريطانيا الفرصة لتنظيم المقاومة .

(ثانيا) حرب الخنادق الذى استمر من سبتمبر سنة ١٩١٤ الى مارس سنة ١٩١٨ بغير الوصول الى نتيجة حاسمة .

(ثالثـا) حوادث ســنة ١٩١٨ التى بدأت بهجوم الألمـان وانتهت بارتدادهم وحلفائهم فى كل ميدان .

(١) الدور الأوّل : الميـدان الغربى — زحف الجيش الألمـانى الى بلجيكا فسقطت لييج بعد دفاع مجيد ، وأعقبتها نامور ، ثم والى الجناح الأيمن والقلب زحفهما فى البلجيك وفرنسـا بينما كان الجناح الأيسر يعمل فى اللورين . فأسرعت أغلب القوّات الفرنسية والانجليزية الى الحدود الشمالية لايقاف الزحف ، فهزم الفرنسيون عند شارلروا ، وارتد الانجليز عند مونس ، وانتهت موقعة ماهوزن فى اللورين بانتصار الألمـانيين ، فواصلوا الزحف الى ليل ، واراس ، وريمس ، وأميان ، واخترق الفرسان صفوف الأعداء الى نحو ١٢ ميلا من باريس ، حتى خيل للناس أن المدينة ستسقط لا محالة ، فأسرعت الحكومة الفرنسية بالرحيل الى بوردو ، غير أن القوّات الفرنسية الانجليزية حملت على الألمـان على نهر المـارن ، وقامت بحركة التفاف خطيرة حول جناحهم الأيمن الذى انكشف بتهوّره فى التقدّم ، فأرغمتهم على التقهقر الى نهر الأين ، وبذلك اســتردّت فرنسا جزءاً كبيراً من بلادها ، وكاد يتحوّل تقــدّم الألمـانيين الى تقهقر ودفاع ، غير أنهــم أقاموا المتاريس والخنادق ، فخذا الحلفاء حذوهم وتحوّلت الحرب من ذلك الحين الى ســنة ١٩١٨ الى معارك محليــة على طول خط القتال ، الذى كان يبدأ عند أوستند ببلجيكا ، وينتهى عند الحدود السويسرية .

الميدان الشرقى — أما فى الشرق فقد غزا الروسيون بروسيا الشرقية بجموع هائلة تفوق كل ما استطاع الألمـانيون أن يحشدوه فى ذلك الميدان ، إلا أن الذى يحكم على شــئون الحرب بالمقادير الواضحــة للعيان يرتكب متن الشطط ، فان قيمة الجندى الأدبية ومهارة القيـادة العامة هى أعظم العوامل لبلوغ الغرض ، فمـا كاد الجنرال هندنبرج ومساعده القائد لودندرف يتوليان الأمر حتى تم إنقاذ بروســيا . وكان يوم ٢٦ أغسطس هو أوّل أيام ذلك الصراع الدموى الهائل الذى ابتدأ بوقوع

فاجعة «تاننبرج» وتلتها موقعة البحيرات المازورية التى تلاشت فيها قوات كبيرة من القوى الروسية تلاشيا تاما، وبذا انحسرت اللجة الطاغية عن حدود بروسيا .

وقد حاول الجيش النمساوى الهجوم فى جنوب هذا الميدان بجرأة كبيرة على الجيوش الروسية التى كانت تفوقه عددا، واشتبك معها فى وقائع متناهية فى الشدة

على التخوم الفاصلة بين البلدين، إلا أن هذا الهجوم أوقف، وارتد الجيش النمساوى الى كراكاو، وبرزميسل، ولمبرج، وأصبح تحت طائلة الخطر، فنقل مركز الأعمال الحربية الألمـانية الى سيليزيا، واشـتركت القوات الألمـانية والنمساوية فى الهجوم على بولندا لإيقاف زحف الروسيين على أراضى النمسا، إلا أن تفوق الروسيين تفوقا هائلا فى العــدد، وعدم خضــوع جيوش النمسا وألمـانيا لارادة ومشيئة واحدة، أرغمهم على التراجع بعد أن أطبقوا على وارســو فى أواخر أكتوبر . وفى شهر نوفمبر نظمت الوحدات الألمـانية والنمساوية للقيام بعمل حاسم ضدّ القوة السلافية الهائلة التى أخذت تحـدر على النمسا وألمـانيا من جديد، فاشـتبك الطرفان فى الملاحم المعــروفة الآن بمعــركة لودز" وهو صراع هائل يتمثـل فى الهجوم والدفاع، فى الالتفاف، والتهدّد بالالتفاف، وفى الاختراق وفى التهدّد بالاختراق، وهو منظر بوحشيته المفزعة يفوق منظر سائر الوقائع التى حدثت الى هذا العهــد فى الميدان " وقد كان مجيء فصــل الشتاء باعثا على شل نشاط الخصمين اذ كان الجليــد والثلج يغطيان ساحة المعركة .

وهكذا استطاعت جنود ألمـانيا والنمسا أن تنقذ وطنها من غير أن تحرز نصرا قاطعا، وما الأســباب التى استوجبت عدم الحصول على فوز حاسم إلا نضــوب موارد قوتها هنــاك، اذ كان الجزء الأعظم من الجيش الألمـانى فى الجهــة الغربية حيث كان يتطلب الفصل فى الحرب .

فى البــحار — أما فى البحار فقد أسرعت القوات البريطانية فى هذا الدور الأوّل بحصار سواحل الأعداء، فحذت ألمـانيا حذوها وأخذت الطرّادات الألمـانية لاسيما الطرّاد أمــدن تنزل بالمراكب التجارية الانجليزية خسائر فادحة، واشتبكت فرقة من السفن الحربية الانجليزية مع أخرى ألمـانية على سواحل شـيلى فى نوفمبر ســنة ١٩١٤ فتحطمت الأولى . غير أن السفن الألمـانيــة ما لبثت أن تحطمت أيضا عند جزائر فوكلاند فى ديسمبر سنة ١٩١٤

الدور الثانى : الميدان الغربى — استمرت حرب الخنادق أكثر من ثلاث سنوات لاقى فيها المتحاربون من أهوال الطبيعة، ووطأة الحرب مالم يخطر على قلب بشر، فالمعركة التى كانت فيما مضى تلبث ساعات، تحولت الى صراع فظيع يستغرق عدّة أشهر، حتى خيل الى الناس أن الصلابة البشرية أصبحت لاحدّ لها. غير أن الفريقين أخفقا مع ذلك فى القيام بعمل حاسم، وكانت أهم أدوار الصراع فى أربعة مواضع :

(١) ايبر التى كان يرابط فيها البريطانيون للدفاع من موانئ المانش .

(٢) ريمس، وفردان . وكان يعسكر فيها الفرنسيون للدفاع عن باريس .

(٣) منطقة السوم . وكان يقتسمها الفرنسيون والبريطانيون .

(٤) اراس، وكمبراى . وكان يحرسها البريطانيون أيضا . وهاك أهم معارك هذا الدور العنيف :

على أثر معركة المارن قام الألمانيون بهجمات شديدة فى ساحة ايبر من أكتوبر الى نوفمبر سنة ١٩١٤ ثم فى أبريل سنة ١٩١٥ وفى هذا الهجوم الأخير استعمل الألمانيون أوّل مرة غازاتهم السامة، فانثنت الخطوط الانجليزية بتأثير المطارق الألمانية القوية، إلا أن الألمان لم يصلوا الى غرضهم فى النهاية، وانقضى صيف هذا العام من غير حادث يذكر فى هذه الساحة . وفى أواخر سبتمبر انقض الحلفاء على الخطوط الألمانية فى اتجاه شمبانيا ولكنهم ردّوا على أعقابهم بخسائر كبيرة .

وفى مستهل العام التالى ١٩١٦ تحوّل الهجوم الألمانى الى فردان بقيادة ولىّ العهد لفتح طريق الجنوب وطريق الغرب نحو باريس . إلا أن الضحايا الهائلة التى بذلها الألمان عبثا أظهرت خطأ المجازفة فى الهجوم على حصون خالدة كحصون فردان فأبطل الهجوم . غير أن الفرنسيين قاموا فى أكتوبر بكرة حادّة على شاطئ الميز الأيمن ففقد الألمانيون ما اكتسبوه أمام فردان، وأسدل الستارة على هذه المجزرة البشرية العظيمة فى ديسمبر .

و بينما كانت معركة فردان فى أشــدّ أدوارها قام الحلفاء فى صيف ذلك العــام بهجوم عام على منطقة السوم بقوّات عظيمة من الرجال والمواد الحربيــة، وتمكنوا فى صراع حادّ دام خمسة أشهر من إرجاع خطوط الألمــانيين الى الوراء عشرة كيلو مترات على خط يبلغ امتداده ٤٠ كيلومترا وهى نتيجة صغيرة بجانب ما تقاضــته من آلاف الأرواح البشرية . ولم يهدأ الصراع فى منطقة السوم إلا بهطول الأمطار التى تعذر معها السير . فتنفس الخصمان من هول هــذه المعركة التى تخطت أهوال فردان .

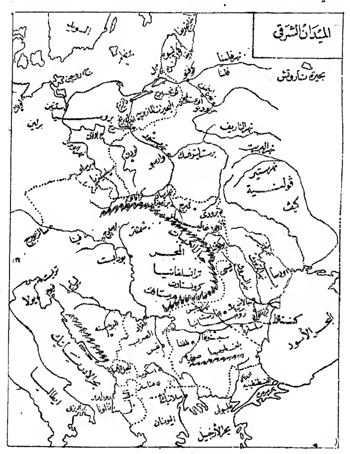
غير أن هــذه الثغرة التى انفرجت فى خطوط الألمــانيين أوجدت المعســكر الألمــانى الأكبر فى مأزق حرج، فقد عرض الجيش لخطر التطويق، فصح العزم على التراجع بالخطوط الى وتر القوس المحدّد بأراس، وسان كنتان، وسواسون، وقد تم ذلك فى مارس سنة ١٩١٧، واشتهر الموقف الجديد باسم موقف سيجفر بيد .

التزمت ألمــانيا بعــد ذلك خطة الدفاع فى الميدان الغربى، إذ كانت رومانيا قد انضمت الى الحلفاء فى أواخر سنة ١٩١٦ واحتاج الأمر الى استخدام وحدات ألمــانيا قوية ضدّها .

إلا أن الحلفاء أثاروا عاصفة قوية فى خطوط أراس الانجليزية يوم ٩ أبريل فابتدأوا بتمهيــد هائل بمجموعات من المدفعية الضخمة ومن مدافع الخنادق، حتى اذا تزعزعت نقط الدفاع الألمــانية بدرجة شديدة، اخترق الانجليز الخطوط الأولى والثانية والثالثــة . غير أنهم لم يســتطيعوا الانتفاع بالفوز الذى تيسر لهم . وتغلب الألمــانيون على الأزمة فى نهاية الأمر .

وفى المنطقة الممتدّة من سواسون الى ريمس اشتدّ إطلاق المدافع الفرنسية مدّة الأسبوع الأوّل من أبريل حتى تحوّلت منطقة الدفاع الى أطلال، ثم اندفعت الجنود الى الأمام فى ١٦ أبريل بقيادة « نيفيل » بطل فردان، وظلت المعارك متواصلة عدّة أسابيع، وأخيرا سقط المهاجمون إعياء من هول الحرب .

وفى ٧ يونيه أى فى وقت تحقق فشل الهجومين السالفين، زلزلت الأرض تحت الخطوط الدفاعية الألمانية على انجاد ويتشائيت ومسين فى الشمال الغربى من ليل، وذلك بقوة ألغام انجليزية شديدة الوقع، فتداعت أركان النقط الارتكازية الأساسية، وفى وسط الدخان انقضت الجنود الانجليزية على بقايا المدافعين، فكانت خسائر الألمانيين من الرجال ومعدّات القتال جسيمة . وكان الغرض من هذه المباغتة تقليل النتوء البارز فى هذه المنطقة تمهيدا لهجوم عظيم فى منقطة الفلاندر حيث كان مركز الغوّاصات التى كانت تهدّد الحلفاء بخطر جسيم . فلما تم الأمر، بدأ الانجليز فى أواخر يوليه معركة هائلة فى هذه المنطقة — منطقة فلاندر — فأحدثت



أزمة عظيمة لدى الألمـانيين كما وقع فى هجوم السوم المـاضى ، ولم ينقذهم منها إلا مياه السيول التى ملأت الحفر التى أحدثتها القنابل .وقد خفت وطأة هذه المواقع الدموية الهائلة فى أكتوبر دون الوصول الى نتائج حاسمة، على الرغم من فداحة الخسائر من الجانبين .

وعند اقتراب هذه المعركة من الانتهاء،قام الانجليز فجأة بهجوم عظيم فى كامبريه فى ٢٠ نوفمبر، واستطاعوا بفضل دباباتهم (التانكس : وهى عبارة عن أبراج مصفحة تستطيع اجتياز الحفرات والخنادق) وخيالتهم من اجتياز الخطوط الدفاعية بأكملها. ولم ينقذ الألمـانيين من هذه الكارثة إلا كرة دفاعية أجلت العدو عن كل المواقع التى اكتسبها تقريبا . أما القيادة الفرنسية فقـد اقتصرت على توجيه حملات محلية قريبا من فردان ولاون، وذلك نتيجة للخسائر التى رزئت بها فى الربيع المـاضى .

الميدان الشرقى — فى فاتحة عام ١٩١٥ قرّر الألمـان القيام بعمل حاسم لأسباب عسكرية وبواعث سياسية أيضا ، فان تراجع الجيوش النمساوية أمام الروسيين فى العام المـاضى زعزع قوّة الحكومة الداخلية ، ومن جهة أخرى بدأت النمسا تشعر بالخطر الذى يهدّدها من جانب إيطاليا . فبدأ العام بسلسلة وقائع كان الغرض منها سحق القوّات الروسية المحتشدة على حدود النمسا وحدود بروسيا الشرقية، ففى ١٢ فبراير بدأت الأعمال الحربيـة التى أصابت الجيش العاشر الروسى فى جهة «أوغستوفو» بما أصيب به الجيش الفرنسى فى سيدان، إذ تمت حركة التفاف واسعة حول هذا الجيش، وانقض عليه الألمـانيون فى موقعة بالغة منتهى الهول، فخرجوا منها بأكثر من مائة ألف أسير، وكان قتلى الروسيين أعظم من عدد الأسرى بكثير. وقد أجابت الروسيا على هذا النصر الباهر بحركة هجوم عند حدود بروسيا القديمة ، فأرسلت قوّات ذات كثافة هائلة، ولكنها كانت تسحق على عجل . وأخذت أنهار الدماء الروسية تجرى الى مستهل الربيع فى الوقائع الناشبة فى شمال الناريف وفى غرب النيمن، على أن ألمـانيا لم تجن الثمرة التى كانت تتوقعها، فان قوّات روسية جديدة كانت تحل محل القوّات المنحلة فى أقرب وقت .

وفى أثناء ذلك حاول الروسيون فى الجنوب أن يقتحموا جبال الكربات مهما كلفهم ذلك من الضحايا ، على زعم أن اندفاع اللجة الروسية فى بلاد المجر يضع حدا فاصلا للحرب . فقررت القيادة الألمانية إخفاق هذا الهجوم بالقيام بحركة التفاف من شمال غاليسيا ومن المنعطفات الكبرى من نهر الفيستول فى اتجاه كوفنو. فاضطر الروسيون الى التراجع على سائر خطوطهم آخذين فى التخلص من حركة التطويق التى تهددهم ، ولم يحجموا عن التخلى عن كل شىء حتى « وارسو » فى سبيل التمكن من إنقاذ السواد الأكبر من قواهم ، وهكذا أفلت الدب الروسى من الشباك التى كان يراد اقتناصه بها . واذا كانت دماؤه قد سالت من أكثر من جرح واحد فان الطعنات التى أصابته لم تكن قاتلة ، فالخسائر التى منى بها الروسيون بلغت من الجسامة مبلغا يجعل الألمانيين يطمئنون مدّة طويلة ، إلا أن الروسيين أخذوا يجهزون فى فترة الشتاء طوفانا هائلا من الجنود فى جهة بحيرة ناروتش ، وفى يوم ١٨ مارس سنة ١٩١٦ أطلقوا النيران على الخطوط الألمانية الشمالية بمدفعية لم ير لها الميدان الشرقى مثيلا من قبل . ثم اندفعت القوّات الروسية كمدّ من الأمواج لا نهاية له ، فقابلهم الألمانيون بنيران مهلكة ، واشتدّ ذوبان الجليد فتحوّلت ساحة القتال الى برك ومستنقعات ، واضطر الروسيون الى تعطيل الحركات الحربية .

وفى شهر يونيه انتقل الهجوم الى جنوب البربيت فتداعت الخطوط النمساوية فى فولهينا ، وبوكوفينا بتأثير الهجمات الروسية التى بلغت قمم الجبال فى جنوب الكربات . وقد كانت هذه الأزمة أعظم خطرا من سنة ١٩١٤ لأنه لم يكن فى هذه المرة قوات احتياطية ألمانية كبيرة مستعدّة للتوسط لتلافى الحالة ، إذ استعر الهجوم الروسى بشدّة هائلة على طول الميدان الشرقى ، بينما كان الكفاح فى الجبهة الغربية مستعرا حول فردان وفى السوم . كما أن الهجوم النمساوى الذى وقع بعد إعلان ايطاليا الحرب فى مايو سنة ١٩١٥ على أثر تداعى الخطوط فى غاليسيا خفت وطأته فى التيرول ، فانتقل الايطاليون الى خطة الهجوم على الايسونزو ،

ثم جاءت حوادث البلقان فزادت الحالة سوءا ، فان رومانيا أخذت تتهيأ للانضمام الى جانب الحلفاء مدفوعة بتأثير هذه الانتصارات، وعبثا حاول الألمــانيون تلافى هذه الأزمة فقد اتفقوا مع البلغار على ضرب الحلفاء المعسكرين فى سلانيك لارهاب رومانيا ومنعها من دخول الحرب، إلا أن الجيش البلغارى أخفق فى مهمته، فقررت رومانيا على الأثر إعلان الحرب فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٦ وأصبح الموقف ينذر بضرب دول الوسط ضربة قاضية .

إزاء هذا الخطر العظيم ، قررت دول التحالف الرباعى إيجاد هيئة قيادة عليا مسئولة للنظر فى المسائل العسكرية العامة، وعهــدت برياستها الى الجنرال هندنبرج وزميله القائد لودندورف . وكان أهم ما اتجهت اليه هذه القيادة إرسال حملة الى رومانيا.

حمـــلة رومانيا — استغرقت هجمات الشرق والغرب كل قوى دول التحالف الاحتياطية، فأصبحت هذه الدول فى موقف خطير عند ما أشهرت رومانيا الحرب سنة ١٩١٦ ، غير أن القيــادة العليا لدول التحالف تمكنت من حشد قوات كافية لمفاجأة العــدو على خطوط ترانسلفانيا ، ودوبريجه ، وعهــدت بالجيش الأوّل الى ماكنزن الذى تقدّم على خط كونستنزا — كرنافورا وعبثا حاولت رومانيا أن تنقض على مؤخرته باجتياز الطونة فى جهــة راسكول يوم ٢ أكتوبر فقــد أطبق ماكنزن على هــذه الجنود حتى أسر أكثرها . هــذا بينما كان القائد فالكنهاين يضرب الرومانيين ضربات شــديدة فى هرمانستاد وفى كرونستاد حتى أجلاهم عن ترنسلفانيا . ثم حوّل الهجوم الى مجاز زوردق فدخل الأراضى الرومانية فى ١١ نوفمبر. وكان ماكنزن قد تأهب للاتصال بحملة الشمال ، فهزم الجيش الرومانى هزيمة تامة جنوبى السكة الحديدية واستولى على كونســتنزا وأجبر جيوش الأعداء على التراجع نحو الشمال، ثم نقـــل القوة الكبرى الى سيستوف ومنها عبر الطونة فى ٢٢ نوفمبر وتم اتصاله بالقائد فالكنهاين فى معركة "أرجيش" حيث سحقت القوى الرومانيــة

الكبرى ، وتوجت هـذه الأعمال بسقوط بخارست فى ديسـمبر ، وتقهقر فلول القوات الرومانية الى ملدافيا .

وقد حاولت قوات الحلفاء فى سلانيك بقيادة الجنرال سراى أن تساعد رومانيا بالوثوب على البلغاريين فى اتجـاه موناستير ، ولكنها لاقت صلابة كبرى ففشلت فى مهمتها . أما الروسيون فقد تابعوا الكرة فى غاليسيا والكربات بدل مساعدة حليفتهم مباشرة مساعدة فعلية ، غير أن هجماتهم أوقفت فى الكربات بعد أن عرّضوا أعداءهم لأزمات خطيرة .

ثورة روسيا وظهور البلشفية — وفى صيف العام التالى (سنة ١٩١٧) فاجأت العالم أنباء نشوب الثورة فى الروسيا وانهيار بناء القيصرية . وقد كان غرض القائمين بالثورة إزالة رغبة الصلح التى استولت على كافة الأوساط الروسية ، إلا أن النتيجة كانت انحلال القوات الروسية انحلالا مهد الطريق لألمـانيا للقضاء عليها ، ومع ذلك لم تشأ هذه الدولة أن تتعرّض للحركة حتى لا تعيد شأن معركة فالمى التى جمعت قوى فرنسا المبعثرة ، وكوّنت منها نواة الجيش الذى دوّخ أوربة فيما بعد . لكن الحلفاء أدركوا ما يصيبهم من انهيار الروسيا ، فعملوا جهد استطاعتهم لابقائها فى الميدان حتى تصل الجيوش الأمريكية الجديدة الى فرنسا ، فأسندت القيادة العليا الى « كيرينسكى » الذى طفق يعمل لإعادة النظام والطاعة فى الجيش ، ثم أخذ فى مهاجمـة الخطوط الألمـانية النمساوية فى أقصى شمال وجنوب الجبهة الشرقية ، فانتصر بعض الشىء على الرغم من الفوضى الناشبة . بيد أن القيادة الألمـانية العليا استطاعت بفضل الهدوء السائد فى الجبهة الغربية أن تصدّ هذا الهجوم بآخر قريبا من "أثرانوبل" فى الجنوب الشرقى فى ١٩ يوليـه فمزقت قوات الروسيين ، وخلصت الأراضى النمساوية الألمـانية من تسلط العدوّ عليها . وقد كان فى العزم النزول من بكوفينا ووادى السرث الى ملدافيا للقضاء على البقية الباقية من الجنود الرومانية ، ولكن هذه الحملة كانت تحتاج الى قوات كبيرة ، بينما كانت الحالة فى ايطاليا تستدعى العلاج السريع ، وكذلك كان الاستيلاء

على منطقة ريغا فى الشمال ذا أهمية عسكرية وسياسية لتعجيل انحلال الروسيا، فوجهت اليها حملة بحرية استولت على جزيرة أو يسيل فى أكتوبر، وفتحت الطريق المؤدّى الى بتروغراد. وحينئذ اشتدّ الاضطراب فى العاصمة واختل سير الأعمال، بينما كانت عوامل التدمير فى الداخل [1] أشـدّ فتكا من عوامل الأعداء فى الخارج، فان الثـورة السـياسية التى تمت على يد الطبقة المتوسطة وزعيمها كيرنسكى قد تحوّلت الى ثورة كومونية هائلة على يد لنين وتروتسكى البلشفيين اللذين كانا يدعوان الى شيوع الملكية ويذهبان الى أن الوطنية والقوميـة آراء فاسدة، وأن الدوليـة العامة يجب أن تحل محل القوميـة الخاصة، وأن الحرب بين الشـعوب جرم لا يغتفر، فتعاقد البلشفيون والألمـان على الهدنة فى ديسمبر سنة ١٩١٧ وظلت المفاوضات مستمرّة فى بريست ليتوفسك الى مارس سنة ١٩١٨ حين أمضيت شروط الصلح التى نصت على اعتراف الروسيا باستقلال فنلندا، والأوكرين، والتخلى عن ساحل البلطيق،

---

(١) قال أرنست دراهن فى كتابه عن ألمـانيا الثورية مدّة الحرب العالمية: "بعد أن عينت روسيا وزارة من أهل الطبقة المتوسطة فى ربيع سنة ١٩١٧ وظهر أن هذه الوزارة الجديدة لا تميل الى مصلحة ألمـانيا رحبنا بنصيحة رجل كان من البلشفيين ثم زاول التجارة فى مدّة الحرب ومؤدّاها أن نرسل الى الروسيا فئة من البلشفيين الذى كانوا يقيمون فى سويسرا".

وكتب البرخت ورث فى تاريخ الأمبراطورية الروسية: "أن كيرينسكى أبدى أنه وطنى متحمس فأحيا الروح العسكرية التى كادت تستنيم بتأثير الحلفاء. ولذا جمع الكونت بروكدروف ونتزوسفيرنا فى كوبنهاغ زمرة من كل صنف من الناس وجعل يوقد الثورة فى روسيا جهارا على يد (بارفوس هلفنت) وهو يهودى شرقى داهية كان يجول فى نفسه أن يقضى على الثورة الروسية بفوضوية لاتبق ولا تذر. وبناء على هـذه الخطة ألح فى أن يرسل لنين وتروتسكى الى روسيا لكى يمهدا طريق البلشفية فيها".

وقد كتب الجنرال لودندورف يؤيد هذه النبذات، فقال: إن الثورة شبت فى روسيا فى مارس تحت رعاية الحلفاء وعلى الخصوص السفير الانجليزى بوكان لخلع القيصر حلفاؤه أنفسهم حين اكتشفوا أنه كان يبتغى صلحا منفردا وما كادت الحكومة الجديدة تتسلم الأمور حتى حاولت الاستمرار فى الحرب الى النهاية.

وقد كان من مصلحة ألمـانيا حينئذ أن تحبط الروسيا حبوطا تاما لأن الحلفاء كانوا يتوقعون نجدة من أمريكا. فتقرر إرسال لنين ليعجل الثورة الروسية ويقوّى النزعة السلمية التى بدأت تسرى فى الروسيا برمتها، وليس هذا بغريب فكما قال بسمارك، فى الجهاد الذى لا نتيجة له إلا أحد أمرين: الحياة أو الموت، يقبض الناس على أى سلاح يصل الى أيديهم ولا يبالون بما يدمرونه بهذا السلاح، إذ لا يبقى لهم من غرض إلا النصر والحرص على استقلالهم. وإنما يبق للسلم أو الصلح أن يعمر ماتدمر ويصلح ماتخرب «عن مجلة الهلال».

و بولندة ، و باطوم ، وقارص لدول التحالف كما نصت على حل الجيش والأسطول .
وكان خروج روسـيا من الحرب داعيا الى خروج رومانيا بالمثـل بمقتضى معاهدة بخارست (مارس سنة ١٩١٨) ، وهى تقضى بالنزول عن الدوبرجة ، وتعديل حدود المجر ، وحل الجيش ، وتسليم كميات كبيرة من الحبوب والزيوت ، و إطلاق حرية الملاحة فى الطونة .

الميدان الايطالى — دخلت ايطاليا الحرب فى مايو سنة ١٩١٥ وأسرعت بمهاجمة النمساويين على خطوط الإيسونزو من غير نجاح يذكر ، وفى ربيع سنة ١٩١٦ بدأت النمسا بمهاجمـة التيرول الجنوبيـة غير أن وطأة الهجوم خفت على أثر تداعى خطوط غاليسيا ، فانتقل الايطاليون الى خطة الهجوم على خطوط الايسونزو من جديد ، واستولوا على جوريزيا فى أغسطس سنة ١٩١٦ فأصبحت المملكة النمساوية فى أحرج المواقف ، لاسيمـا وأن العناصر السلافية التى حاربت بحماسة وعزم على خطوط الايسونزو (خلافا لمـا فعلته فى غاليسيا) أخذت تظهر روح التمرّد ، لمـا ارتدت القوّات النمساوية الى خطوطها الأخيرة ، فصح العزم على القيام بحمـلة مشتركة من الحلفاء ضـدّ ايطاليا ، وبدأ الهجوم من تولمينو يوم ٢٤ أكتوبر فى اتجـاه يودين وكيفيديل فانجلت القوّات الايطاليـة عن خطوطها ، وارتدت من موقع الى موقع بخسائر فادحة حتى نهر البياف ، وهناك ثبتت بمعونة الفـرق الفرنسية الانجليزية التى أسرعت لانجادها على عجل ، ولو كانـــ لدى دول الوسط قوّات متوفرة إذ ذاك (راجع الحالة فى الميدان الغربى) لحل بايطاليا ماحل برومانيا من قبل .

الميدان العثمانى — كان لهـذا الميدان أهمية خاصـة ، فان بلاد العثمانيين وخصوصا البوغازين كانت تفصل الحلفاء عن روسيا وتمنعهم من إمدادها بالذخائر التى كانت فى أعظم حاجة اليها ، فوجهت فى بادئ الأمر قوّات عظيمة من الأسطول البريطانى لاختراق البوغازين فى فبراير سنة ١٩١٥ ، ولكنها فشلت . ولذا عززت القوّات البحرية بقوّات برية أنزلت فى غاليبولى لتتعاون القوّتان على إخضاع الأتراك

وفتح طريق الروسيا . ولكن هذه الحملة الجديدة التى كانت تتكوّن فى الغالب من جنود أسترالية ونيوزلندية لاقت صلابة وشـدّة من الأتراك أذهلت الأصدقاء كما أذهلت الأعداء . هـذا الى أن القيادة الألمـانية العليا قررت القيام بغزو الصرب والجبل الأسود وفتح الطريق الى تركيا لإمدادها مباشرة بالمـال والرجال والذخائر ، وقد تم لهـا الأمر فى ديسمبر سنة ١٩١٥ بمساعدة بلغاريا ، فاضطرّت بريطانيا الى الانسحاب من غاليبولى فى أوائل سـنة ١٩١٦ بعـد أن تكبدت خسائر فادحة ، واقتصرت على ترك قوّات من الحلفاء فى سلانيك لمراقبة البلقان . غير أن الروسيين بقيادة الأرشـيدوق نقولا عوّلوا على الاتصـال بالحلفاء بطريق الشرق ، فاخترقوا القوقاز الى أرمينيا فى فبراير سنة ١٩١٦ واستولوا على المواقع الحصينة فى أرضروم ، وطرابزون ، ولكنهم فى النهـاية أجبروا على الارتداد نظرا لحزونة الأرض وصعوبة التموين .

حملة العراق — بعد أن فشل البريطانيون فى فتح طريق الروسيا ، وطدوا العزم على فتح أملاك السلطنة العثمانية فى الشرق ، ففى خريف سنة ١٩١٥ خرجت قوّات بريطانية من الهند لغزو العراق ، فتقدّم الجنرال تونشند على الدجلة واستولى على كوت العمارة وكادت بغـداد تسقط فى يده ، إلا أن الأتراك استجمعوا قوّاتهم وحملوا على البريطانيـين فردّوهم على أعقابهم ، وحاصروا الجنرال تونشـند فى كوت حتى اضطرّ أن يسلم اليهم فى أبريل سـنة ١٩١٦ ؛ غير أنه فى السنة التالية تقدّمت قوّات بريطانيـة جديدة بقيادة الجنرال «مود» على الطريق القـديم فاستولت على كوت واحتلت بغـداد فى مارس سـنة ١٩١٧ ، واستردّ البريطانيون مركزهم المزعزع فى الشرق .

حملة فلسطين — أما فى جنوب فلسطين فقد حاول الأتراك الخروج منها لغزو مصر من غير أن يعدّوا لها العدّة الكافية ، فارتدّوا على ضفة القنال من غير أن يصيبوا غايتهم (أغسطس سنة ١٩١٦) وتحوّل دفاع البريطانيين الى مهاجمة الأتراك

فى بلادهم (يناير سنة ١٩١٧) بعد أن أتموا الخط الحديدى الذى أعدّ لإمداد قواتهم الزاحفة على فلسطين، ومدّوا أنابيب المياه العذب فى صحراء سينا . إلا أن هجومهم فشــل أمام غزة «لأن حملتهم كانت مقصــورة على التعرّض للجبهة وخالية من الفن الحربى» . وحينئذ أسندت القيادة الى الجنرال أللنبى فى خريف ذلك العام، وعلى يديه تم فتح هذه البلاد نظرا لتشتت قوى الترك وتفوّق القوات البريطانية فى العدّة والعدد، فسقطت بئر سبع فى أكتوبر و بيت المقدس فى ديسمبر . و بذا أصيبت السياسة التركية بنكبة أدبية خطيرة، ولا ريب أن نقص وسائل النقل فى هذا الميدان وفى ميدان العراق وسوء حالة التموين وعجز المحصول ومعاداة العرب للحكومة تعدّ من أعظم عوامل هذا الانخذال .

الحرب البحرية والغارات الهوائية — أسرعت انجلترا على أثر إعلان الحرب باتخاذ قرارات صارمة لعزل ألمــانيا عن بقية العالم ، ففى ٢٠ أغسطس و ٢٩ أكتوبر سنة ١٩١٤ صدرت قرارات المجلس بايقاف التجارة الألمــانية مهما كان نوعها ومهما كان مصدرها . وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا أيضا أن بحر الشمال يعــدّ منطقة حربيــة وأن كافة المراكب التجارية يجب أن تسير بطريق المــانش وفى خط معين فى بحر الشمال حتى تحكم المراقبة . أما ألمــانيا فقد استخدمت من بادئ الأمر عدّة طرّادات وأخصها الطــرّاد امدن لإغراق المراكب التجارية الانجليزية فى عرض البحار، ولكن عملها هذا لم يؤثر كثيرا فى سيادة الانجليز البحرية ، فعادت وأعلنت فى ٤ فبراير ســنة ١٩١٥ أن المياه الانجليزية تعتبر منطقة حربيــة ، واستخدمت عددا من الغوّاصات لإغراق مراكب الأعداء، فأجابت انجلترا على هذا الإعلان بقرار ١١ مارس سنة ١٩١٥ الذى حرّمت فيه تجارة المحايدين مع ألمــانيا . وحدث أن أغرقت ألمــانيا الباخرة لوزيتانيا التى كانت تقل أكثر من ألف مسافر فتحرّك الرأى العام فى العالم ضدّها حتى اضطرّت أن توقف عمل غوّاصاتها قليلا ، ولكنها عادت الى العمل من نوفمبر سنة ١٩١٥ الى فبراير سنة ١٩١٦ وحينئذ أغرقت الباخرة ساكس وكان هذا حادثا مفجعا لا يقــل عن حادث لوزيتانيا فأعلنت

ألمـانيا عزمها على أن تقرّر عملها البحرى حسب القوانين المعمول بها ؛ على الرغم من أن سلاح الغوّاصات كان يستدعى فى الواقع قوانين جديدة كما اعترفت أمريكا بذلك فى مذكرة ٥ مارس سنة ١٩١٥ لانجلترا .

وفى أثنـاء ذلك عمد الألمـان الى مهاجمة عواصم انجلترا بالطيارات ، وضرب البـلاد البحرية بالقنابل ، فقتـلوا عددا كبيرا من الأهالى ، وخربوا كثيرا من الدور والمساكن ، غير أن هذا كله لم يحقـق الآمال ، فتقرّر خروج الأسـطول الألمـانى لمقاتلة الأسطول الانجليزى قتالا قد يكون حاسما للحرب .

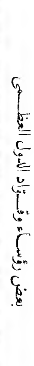
معركة جتلند — وفى أوّل يوليه عام ١٩١٦ خرج الأسطول الألمـانى من موانيه ولاقى القوّات البريطانية الأمامية تحت قيادة الأميرال بيتى ، فاشتبك الفريقان فى الموقعة الشهيرة باسم جتلنـد ، وخسرا خسارة كبرى . ولمـا أسرع الأسـطول البريطانى الأعظم بقيادة الأميرال جليكو الى مكان الموقعة ارتدّ الألمـانيون الى موانيهم وعوّلوا على إعادة استخدام سلاح الغوّاصات ضدّ مراكب الأعداء والمحايدين على السواء داخل المنطقة الحربية . ولتبرير هذه السياسة يقول الجنرال هندنبرج : "إنه أصبح من اللازم إزاء سياسة الحلفاء التى ترمى الى إجاعة ٧٠ مليونا من الكائنات البشرية ، اتخاذ وسائل ممـاثلة لتقليل آلام شـعبنا ، وللتخفيف عن جيشنا الذى يقوم بمهمة من أقسى المهام . ففى هذه المصارعة التى لا أثر للرحمة فيها إنمـا توجد شريعة واحدة قابلة للتنفيذ ، وهى العين بالعين والسنّ بالسنّ ، وكل ما عداها ليس سوى تفريطا فى دمائنا . نعم ، إنه كان من الواجب مراعاة الاعتـدال حتى لا يتعرّض الشعب لأخطار وأرزاء أعظم مما يراد إنقاذه منها ، إلا أن الفائدة الحربية أصبحت فى النهاية تكاد تمس باليد ، فاننا لو توصلنا الى وضع حدّ لصنع المواد الحربية لدى الأعداء ونقلها بطريق البحر ، لأصبحت الحالة على جانب عظيم من السهولة ، ولو عرقلت الأعمال العسـكرية فيما وراء البحار ، فان ذلك يخفف العمـل على الدول المتحالفة جميعا ، ولو تمكنت الغوّاصات أيضا من إحراج بلاد الحلفاء فى نقل المواد

الغذائيـة وعرقلة تجارتها في العـالم لأرغموا في النهـاية على الصلح ، لذلك كانت الغواصات في هذا الوقت أعظم وسيلة حربية لإحداث عمل حاسم في مجرى الحرب ، بعد أن أخفقت المساعى فى ختام سنة ١٩١٦ لحمل دول الحلفاء على قبول الصلح ، بل لقد كانت فى فاتحة سـنة ١٩١٧ المصدر الوحيد لإنهـاء الحرب . ولذا تقـرر فى ٩ يناير سنة ١٩١٧ أثر انتهاء مشاغل الحملة الرومانية وتوفر الوسائل التى تحول دون انضمام الدول المحايدة المجاورة الى صفوف الأعداء ابتداء حرب الغواصات بلا قيد ". إلا أن الحلفاء أحكموا مراقبة البحار واستطاعوا نقل الجنود الامريكية ومعداتهـم قبل أن تستطيع الغواصات القيام بعمل حاسم فى الحرب كما سنرى .

(٣) الدور الثالث : الحالة الأدبية — إن تكوين الرأى العام وتأثيره فى سـير الحوادث هو بلا ريب من أعظم مظاهر هـذا القرن ، ولذا كان استقصاء الحالة الأدبية للشعوب لا يقل فى أهميته عن استقصاء الحالة العسكرية .

ألمـانيـا — مما لاشك فيه أن تطور الحوادث الحربية لغير صالح ألمـانيا قد أحرج صدور الألمـانيين ، وقد ضاعفت هذه الحالة صعوبة التموين اليومى الذى نشأ عن الحصار وعجز المحصول وتتابع الدول فى الاشتراك فى صف الحلفاء مما أثبت انحطاط السياسة الخارجيـة الألمـانية . ثم إن مقتضيات الحرب الهائلة أوجبت سن قانون الخدمة الإضافية الوطنية والبرنامج المسمى « برنامج هندنبرج » وكان يقضى بوضع الامة بأسرها تحت تصرف الحكومة للقيام بالأعمال التى تتطلبها المسألة الكبرى ، وكان يظن أن قبول القانون سيكون مظهراً جديداً من مظاهر إرادة الشعب ، إلا أنه أحدث على العكس جزعا ورعبا فى النفوس ، فنشأ عن هذا الضيق العام تأليف أحزاب قوية لمصارعة الحكومة الامبراطورية " لأن الشعب مهما كان حاصلا على قوى أدبية عظيمة لا يستطيع الثبات الى مالا نهاية إزاء مايصادفه من النقص العظيم فى مطالب الحياة ، فوجد ذوو الأفكار المهيجة من حالة الشعب السيئة أرضا صالحة لبذر بذور الثورة السياسية والاجتماعية بين الأهالى والجيش معا " . وكان

الحلفاء يزيدون فى إتلاف الحالة الأدبيـــة أيضا فلم يقتصروا على الحصار البحرى بل لجأوا الى مايسمونه ترويج الدعوة لدى العدوّ، فأمطروا أعداءهم نشرات كان الغرض منها تسميم الخصم أدبيا ودعوته الى الثورة ضدّ الحكام . قال بسمارك : "إن انجلترا لا تتردّد فى حالة الحرب فى تحريك عوامل الثورة فى بلاد أعدائهــا" . وهو بذلك يشير الى خطاب كاننج فى ١٣ ديسمبر ســنة ١٨٢٦ فى مجلس النوّاب حين قال : "إن هذه البلاد اذا اشتركت فى حرب ما لا تتأخر عن استخدام كل عوامل الفوضى والاضطراب فى بلاد أعدائها لمصلحتها" فمنذ بدأت الحرب أسرعت انجلترا وحلفاؤها الى مصارعة خصومهم أدبيا كما صارعتهم ماديا، فكانوا يمطرونهم وابلا من النشرات التى يشيرون فيها تارة الى استبداد العسكرية البروســية ، وطورا الى انعــدام الروح الديموقراطية فى ألمــانيا واستبداد القيصر وحاشيته، وكانوا يردّدون عبارات اليأس من الوصول الى نصر نهائى ، ويشيرون الى رغبة الحلفاء فى صلح عادل مبنى على التفاهم واحترام حقوق الشعوب فى حين أن حكام ألمــانيا يعرقلون مساعى السلم ، لرغبتهم فى استعباد الشعوب وسيادة العالم . ولمــا نشبت الثورة الروسية، أخذت الدعوة ترمى الى ثورة اجتماعية أيضا، على زعم أن الحرب تستعر لمصلحة «الرأسماليين» على حساب العمال الفقراء الخ . أما فى بلاد حلفاء الألمــانيين فكانت الدعوة ترمى الى التفــرقة والانتقاض على حليفتهم الكبرى، و إثارة العناصر الأجنبية فيها بعبارات خلابة كحق تقرير المصير، حتى تنزع تلك العناصر الى خيانة حكامها فى هذه الأزمة الكبرى . فلما كانت سنة ١٩١٨ ، انغرست هذه الدعوة، بدهائها المدهش، ومهارتها الفائقة، فى نفوس الشعوب حتى تلاشت المقاومة، وازدادت الرغبة فى الصلح بأى ثمن اعتمادا على وعود الحلفاء فى صلح عادل "وانقسمت البلاد الى أحزاب تعمل لنصرة أغراضها قبل نصرة الوطن، وغاضت كل النزعات القومية ولم تبق إلا نزعة حب الذات" .
"ومن الغريب أن الحكومة الألمــانية وقفت أمام هذه الكارثة الكبرى موقف العاجز فلم تعمل لتربية الرأى العام فى بلادها و بلاد حلفائها على المقاومة والثبات، وتركت



بعض رؤساء وقواد الدول العظمى

ملك انكلترا — ملك ايطاليا — قيصر الروسيا — امبراطور المانيا — رئيس جمهورية فرنسا

هيج — هندنبرج — لودندورف — فوش

الشعوب من غير قيادة، فريسـة لأصحاب الأغراض القاتلة فى الداخل والخارج ، بل لم تعمل لمقابلة الدعوة بمثلها فى بلاد أعدائها وبلاد المحايدين" .

فبينما كان الحلفاء يعملون بكل وسائل النشر من صحافة وكتابة وصـور ورسوم لتحميلها مسؤولية الحرب وفظائع البلجيك وسوء معاملة أسرى الحرب وكل ضروب الفساد الاجتماعى والسياسى ، ويظهرون أنفسهم مظهر المجاهد لنصرة الديموقراطية ونصرة الشعوب ضدّ العسكرية الوحشية ، كانت ألمـانيا مقصرة عاجزة فى هذا الميدان . ولا ريب أن هـذا العجز مصـدره طبيعة الخلق الألمـانى الذى يأبى إلا مواجهة الحقائق ، كما أن مصـدره جهل الألمـانيين بالطبيعـة البشرية واعتمادهم على قواهم المـادّية ، وضعف التربية والتقاليد السياسية بينهم ضعفا مدهشا .

النمسـا — كان من نتيجة الفشل العسكرى والسياسى ونقص المواد الضرورية للمعيشـة تفاقم الحالة فى بلاد النمسا ، واضـطراب العناصر الأجنبية على الأخص . ولا ريب أن موت الأمبراطور فرانسوا جوزيف كان خسارة كبرى لأنــ فقده قضى على الرابطة التى كانت تجمع شعوب هذه الدولة . وقد حاول الامبراطور الجديد أن يعتاض عن النفوذ الشخصى بمنح يسديها لمجموع شـعبه ، إلا أن العناصر الأجنبية كانت تمنى من قبل الحلفاء بآمال أوسع ، فلم تتلق هذه المنح بالقبول . ولذا كانت رغبـة الشعب النمساوى عظيمة فى التعجيل بالصلح بعـد أن أصبح الأمل ضعيفا فى الوصول الى حل مرض .

تركـيا — كانت المتاعب التى تشكو منها النمسا من جراء العناصر الأجنبية تتكرر فى تركيا ولا سيما من العرب النازلين فى سوريا وغيرها . وقد تحرّجت الأحوال من انتشار المجاعة التى نشأت ، لا مـن جراء القحط ، بل من عدم توافر وسائل النقــل .

ولا يخفى أيضـا أنه كانت تصارع الجمعيـة الاتحادية المتسـلطة على الحكومة حينئذ ، أحزاب مختلفة ، من أجل أغراض سياسية ، فكانت تجيش تحت السكون

الظاهر عوامل تلك النزعات المختلفة، وكانت تظهر عيانا فى بعض الأحيان فى شكل محاولة يراد بها قلب الحكومة .

بلغـاريا — ساد الشقاء فى بلغاريا أيضا لعدم توافر المؤن وسوء الادارة، فان هذه البلاد لم تستطع فى عهد استقلالها أن تشيد حكومة على أساس وطيد الدعائم، فتعددت فيهـا الأحزاب التى لم تدخر وسعا فى الحمل على الحكومة وحلفائهـا حتى فى وقت الشدة والخطر .

الحلفـاء — كانت جوانح الفرنسيين تمتلئ حقـدا على الألمـان ، وكانت الحكومة تستحث الشعور الأدبى فى بلادها بغير هوادة، وتطأ بالأقدام كل رغبة ترتفع لإعادة السلام الى نصابه قبل الانتصـار ، وفى جانب ذلك كانت حاجيات المعيشة وأسباب الراحة توفر للبلاد .

وفى انجلترا تسلطت الحكومة على الرأى العام بقوة الصحافة وغيرها من أساليب نشر الدعوة، وكانت تفتح له أبوابا واسعة من العظمة السياسية والعظمة الاقتصادية وتدعوه الى الايمان بالحرب بجهاد مقدس فى سبيل الحرية والانسانية، وكانت اذا ألمت بالبلاد أزمة عظيمة وارتفعت أصوات الصلح كما رفعها لانسدون وغيره أطفئت سريعا بقوة تسلط الحكومة ومهارتها .

وفى ايطاليا كانت الحماسة الحربيـة معدومة ، إلا أن أطماعها الاستعمارية وارتباطها ارتباطا اقتصاديا عظيما بدول الحلفـاء أجبرها على البقاء فى صـفهم . أما فى أمريكا فقد كانت العاطفة السكسونية والمصلحة التجارية ، فضلا عن الصوت المنبعث لنصرة الانسانية وإعلاء منار الحرية فى العالم، يدفع أهلها الى العمل من غير فتور أو ملل . على أن الذى شجع هذه الدول حقيقة هو ما آنسته من الانحطاط الأدبى فى صـفوف أعدائها، فان رجال السياسة فى ألمـانيا لم يخفوا شيئا عن أعدائهم من مصائبهم الداخلية، فدلوا بذلك على أنه لم تتوافر لهم التربية السياسية الكاملة، التى يعتبر من أهم مظاهرها قدرة التغلب على العواطف وعدم مطاوعة الهوى .

الحـــالة العسكرية — بعـد سقوط الروسـيا ورومانيا وإصابة ايطاليـا بهزيمة فادحة ، أصبحت النمسا قادرة على الاحتفاظ بكيانها من الوجهة العسكرية، وكذلك بلغاريا التي لم يبق أمامها إلا مقدونيه، وتركيا التي خف عنها عبء الروسيا، وأصبحت قادرة على أن تقوى مركزها في سوريا والعراق . أما ألمـانيا فقد استطاعت نقل أغلب قوتها من الميدان الشرقى الى الميدان الغربى ، فأعيـد التوازن فى الرجال بعض الشيء ، وإن يكن قد بقى للحلفاء التفوق فى الطيران والمدفعيـة ، فتقرر القيام بهجوم عام على خطوط الحلفاء فى ربيع سنة ١٩١٨ لأن أوان دخول أمريكا بقواها السليمة فى المعترك أخذ يقترب شيئا فشيئا على الرغم من الغوّاصات ، "وكان ينتظر من جهة أخرى أن ينعش الهجوم قوّات التحالف الأدبية ، وينتشل الشعوب من تبرمها من حالات الشقاء التى باتت فيها" .

الفصل الأخير — كان الغرض الأساسى من الهجوم شطر قوى الأعداء الدفاعية شطرا تاما بحيث يفتح باب للوصول الى أرض مكشوفة صالحة للقتال . وقـد تقرر فتح هـذا الباب فى خطوط أراس — كامبرية — سان كانتان فى يوم ٢١ مارس . فلما بدأت الأعمال الحربية، لم يستطع الجناح الأيمن التقدّم أبعد من الخط الثانى من استحكامات الحلفاء، ونجح القلب فى دخول الخطوط الثانية فقط، وأما الأيسر فقد تقدّم تقدّما عظيما فى الجهة الغربية من سان كانتان ، وأصبح من المستطاع الوصول الى أميان، وشطر قوى الأعداء بعض الشيء، غير أن جنود الحلفاء هرعت من كل مكان للذود عنها ، وعبثا حاول الألمـان دفع كل قواهم للاستيلاء على المدينة، رغبة فى شطر قوى الحلفاء، وتقريب أجل النصر، فان قواهم كلت هنا كما كلت على طول خط الهجوم .

وفى ٩ أبريل تحوّل الهجوم الى منطقة أرمنتير — لاباسيه للوصول الى المـانش والتســلط على القواعد الانجليزية ، فتكلل العمل بالنجاح فى بادئ الأمر، وبلغت القوّات الألمـانية جبل كيميل، ولكن الفرنسيين أسرعوا لنجدة حلفائهم، فأوقف

الزحف ، وتحوّل الهجوم المفاجئ الى سواسون فى ٢١ مايو لإجبار الجنود الفرنسية على العودة الى الجنوب ، فنجح الألمان نجاحا باهرا فى أوّل الأمر وعبرت جنودهم نهر المارن عند شاتوتيرى ولكن القيادة الفرنسية استدعت الجنود الأمريكية لأوّل مرة ، فاستطاعوا بقوّاتهم السليمة إيقاف الزحف فى هذه المنطقة ، كما أوقف فى دائرة ريمس ، وشمبانيا الجنوبية حيث بدأ الألمان بهجوم جديد .

حينئذ تحوّل الجنرال فوش الذى أسندت اليه قيادة الحلفاء العليا الى الهجوم بعد أن وهنت قوّات الألمانيين . ففى ١٨ يوليه حمل الفرنسيون حملة فجائية على الخط ما بين الأين والمارن ، فاخترقوه فى عدّة نقط حتى أصبحت الجنود القائمة فى بارزة المارن فى أشدّ خطر ، فتقرّر الارتداد منها على عجل لتلافى الكارثة الكبرى . ولما ساد السكون مؤقتا فى الجنوب ، هجم الانجليز بجمع هائل من التانكس فى ٨ أغسطس عند أميان تحت أذيال الضباب الكثيف ، ولم تصادف هذه المركبات أية عقبة فى طريقها طبيعية كانت أو صناعية ، وأصبحت مواقف الألمان حرجة للغاية . وفى ٢٠ أغسطس تكررت هذه الوثبات الفجائية الهائلة بين الواز والأين فاندفع الألمان الى الوراء مسافات بعيدة . وفى ٢١ أغسطس مدّ الانجليز جبهة الهجوم شمالا الى «بايوم» وزحزحوا الأعداء عن مواقعهم . وفى ٢٦ هجموا أيضا عند أراس وكمبريه بنفس النجاح ، فارتدّ الألمان إزاء هذا الهجوم المتكرر الى خط سجفريد . وفى ١٢ سبتمبر بدأت معركة جديدة فى الجنوب الشرقى من فردان وأصيب الألمان بهزيمة خطيرة . وفى ٢٦ سبتمبر تكررت الهزيمة فى ساحة شامبانيا . وفى أواخر سبتمبر تزعزعت خطوط الألمان بأكملها ، ولكنها لم تتداع أركانها ، غير انه حدثت فى هذه الآونة ثغرات عظيمة فى التحالف الرباعى كما سترى .

بلغاريا — استمرّت المصارعة الحزبية على حدتها فى بلغاريا حتى أدّت الى تغيير الوزارة فى أوقات حرجة ، وأوجدت قلة المواد الغذائية وتأثير الحلفاء بكل الوسائل كراهة للحرب ولا سيما بين أفراد الجيش ، فحدثت فتن عديدة وكثرت حوادث الفرار . وازداد الحال حرجا على أثر هزيمة الألمان فى الميدان الغربى ، فقد ازداد

عصيان الجنود فى وجه العدو ، حتى أنهم غادروا مراكزهم بدون قتال تقريبا عند هجوم الحلفاء يوم ١٥ سبتمبر . وعبثا حاول الجنود والضباط الألمان الموجودون فى بلغاريا أن يبثوا روح الحمية والنخوة فى الجنود فان تفكك الجيش كان تاما . وما بقى منه ارتدّ عن مواقعه الحصينة فى جرادسكو واسكوب بلا مقاومة أمام قوات ضعيفة من الأعداء . وفى ٢٩ سبتمبر وقعت بلغاريا عقد الهدنة .

تركيا — فى أوائل سنة ١٩١٨ هاجم العثمانيون على نجاد أرمنيا الجيوش الروسية بنجاح ، ثم اخترقوا الحدود الأرمنية مندفعين الى البقاع القوقازية بأمل الاستعاضة عما فقدوه من الموارد ، وحاولوا أيضا دخول فارس أملا فى مهاجمة جيوش الانجليز المعسكرة فى الجزيرة ، وكان يجب على تركيا أن تحصر مجهودها فى سوريا وفيما بين النهرين ، لأنه بينما كانت جنودها تعمل فى نجاد القوقاز وشمال فارس ، قام الانجليز بهجمات غير ناجحة فى سورية لصعوبة التموين وسوء المواصلات . ولكن فى ١٩ سبتمبر تقدّم الانجليز بغتة فى سهل الشاطئ ، فاخترقوا خطوط العثمانيين من غير صعوبة ، واحتلوا عواصم البلاد الواحدة تلو الأخرى .

وقد كان سقوط بلغاريا فى هذا الوقت داعيا الى تخوّف تركيا على بلادها فى أوربة لأنها أصبحت غير محمية من الغرب ، فقررت قبول شروط الهدنة فى ٣١ أكتوبر .

النمسا — هجمت النمسا عبثا على شمال إيطاليا فى صيف هذا العام حتى لم تعد لديها قوة مادّية أو أدبية كافية لتجديد الحرب مما حمل الامبراطور على بذل مجهودات عظيمة للتوصل الى إبرام الصلح ، فلما هاجمتها إيطاليا فى أكتوبر تفكك الرباط السياسى والعسكرى عند أوّل ضربة ، واضطرّت الى قبول الهدنة فى أكتوبر وبها سلمت للعدو أراضيها ومكنته من الحدود الألمانية .

ألمانيا — ٢٩ سبتمبر الى ٧ نوفمبر : على أثر المواقع الأولى تحوّل القتال فى الميدان الغربى الى سلسلة تقهقر ودفاع من جانب الألمان ، وفيه قام الفريقان بمجهودات لم يسمع بمثلها من الوجهة الجسمانية أو الوجهة الأدبية ولاسيما فى الخطوط

الألمـانية، حيث كانت أوقات الراحة لا تكفى لتجديد الوحدات المتلاشية والمنهوكة قواها وإرسال الأمداد اللازم لها وتوزيع بقايا الفرق المنحلة على وحدات أخرى . وكان الضباط والجنود يسقطون من شدّة الإعياء إلا أنهم عند مايستشعرون الخطر الداهم ينتفضون وينهضون سريعا لصدّ الهجمات . ولقد قاتل كثير من الضباط بل كثير من أرقى أركان الحرب فى الصف الأوّل، وكثيرا ماحملوا البنادق فى أيديهم، وكثيرا ما استحال على القيادة العليا أن تصدر أمرا آخر سوى الامر الآتى : "الثبات الى الموت " !

الهـــدنة — ولمـا وصلت أنباء الشرق فتّ فى أعضادهم كما فتّ فى أعضاد الأمة وخمدت بقية حماســة نفوسهم، لأن إنشاء خطوط جديدة فى الشرق والجنوب كان بعيد الوقوع ، مما دعا الى وجوب البحث عن حل سريع، فبذلت مجهودات عظيمة لحمل قوى الشعب على التحوّل للقتال، ولكن هــذا كله ذهب عبثا " فقد سقط الشعب قبل سقوط الجيش" وأضحى من المستحيل التغلب على الضغط الهائل الذى كان يزداد يوما فيوما . فتقرّر توسيع سلطة الشعب، وطلب التوسط فى الصلح من الرئيس ولسن ليلة ٥ أكتوبر على مقتضى الشروط التى وضعها فى ١٨ يناير سنة ١٩١٨، إلا أن ولسن اشترط فى مذكرات ٩ و ١٧ و٢٣ أكتوبر نزع سلاح ألمـانيا البرى والبحرى حتى تصبح عاجزة من استئناف الحرب ، وحينئذ اختلفت وجهات الرؤساء العسكريين ورجال الحكومة، واســتقال لودندورف الذى أبى أن يرضى بهذه الإهانة، أما الحكومة فقد قبلت شروط ولسن بأ كملها يوم ٢٦ أكتوبر، ووضــعت القائد (جروز) مكان لودندورف ، وكان همه الأعظم تراجع خطوط الدفاع الى موقع أنفرس — ميز (٤ نوفمبر) لأن السقوط أصبح عاما والقوات اضمحلت لاضمحلال الشــعب . ولو حدث أقل تزعزع فى الداخل أو فى خطوط المؤخرة لأصيب الجيش بكارثة مدلهمة . وهذا التزعزع حدث بالفعل، ففى ٩ نوفمبر بدأت الثــورة لأن رئيس الولايات المتحدة أصر على اعتزال القيصر كشرط أساسى للصــلح، فاضطر ولهلم الى الاعتزال " ليوفر على الوطن ضحايا أخرى، ويمكنه من الحصول على صلح أكثر ملاءمة " . وفى ١١ نوفمبر عقدت الهدنة .

الفصل الرابع

الصـــلح

ويل للغـــلوب !

اشترك الحلفاء جميعا فى مؤتمر الصلح الذى عقد فى باريس فى أوائل سنة ١٩١٩ ، غير أن القرارات الأخيرة تمت على يد المستر لويد جورج والرئيس ولسن والمسيو كلمنسو والسنيور أورلندو مندوبى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا على التعاقب[1] .

وقد كانت قاعدة أعمـال المؤتمر شروط الصـلح التى وضـعها الرئيس ولسن فى ١٨ يناير وقبلها الأصدقاء والأعداء معا ، وهى تتضمن أربعة عشر بندا أهمها : الجلاء عن الأراضى المحتلة ، كفرنسا وبلجيكا وغيرها . تحرير الالزاس واللورين . استقلال بولندة . تقليل التسليح . حرية التجارة . حرية البحار . إنشاء عصبة أمم . البت فى أمر المستعمرات الألمـانية وشعوب الأمبراطورية العثمانية والنمساوية على قاعدة « حق تقرير المصير » .

(١) أصبح مركز ألمـانيا حرجا جدا منذ أواخر سنة ١٩١٦ نظرا لتفوق الحلفاء فى الرجال والمعدّات وكان هذا التفوق يزداد على التوالى بينما كانت موارد دول التحالف الرباعى آخذة فى التناقص ، ففى سبتمبر سنة ١٩١٦ طلب من رئيس الولايات المتحدة التدخل فى ابرام الصلح فلم يعر هذا الطلب شيئا من الأهمية فى بادئ الأمر حتى اضطرت دول التحالف أن تخـابر أعداءها مباشرة فى الأمر (١٢ ديسمبر) غير أن الحلفاء رفضوا هـذا الطلب فى مذكرة ٣٠ ديسمبر . وفى ١٨ ديسمبر خابر ولسن الدول المتحاربة لاعلان شروط الصلح التى ترضاها فاقترحت دول التحالف (٢٦ ديسمبر) المناقشة فى الأمر بين الدول المتحاربة فى بلاد محايدة . أما الحلفاء فقد رفضوا الصلح (١٢ يناير) بلهجة أشدّ ممـا جاء فى مذكرة ٣٠ ديسمبر . وفى يوليه سنة ١٩١٧ أعلن الرشستاغ رغبته فى الصلح . وتوسط البابا أيضا لهذا الغرض ثم دارت مناقشات عديدة بين الدول المتحاربة فى أواخر هذا العام وفى صيف عام ١٩١٨ ولكن بغير نتيجة .

غير أن شروط ولسن لم تحقق فى مغزاها ومعناها ، فقد فشل الرئيس فى تطبيق القواعد التى اتخذت أساسا للصلح ، ولم يستفد من المركز الأدبى العظيم الذى وضعه فيه العالم حينما دخل المؤتمر، فتمت التسوية على المبادئ القديمة ، مبادئ العمل على إشفاء الأحقاد لا العمل على إزالتها ، مبادئ إيثار المصالح الخاصة على المنفعة العامة ، مبادئ الارهاق والاستعمار على مبادئ الحق والعدل والحرية ، وهكذا حبطت الآمال والأمانى التى عقدت على المؤتمر، وهوت الولايات المتحدة أدبيا فى نظر العالم، ولو أنها كفرت عن عجز رئيسها برفض المصادقة على أعمال المؤتمر .

معاهدة فرساى — فى ٢٨ يونيه سنة ١٩١٩ وقع مندوبان عن ألمانيا شروط الصلح فى نفس القاعة التاريخية التى توج فيها ملك بروسيا أمبراطورا لألمانيا فى ١٨ يناير سنة ١٨٧١ ؛ وتشتمل شروط المعاهدة على مواد تأديبية ، ومواد تبين الحدود الجديدة لألمانيا وأخرى حربية واقتصادية .

الشروط التأديبية — اعتبرت ألمانيا مسئولة عن قيام الحرب وارتكاب أشنع الجرائم فى سبيل رغبتها فى التسلط على العالم ، وكذلك حملت مسئولية ما أصيبت به المدنية من فقد الملايين من المال والرجال والفوضى الاجتماعية والاقتصادية التى نشأت عن الحرب ، واشترط عليها قبول محاكمة القيصر وأعوانه من القادة الحربيين والسياسيين باعتبارهم المدبرين لوقوع الحرب والمسئولين عن الإعتداء الذى وقع على حقوق الأفراد والشعوب ، هذا فضلا عن إلزام ألمانيا بدفع التعويض اللازم لتعمير المناطق التى خربتها الحرب ، وإلغاء معاهدة برست ليتوفسك ومعاهدة بخارست !!

الحدود الجديدة لألمانيا — أعيدت الالزاس واللورين الى فرنسا ، وحررت الأراضى البولندية وأقيمت فيها حكومة حرة ، وأعطيت فرنسا حق احتلال واستغلال وادى السار (Saar) لمدة خمس عشرة سنة تحت إشراف عصبة الأمم ، وفى نهاية تلك المدة تترك الحرية لأهل تلك المنطقة لتقرير مصيرهم فى المستقبل .

وأضيفت الى البلجيك بعض المناطق الواقعـة شرق حدودها ، كما أعطى الأهالى فى سيليزيا ، وشلسويج هلستين ، ومنطقة دانتزيج ، حق البت فى مصيرهم (وقد ضمت الأولى لبولندة والثانية للدانيمـارك والثالثة بقيت حرة) .

وأما مستعمرات ألمـانيا الأفريقية فقـد استولت عليهـا انجلترا تحت سـتار الانتداب لإدارتها من لدن عصبة الأمم . وكذلك استولت اليابان على كياتشاو .

الشروط الحربيـــة — جعل الحدّ الأقصى للجيش الألمـانى مائة ألف جندى ، وألغى التجنيد الاجبارى ، وحظر على ألمـانيا الاحتفاظ بأسطول حربى ، وصنع المعدّات والذخائر الحربية زيادة عن قدر معين ، كما حظر عليها تشييد القلاع والحصون أو إيجاد ثكنات عسكرية أو نقط حربيـة على الشاطئ الأيمن لنهر الرين لمسافة ٥٠ كيلو مترا . وأما الشاطئ الأيسر فتقرر أن يحتله الحلفـاء لمدّة أقلها خمس سنوات وأكثرها خمس عشرة سـنة لضمان تنفيـذ المعاهدة ، ويمكن إطالة او تقصير ذلك الأجل تبعا لمـا تبديه ألمـانيا من الاخلاص أو المماطلة فى التنفيذ ، وفوق كل هذا احتفظ الحلفاء بحق الأشراف على التعليم العسكرى فى ألمـانيا ومراقبة ما تصنعه من الذخائر لضمان عدم الاخلال بهذه الشروط .

الشروط الاقتصادية — أرغمت ألمـانيا على تسليم أسطولها التجارى ، وتقديم ما يطلب منها من المواد الأوّلية ، ودفع غرامة حربيـة باهظة على أقساط سنوية بنسبة ما قدّر لها من الكفاءة المـالية ، وعلى الجملة قيدت البـلاد اقتصاديا كما قيـدت حربيا بالرغم من التناقض العظيم بين إرغامهـا على دفع مبالغ طائلة على سبيل التعويض ، وانتزاع كل وسائل الدفع فى وقت واحد .

معاهدة سان جرمان — وفى ١٠ سبتمبر سـنة ١٩١٩ وقعت النمسـا المعاهدة التى قضت باستقلال الشعوب الخاضعة لها كالمجر ، وصقالبة الشمال الذين تكوّنت منهم دولة التشكوسلوفاكيا ، وصقالبة الجنوب الذين أصبحت تضمهم دولة

يوجوسلافيا، وكذلك امتدت حدود ايطاليا شمالا وشرقا حتى دخلت فيها كل المناطق الايطالية الأصل بل وبعض المناطق النمساوية ، كمنطقة تريستا . وقد أدرك السياسيون الآن أن النمسا لم تكن وحدة سياسية فحسب ، بل وحدة اقتصادية أيضا، وانحلالها على هذه النحو ضاعف أزمة أوربة .

معاهدة نويلي — وفى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٩ أمضت بلغاريا المعاهدة التى نزلت فيها عما كسبته خلال الحرب العظمى بل ومعظم ما أخذته فى الحرب البلقانية سنة ١٩١٣

معاهدة سيڤر — وفى ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ أرغمت حكومة الأستانة على توقيع هذه المعاهدة التى قضت بالاعتراف بوضع مصر تحت الحماية البريطانية وانتداب انجلترا لإدارة شئون فلسطين والعراق ، وفرنسا لإدارة سوريا، وضم تراقيا وجزء من الأناضول الى اليونان ، وقسمت باقى أراضى الأناضول الى مناطق نفوذ بين الحلفاء، ووضعت الأستانة وكذلك البوسفور والدردنيل بعد تحطيم قلاعهما تحت رقابة الدول، واعترفت المعاهدة بالشريف حسين ملكا على الحجاز .

عصبة الأمم — أما عصبة الأمم التى عقدت عليها الآمال الكبار فانها أقيمت على أساس ضعيف، فقد تقرر إنشاء مجلس يضم مندوبى الدول التى يقرر قبولها فى العصبة، وتشكيل هيئة تنفيذية من مندوبى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان وأربع دول أخرى يعينها مجلس العصبة، وتقرر أن يكون إجماع الدول التسع شرطا أساسيا لجعل قرارات العصبة نافذة المفعول، غير أنه لم تعين وسائل تنفيذ القرارات بصفة قاطعة، وبذا ظهرت العصبة بلا سلطة فعلية فى الواقع، كما أن جعل الأغلبية فى المجلس التنفيذى لدول الحلفاء معناه فى الحقيقة احتفاظ هذه الدول بمحالفة مستديمة تملى إرادتها على دول الوسط، وفى ذلك تناقض بيّن ومنافاة صريحة لروح الإخاء ومبادئ الانسانية التى يراد أن تجرى عليها السياسة الدولية .

أوربا عقب المؤتمر — ليس من السهل الآن تقدير النتائج المترتبة على المعاهدات التى أبرمت عقب الحرب الكبرى، ولا النجاح الذى يمكن أن تصادفه هـذه المعاهدات، ولكن هناك مايبعث على الاعتقاد أنه طالما كانت المعاهدات لاتقوم إلا على إملاء رغبة الغالب على المغلوب فان حظها من النجاح قليل .

ففى تركيا هبّ الأتراك فى وقت حسبهم فيه العالم على وشك الفناء الأخير يضربون مثلا جديدا على القوة الحيوية الكامنة فى نفوسهم، فقد لموا شملهم فى سهول الأناضول ونجادها، وجمعوا مؤتمرا وطنيا يمثل الأمة بدل المجلس الذى عطله الحلفاء فى الأستانة، وأقاموا من بينهم حكومة فى أنقره، منفصلة عن الأستانة، يرأسها جندى كبير هو القائد مصطفى كمال باشا، وجعلوا يعملون لاسترداد قواهم الحربية الممزقة حتى إذا تهيأت لهم الأحوال، أخذوا يعلنون بطلان معاهدة سيفر و يضعون العراقيل فى سبيل تنفيذها، وعبثا حاول الحلفاء أن يخضعوا تلك القوة الجديدة بجيوش اليونان التى كان لها النصيب الأكبر فى إرث العثمانيين، فقد وقف هؤلاء فى بادئ الأمر ينازعونهم ذلك الإرث حتى إذا اشتدّ عضدهم حملوا عليهم فى خريف عام ١٩٢٢ حملة شديدة مزقت جيوشهم واضطرتهم الى الجلاء عن أراضى الأناضول. حينئذ اضطر الحلفاء الى إعادة النظر فى معاهدة سـيفر . وفى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ استرد الأتراك كل ما كان لهم فى الأناضول وتراقيا وانجلى الحلفاء عن الأستانة، ونزلوا عن مقدار عظيم من الغرامة الأولى، كما نزلوا عن كل مالهم من الامتيازات فى تركيا . على أن هذه النهضة لاتقف عند حدّ تركيا وحدها ، ففى مصر والعراق وفلسطين وسوريا والحجاز تجمع الصفوف وتنكشف الأيام عن حوادث ذات بال مآلها القضـاء على كل ماتقـرّر فى معاهدة سيفر .

هذا وأما فى ألمـانيا فقـد كان من جرّاء القرارات المعقدة التى وضعها الحلفاء فى المعاهدات التى فرضوها على خصومهم، وصعوبة تنفيذ بعضها ولا سيما الشروط المـالية والحربية، أن أخذت تختلف وجهات نظرهم باختلاف مصالحهم ،

فاضطروا الى عقد عدّة مؤتمرات متوالية لمعالجة أوجه الخلاف فيما بينهم ولكن بلا جدوى، فقد تشدّدت فرنسا فى مطالبة ألمانيا بكل ماقررته معاهدة فرساى من التعويضات مهما كان فى ذلك من الخطر على الحالة الاقتصادية فى أوربة . وأما انجلترا فقد رأت فى مطامع فرنسا وسياستها خطرا عسكريا لايقل عن خطر ألمانيا القديم، كما أنها رأت أن مصالحها التجارية تقضى بالتساهل مع ألمانيا ومساعدتها للانتعاش اقتصاديا، وقد وقفت ايطاليا موقفا وسطا بين الفريقين، بينما احتفظت أمريكا بعزلتها وابتعادها عن الشئون الأوربية وأخذت تطالب الحلفاء بما لها عندهم من الديون، فلما عجزت فرنسا عن إشراك حلفائها لإرغام ألمانيا على الدفع، انفردت بالعمل واحتلت وادى الرور الشهير بمعادنه، غير أنها لم تجن الفائدة التى كانت تبتغيها لأن قدرة ألمانيا على الدفع كانت تقتضى إنعاشها اقتصاديا، ولذا قبلت فرنسا أخيرا الاشتراك مع الحلفاء فى إعادة النظر فى مشكلة التعويضات على أساس تقريروضعته لجنة من الحلفاء وسمى تقرير « دوز » وهو ينص على إقراض ألمانيا مبلغا كبيرا من المال تستطيع به إنهاض صناعاتها فى نظير دفعها التعويضات على أقساط معينة تزداد بازدياد انتعاش ألمانيا ولكنه لم يمكن تنفيذ ذلك المشروع بحذافيره لظهور عقبات عملية مختلفة كانت نتيجتها اجتماع مؤتمر من الخبراء الماليين يمثلون ألمانيا والحلفاء والولايات المتحدة فاتفقوا على مشروع جديد وقعوه فى باريس فى يونيه ١٩٢٩ وبه حدد دين ألمانيا نهائيا وحددت الأقساط السنوية كما تقرر الغاء المراقبة والقيود التى كانت موضوعة على بعض موارد الثروة الأهلية فى ألمانيا لضمان دفع الأقساط السنوية واستبدل ذلك النظام ببنك دولى تشترك فيه ألمانيا ويسمى بنك التسويات الدولية تكون مهمته الأشراف على تسديد الأقساط وتوزيعها ويعرف ذلك المشروع باسم مشروع "يونغ" (Young) .

أما مسألة تأمين فرنسا من الخطر الألمانى، وهى المسألة التى جعلت فرنسا ترفض طويلا إنعاش ألمانيا، فقد تطوّرت تطوّرا خطيرا فى السنين الماضية وأثارت مناقشات حادّة بين الدول ذات الشأن، فقد كان المأمول أوّلا أن تحالف

انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة لضمان تنفيذ معاهدة فرساى ومنع ألمـانيا من محاولة الأخذ بالثأر . إلا أن سياسة العزلة التى اتبعتها أمريكا فيما يختص بالشئون الأوربية جعلت انجلترا ترفض كذلك أن ترتبط مع فرنسا فى محالفة لا تعرف نتائجها .

ومن ثم وضعت الدول فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ حلا للمشكلة على قاعدة إبرام ميثاق للسلام العام ، وهذا الميثاق يقرر مبدأ التحكيم الاجبارى لفض الخلافات التى قد تنشأ بين الدول قبل أن يستفحل أمرها ، ويقرر القواعد العـامة التى تتبع فى اتخاذ وسائل التأديب ضدّ المعتدى ، كما أنه ينص على تفصيل الاجراءات التى تتبع لأجل إعلان الاعتداء وتقرير التدخل فى سبيل التحكيم أو التأديب .

غير أن وزارة المحافظين التى أعقبت حكومة العمال فى انجلترا أبت أن تتقيد بعهود ترغمها على التدخل فى كافة الشئون الأوربية ، ورفضت أن تبرم الميثاق نهائيا ولذا بقيت العلاقات الفرنســية الألمـانية شـديدة التوتر الى أن وضعت ألمـانيا فى ٩ فبراير ســنة ١٩٢٥ اقتراحا مؤدّاه وضع أساس للسلم فى منطقة غرب أوربة التى كانت موضع الخطر على الدوام .

وفى مؤتمر عقد فى لوكارنو فى أكتوبر سنة ١٩٢٥ بين ألمـانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا والبلجيك وضعت معاهدة مؤدّاها ضمان الحدود التى وضعتها معاهدة فرساى بين ألمـانيا من جهة والبلجيك وفرنسا من جهة أخرى ، وفيه قطعت هـذه الدول الثلاث عهدا على نفسها بألا تبـادئ إحداها الأخرى بحرب ، إلا اذا صـدر قرار باتفاق الآراء من جمعية الأمم بالالتجاء للحرب ، ففى هذه الحالة فقط يستطيع أى فريق منها اتخاذ تدابير حربية : ومعنى هذا أن يكون التقاضى والتحكيم مبدأ أساسيا من مبادئ السياســة فى غرب أوربة ، وألا يلتجأ الى الحـــرب إلا باقرار الدول وبعد فشل كافة وسائل السلم ، وقد تعهدت ايطاليا وانجلترا باعتبارهما فريقا من المتعاقدين بأنهما تؤيدان ألمـانيا اذا اعتدت عليها فرنسا وبلجيكا والعكس بالعكس . والمعاهدة تذكر بايضاح وجلاء أن هـذه المعاهدة لا تمس سلطة جمعية الأمم بأى حال بل إن

الغرض منها هو معاونة الجمعية فى مهمتها ، حتى اذا اشتد ساعدها وازدادت قوتها استطاعت أن تقدّم ضمان السلامة الذى انطوت عليه معاهدة لوكارنو . ولتحقيق أغراض هذا الميثاق تقرّر أن تلتحق ألمانيا بعصبة الأمم فى ظرف أسابيع قليلة وأن يكون ذلك على قدم المساواة بينها و بين الدول الأخرى .

وقد اجتمع مندوبو الدول فى لندرة فى أوّل ديسمبر سنة ١٩٢٥ للتوقيع على المعاهدة بصفة قاطعة بعد مصادقة برلمانات الدول الموقعة على الميثاق، وفى سبتمبر التالى دخلت ألمانيا عصبة الأمم لتوطيد دعائم السلم المرجى، بيد أن هذا السلم لن يتحقق إلا اذا ضحيت المصالح الخاصة فى سبيل المصلحة العامة ، وانتصرت الدول للضعيف ضدّ القوى أياكان، وإلا كان القرن العشرين قرن نزاع وجهاد لتحقيق أحلام ولسن، كما كان القرن التاسع عشر عهد جهاد لتحقيق مبادئ حقوق الانسان .

المصادر

تاريخ عصرنا (Gooch) — تاريخ العصر الحديث (Hodges) — مذكرات هندنبرج — مذكرات لودندورف — تاريخ الحرب (التيمس) — تاريخ الحرب العظمى (F. M. Bridges) — تاريخ الحرب (H. Vast) — أخبار وحوادث وصور الحرب (مطبوعات الحكومة الانجليزية) .

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩/٨٤٢/١٧٠٠)








Bibliotheca Alexandrina
0398974